


الكسندر كوبرين
سوار العقيق

الكسندر كوبرين

سوار العقيق

قصص



دار «رادوغا»

موسكو



ترجمة د . ابو بكر يوسف

طبع فى الاتحاد السوفييتى

К $\frac{4702010100-136}{031(05)-85}$ без объявления

ISBN 5-05-0005590

فنان الحياة

بقلم اندريه تشيرنيشوف

كم كان مدهشا الكسندر ايفانوفتش كوبرين ! كان انسانا كبير القلب ، طيبا ، عطوفا ، ذا طبيعة قوية ، فوارة . وكان يتميز بظمأ جارف الى الحياة ، وتوق الى معرفة كل شيء ، واتقان كل شيء ، وتجربة كل شيء . ففى مطلع عصر الطيران كان من اوائل من استقل المنطاد ، وبعدها بقليل ركب الطائرة ، وكاد يلقى حتفه عندما اخذت الطائرة تهوى فجأة . وواجه العاصفة فى البحر مع الصيادين على متن قارب متهالك ، وغاص الى الاعماق فى حلة غواص . وشرب الشمبانيا فى قفص واحد مع الاسود . كم من اعمال زاولها ، واى تجارب خاضها !

لقد قال احد أبطاله عن نفسه : «ساعدت فى قص شعر كلاب البودل وقطع ذيول جراء

الفوكستيرير ، وتاجرت فى دكان بقالة فى غياب صاحبها ، ونظمت المكتبات المهملة ، واحصيت النقود فى خزائن سباق الخيل ، واعطيت خطفاً ، دروساً فى الرياضيات وعلم النفس والمبارزة . . .» . بيد ان خبرة كوبرين الحياتية كانت اكثر تنوعا من ذلك . فقد اضطر الى العمل ملقناً وفحّاماً ، ومنشدا فى كورال الكنيسة ، وطبيب اسنان ، وحمّال بطيخ ، وصيّاداً ، وقيّاس اراض ، وبائعا للادوات الطبية ، وخوليا لضيعة .

كوبرين . . . يطل عليك من الصورة وجه عريض هادئ لرجل قوى ، واثق من نفسه . ولقد كان بالفعل يتمتع بقوة بدنية خارقة . كان يثنى حدوة الحصان بكل سهولة . وكان بمنكبيه العريضين ، وجسمه الربعة ، وعضلاته المفتولة لا يشبه الكاتب ابداً ، بل يبدو أشبه بحدّاد . لكن عينى كوبرين ، المزرورتين بنظرة ماكرة ، كانتا عينى كاتب . فمن نظرته يشع حب للحياة ، وطيبة ، وموهبة وقوة ملاحظة .

وكأستاذ قدير للقصة القصيرة ، وككاتب

للروايات الرائعة ، رسم كوبرين لوحة عريضة للحياة الروسية فى اواخر القرن الماضى ومستهل القرن الحالى . فَمَنْ من الاشخاص لا تجدهم بين ابطاله ! هناك صيادو البحر الاسود ، ومطببو الريف ، والمهندس الزراعى ، والكاتب ، ومهرج السيرك ، والعازف فى حان الميناء . . . ولكل منهم شخصيته المميزة ، وعالمه الروحى الخصب . لقد كان الكاتب ينظر الى البسطاء نظرة حانية ، دافئة .

وينبض ابداع كوبرين بالحب لروسيا ولشعبها الموهوب المثابر ، ولطبيعتها السخية . بيد ان الكاتب كان يعرف الحقيقة المرة عن روسيا القيصرية . كان يعرف احوال الفلاحين والعمال الصعبة ، ويرى ان القانون يكرس ظلم كثير من الأقليات القومية . وكفنان شريف رفع صوته احتجاجا على اللامساواة الاجتماعية . وبينما اكّد كثيرون من معاصريه ان الانسان عاجز ومحكوم عليه بالمعاناة ، كتب كوبرين فى احدى مقالاته : «لقد جاء الانسان الى الدنيا ليحيا فى حرية بلا حدود ، وليبدع ويسعد» . وهذه

يعرف ما هذا !

كان ببروف جيئة وذهابا فى الغرفة ويضرب بالسوط على رقبة حذائه الطويل وهو يصغى شاردا الى الدكتور . ولم يستطع ان يتخلص حتى الآن من المرارة التى ترسبت فى قلبه عند آل زيننكو .

وصمت الدكتور قليلا ، ثم قال مواسيا وقد رأى ان صاحبه غير راغب فى الحديث :

— اسمع يا اندريه ايليتش . . حاول ان تستلقى وتغفو دقيقة ، وخذ ايضا ملعقة او ملعقتى بروم . انه مفيد فى حالتك النفسية هذه ، وعموما فلا ضرر منه ابدا . . .

واستلقيا معا فى غرفة واحدة . نام ببروف على السرير ، اما الدكتور فعلى نفس الكنبة . ولكن احدا منهما لم يستطع ان يخلد الى النوم . وظل جولدبرج يصغى طويلا فى الظلام الى زفرات ببروف وهو يتقلب من جنب الى آخر . واخيرا بدأ الدكتور الحديث :

— ماذا يا عزيزى ؟ ماذا ، تتعذب ؟ الافضل ان تقول لى صراحة ما الذى غاص هناك ، فى اعماقك ؟ ستشعر براحة اكثر على

كل حال . اعتقد انى لست شخصا غريبا عنك ، ولا اسألك لمجرد حب الاستطلاع .

اثرت هذه الكلمات البسيطة فى نفس ببروف . ورغم انه كانت تربطه بالدكتور علاقة صداقة تقريبا ، الا ان احدا منهما حتى الآن لم يؤكد ذلك جهارا ولو بكلمة . . كانا كلاهما حساسين ويخشيان من خجل الاعترافات المتبادلة الشائك . وكان الدكتور هو المبادر الى فتح قلبه ، وساعده على ذلك ظلام الليل وشفقته على اندريه ايليتش .

فرد ببروف بصوت خافت :

— كل شىء ثقيل على قلبى ومقزز يا اوسيب اوسيبوفتش . اول ما ينفرنى اننى اعمل فى المصنع واتقاضى عن ذلك اجرا كبيرا ، بينما انا لا اطيق هذا العمل ، لا اطيقه ! اننى اعتبر نفسى انسانا شريفا ولذلك اسأل نفسى بصراحة : «ماذا تفعل ؟ من الذى يستفيد منك ؟» وعندما ابحث فى هذه الامور ارى انه بفضل مجهوداتى ومع الزمن سيضع مئة من التجار الفرنسيين وعشرة من الروس الماكرين

وبعد بضعة اشهر انهى كوبرين الكلية وعيّن ضابطاً . وبدأت سنوات الخدمة فى مدينة بروسكوروفو الصغيرة فى اوكرانيا .

وعلى الفور أصبح غريبا فى وسط الضباط . فخلف بهرج الاستعراضات العسكرية الفارغ وعجرفة الضباط الفئوية استشف كوبرين الخواء الروحى ، واللامبالاة الصارخة بالخدمة ، والمعاملة اللاانسانية للجنود . وبعد مضى السنين ستنعكس ذكريات كوبرين عن الخدمة العسكرية فى روايته «المبارزة» .

استقال كوبرين من الخدمة العسكرية عام ١٨٩٤ ، وراح يحلم بأن يصبح اديبا ، لكنه كان مضطرا ، لكى يكسب قوته ، ان يعمل مراسلا صحفيا . واخذ يكتب فى مختلف المجالات الصحفية : من الافتتاحيات الى اخبار الجرائم . وفى اوقات الفراغ يكتب القصص القصيرة . وفى عام ١٨٩٦ نشر له اول عمل روائى كبير ، رواية «الغول» .

كان كوبرين يعرف مادته جيدا ، وقد عاشها واستوعبها . فقد كان احد مبادئ ابداعه الاساسية : «أن تعرف تمام المعرفة ما تكتب

عنه» . وقد طاف كمراسل جريدة بحوض الدونيتس — مركز استخراج الفحم وانتاج المعادن . وبعد ان فرغ من اعماله الصحفية التحق بالعمل فى مصنع درفلة القضبان لعدة اشهر ، لكى يجمع مادة روايته .

كانت رومانسية العمل الجماعى تجذبه اليها . وراح يروى لزملائه فى الجريدة انه لم يستطع ان يشبع «من تملى عمل الاسطوات الماهر الجسور» . وكان يرى مغزى الحياة الرئيسى فى العمل المفيد للمجتمع . ولكن بدلاً من ان يعود العمل بالفرحة على النفوس أصبح لعنة ، وتحول الانسان الى تابع للآلة ، وصار المصنع «جحيما لا يطاق» .

وهكذا كانت رواية «الغول» محاولة من كوبرين لادراك كنه هذا التناقض . كانت عملا من اعمال الوعى بالذات لهذا الكاتب الشاب ، تحدث فيه لأول مرة فى ابداعه الفنى بأعلى صوته عن الظلم الاجتماعى . ان الغول (فى الاصل : مولك ، وهو إله الحرب والنار عند الفينيقيين القدماء) هو معبود رهيب كانوا يحاولون استعطافه بتقديم اولادهم ضحية له . وكان مولك اكثر

آلهة العالم القديم تعطشا الى الدماء . ولكن مولك الجديد ، اى الرأسمالية ، فى يقين كوبرين ، اكثر بشاعة وروعا من الإله القديم .

ونجد فى الرواية الكثير من التفاصيل التقنية لعملية الانتاج ، والارقام والحسابات الاحصائية . وقد افضت الحسابات الى استنتاج فظيع : «ان العمل فى المناجم والمحاجر ومصانع الحديد والمصانع الضخمة يقصّر حياة العامل بمقدار الربع تقريبا» .

وجعل كوبرين بطل روايته مثقفا شريفا ، باحثا عن الحقيقة ، من ذلك القطاع من المثقفين الذين كانوا آنذاك يدافعون عن البؤساء . وكخيط احمر تنتظم الرواية كلها عبارات المهندس بيروف النقدية الحادة . فبصفته مهندساً فى المصنع فانه يعرف جيدا آلية استغلال الانسان للانسان ، ويرهقه مشهد مصائب الجماهير الشعبية . وهو يشعر بكراهية عميقة لذلك الوغد الصفيق كفاشنين ، «ذلك الكيس الدهنـــــى القذر ، المحشو بالذهب» ، والطفيلى والمنافق سفيجيفسكى الذى يسعى الى ان يصبح من الاغنياء . . . . عالم قاس ، الشمس فيه مجرد قطعة نقود ، وبالنقود

يُشترى كل شيء : الحب والاحترام والولاء .

ولكن بيروف ، وكذلك صديقه وشريكه فى الفكر الدكتور جولدبرج ، لا يريان وجودا لأية قوة يمكن ان تواجه مولك . فكلاهما لا يرى فى العمال سوى الاذعان والصبر الطويل . «اطفال وابطال فى الوقت نفسه» — يقول عنهم جولدبرج . «اطفال كبار بقلوب شجاعة» — يرد عليه بيروف .

ولكن الحياة نفسها تدحض مسار افكار الأبطال عندما يصطدمون بانتفاضة العمال .

ونعرف من رسائل كوبرين الى ميخايلوفسكى ، رئيس تحرير مجلة «الثروة الروسية» ، حيث صدرت رواية «الغول» لأول مرة ، ان صورة الانتفاضة العمالية العريضة كانت تختم الرواية فى مشروعها الأول . ولكن تحت ضغط ميخايلوفسكى ولظروف الرقابة ، اضطر الكاتب الى اعادة صياغة النهاية ، مركزاً الاهتمام على معاناة بيروف . ومع ذلك يعرف القارئ من التفاصيل الصغيرة المبعثرة فى النص بوقوع اضطرابات فى المصنع واحراق مبانى ومخازن المصنع ، واخماد الانتفاضة بالقوة .

وفى نهاية الرواية يقوم الدكتور جولدبرج بتضميد الجرحى والمصابين .

ونهاية الرواية مفعمة بالمأساوية ، اذ يبقى «الغول» المتعطش الى الدماء مسيطراً ، ويمضى ببروف ، الذى تجرأ على تحديه ، باحثا عن النسيان فى المورفين ، بينما قُمعت الانتفاضة العمالية . وهكذا لم يستطع الكاتب الشاب ان يرى طرق حل هذا الصراع الذى رسمه بقوة كبيرة . ولكن التاريخ نفسه اوحى بحله الحقيقى . فبعد تسع سنوات فقط من صدور «الغول» هزت الثورة الروسية الاولى (عام ١٩٠٥) دعائم النظام المطلق .

استقبل النقد ظهور الرواية بتعاطف . ولكن كوبرين فى ذلك الحين لم يكن قد حسم بعدُ مسألة ارتباطه نهائيا بالأدب . وقضى النصف الثانى من تسعينات القرن متجولا فى ارجاء روسيا ، مقبلا بكل استعداد على اى عمل . وفى تلك الفترة تقلّب بين معظم المهن المدهشة التى زاولها .

وزار تشيخوف فى يالطا ثلاث سنوات متتالية (١٨٩٩ — ١٩٠١) . وكان تشيخوف يشجع الكاتب

الشاب ويسانده ، ويدفعه الى الثقة بقواه . فقرر كوبرين ان يركن الى حياة الاستقرار ، والى مزاولة العمل الادبى بانتظام .

وانتقل كوبرين فى خريف ١٩٠١ الى بطرسبرج فأصبح دفعة واحدة فى قلب الحياة الثقافية . واحاط به ادباء موهوبون مثل بونين وسيرافيموفتش وجارين–ميخايلوفسكى ... وقُدِّم كوبرين الى ليف تولستوى . وكان تعرف بمكسيم جوركى مرحلة هامة من مراحل تطوره .

كان اسم مكسيم جوركى فى تلك الفترة يتردد على جميع الشفاه ، وكانت نداءاته الثورية الجريئة ، وعلاقته بالحركة العمالية والاشتراكيين الديمقراطيين تثير الاعجاب والحماسة فى النفوس .

وجذب جوركى كوبرين الى المساهمة فى اصدار مجموعات دار «المعرفة» التى جمعت افضل القوى الادبية الديمقراطية . وفى عام ١٩٠٣ صدرت عن هذه الدار اول مجموعة قصص لكوبرين .

وكان كوبرين فى ذلك الحين قد اصبح مشهورا بقصصه الفريدة عن المسرح والسيرك ،

وروايته الرائعة المثيرة عن الحب «أوليسيا» .

ان «أوليسيا» اضافة ذات طابع خاص الى رواية «الغول» ، ومحاولة من الكاتب لتقديم شخصية رائعة حقاً ، شريفة ، نبيلة ، لم تفسدها الحضارة البرجوازية . وبطلة الرواية حسناء متوحشة ، نشأت وتربت وسط مجاهل الغابات محتفظة باستقلالية النفس والاباء والجرأة .

ومع رواية «أوليسيا» ظهر فى ابداع كوبرين موضوعان حددا الى درجة كبيرة اصالته كأديب . فهناك موضوع «الانسان والطبيعة» الذى تجلى كنقد موجه الى الحضارة الآلية القاسية ، وكدعوة لاستعادة علاقة الانسان بأرض اجداده ، وموضوع الحب ، اسمى الاحاسيس الانسانية . وتعتبر روايات كوبرين وقصصه عن الحب — «سولاميف» و«سوار العقيق» و«زهور البنفسج» وغيرها — من اجمل ما كتب فى الأدب الروسى .

بيد ان الحياة قدمت لكوبرين مواضيع اخرى . فقد دخلت البلاد مرحلة الثورة الروسية الاولى . وعلى قمة الموجة الثورية ظهرت فى مايو ١٩٠٥ رواية كوبرين «المبارزة» فعززت شهرته

كواحد من قادة الفكر والادب الروسى .

لقد ظهرت هذه الرواية ، التى تتناول حياة الجيش ، بعد هزيمتين قاسيتين منى بهما الجيش القيصرى فى الحرب الروسية اليابانيـــة (١٩٠٤ — ١٩٠٥) فى بُورْ أرتور وتسوشيما ، فاستقبلها القارئ كعمل يتناول قضية ملحة ، وكأجابة على السؤال المطروح حول اسباب هاتين الهزيمتين . ولاقت الرواية نجاحا هائلا . وقال جوركى عنها فى احدى المقابلات : «اعتقد انها ستترك اثراً لا يمحى فى نفوس جميع الضباط الشرفاء ، المفكرين» .

وفى عام ١٩٠٥ ينخرط كوبرين فى عمل اجتماعى نشيط ، فيعقد صلات ببحارة البحر الأسود الثوريين ، ويشارك فى الحفلات الخيرية لصالح الثوار ، ويخفى عنده الهاربين من ملاحقة الشرطة . وشهد الكاتب المذبحة الوحشية التى ارتكبها الأميرال تشوخنين ضد بحارة المدمرة «أتشاكوف» المتمردين . فقد قصف تشوخنين المدمرة بالمدافع وهى فى المرفأ ، واضرم فيها ناراً هائلة ، احترق فيها عدة مئات من البحارة .

وهاجم كوبرين هذا الجلاد بجرأة ودون خوف في مقال منفعل بعنوان «احداث سيفاستوبول» .

ان عام ١٩٠٥ هو صفحة من انصع الصفحات في حياة كوبرين الأدبية . ومع ذلك ، ففي فترة المد الرجعي التي اعقبت قمع الثورة والتي تنكر فيها كثير من الكتاب لمواقفهم السابقة المناصرة للحرية ، ظل كوبرين كما كان وطنيا وديمقراطيا .

لقد جاءت الشهرة لكوبرين مع رواية «المبارزة» . ولكن الشهرة الواسعة تعرقل العمل الأدبي . فاضطر الاديب الى الهرب من الزوار اللحوحين ، وكان احيانا يهجر بيته دون ان يبوح بعنوانه الجديد لأحد . وكم كانت فرحته كبيرة عندما كان يترك حياة بطرسبرج بصخبها وهرجها ويمضي الى قرية نائية تبعد حوالي مائة وعشرين كيلومتراً عن اقرب سكة حديدية ! ويطوف هناك بالغابات والاخوار ببندقية صيد ، او — في الغالب — بآلة تصوير ، ويدخن التبغ الرخيص مع الفلاحين بجوار النيران المشتعلة ، ويكتب كثيرا .

ولم تعد عليه الشهرة بالثراء ، وكان يصرف

امور معيشته بالكاد . وقد تذكر بأسى كيف انه تلقى ذات مرة رسالة لم تسدد اجرة بريدها كاملة فلم يستطع ان يجد بضعة كوبيكات ليدفعها للساعي . وكان الكاتب يضطر احيانا ، من اجل لقمة العيش ، لأن يكتب على عجل ، ويبدد موهبته على اشياء تافهة . ومع ذلك فقد كتب في تلك الفترة روائع مثل «جمبرينوس» ، و«زمرد» و«سوار العقيق» .

كان كوبرين يميل الى الشخصيات القوية الساطعة . وكان مؤمنا بأن الكتاب لا ينبغي ان يكتبوا عن انحطاط الانفس واستسلام البشر في صراعهم ضد الوضاعة بل عن قدرتهم على استجماع قواهم لمواجهة الشر الاجتماعي . وبطل «جمبرينوس» ، عازف الكمان في حانة مرفأ ، يرفض ان يعزف للزوار السلام القيصري .

ويتردد في سطور القصة عن احداث ثورة ١٩٠٥ نفس الحماس السابق : «حلت ايام مشرقة ، بهية ، مهللة ، فأضاءت بنورها حتى اقبية جمبرينوس . وكان يفد الى هنا الطلبة والعمال ، والفتيات الجميلات ايضا . وكان

الناس يقفون على هذه البراميل التى شهدت الكثير ويخطبون بأعين متقدة . . . وكانت المواكب تسير فى الشوارع بلا انقطاع ، رافعة الرايات الحمراء ومنشدة . ولمعت على صدور النساء ورؤوسهن الاشرطة والزهور الحمراء . وعندما كان يلتقى اناس لا يعرف بعضهم بعضا ، يبتسمون فجأة ابتسامة مشرقة ، ويشدون على ايدى بعضهم البعض . . .» ان هذه السطور لا يمكن ان يكتبها الا شخص يؤمن بالشعب ، ويحلم بسعادته .

كان كوبرين يكتب القصة انطلاقا من حدث . وعادة ما كان يصف احداثاً وقعت له او كان شاهدها . وقصة «زمرد» ذات دلالة فى هذا الصدد . فقد ازمع كوبرين كتابة قصة عن حادثة حقيقية تحدثوا عنها كثيرا فى موسكو فى مطلع التسعينات اذ دس احد اصحاب مزارع الخيول السم لجواد سباق شهير كان ملكا لمنافسه . واختار الكاتب شكلا غير عادى للقصة : فصوَّر الاحداث من منظور احاسيس الجواد ، وبصورة مقنعة للغاية متقمصاً شخصية الحصان . وروى احد اصدقاء كوبرين ، الناقد

باتوشكوف ، كيف كان كوبرين «يدرس مادة الواقع» . فقد عاد ذات مرة بعد سهرة الى داره الريفية قرب مدينة نوفجورود . وفجأة رأى حصانا وسط حقل شوفان ، فأمسك به وامتطاه و. . . ادخله المنزل فوق الدرج . ورغم احتجاج زوجته فقد ابقاه الى جانبه طوال الليل ، وقال موضحاً : «اريد ان اعرف متى وكيف ينام الحصان» .

واهدى الكاتب القصة الى ذكرى العدّاء خولستومير ، الذى صوره تولستوى فى روايته بهذا الاسم .

اما رواية «سوار العقيق» فلكتابتها قصة غير عادية . لقد بدأ كوبرين كتابتها بأن سجل العبارة المكتوبة فى صدر القصة :

L. van Beethoven. 2. Son. (op. 2, N 2).

Largo Appassionato.

فهذه السوناتا لبتهوفن ، والتى تعتبر من اقوى ما ابدعته العبقرية البشرية فى الموسيقى توتراً ومعاناة وعاطفية ، قد دفعت كوبرين الى الابداع الأدبى . واتحدت انغام السوناتا فى خياله بقصة حب مشرق كان هو شاهداً عليه .

وفى ١٥ اكتوبر ١٩١٠ كتب كوبرين الى باتوشكوف عن فكرة الرواية : «انها — أ تذكر ؟ — القصة الحزينة لعامل التليغراف البسيط ب . ب . جولتيكوف الذى وقع فى غرام زوجة لوبيموف (محافظ فلنو الآن) بصورة مؤثرة وبتفان وبلا أمل» . واستقى كوبرين كثيرا من التفاصيل — حتى الصغيرة منها — من الحياة ونقلها الى الرواية . ولكن انتحار البطل فى النهاية من تأليفه . اما فى الواقع فقد اختفى الموظف العاشق من حياة محبوبته الى الأبد بعد حديث جاد اجراه معه زوج تلك السيدة . ولكن كوبرين اراد ان يبرز قوة هذا الحب العظيم الذى «لا يتكرر الا مرة واحدة كل ألف عام» فأنهى الرواية بهذه الخاتمة المأساوية .

وكتب كوبرين الى نفس الناقد باتوشكوف يقول : «منذ قريب كنت اروى القصة لإحدى الممثلات الجيدات فبكيت . اقول لك شيئا واحدا : اننى لم أكتب من قبل شيئا اكثر طهارة» . فيا لها من قوة تقمص هائلة ، تلك التى جعلت الكاتب يعانى مع ابطاله !

ان كوبرين ينظر الى الحب باعتباره معجزة ، وهبة رائعة . واذا كان الموظف البسيط قد مات ، فان موته قد بعث الى الحياة شخصا آخر ، تلك المرأة التى لم تكن تؤمن بالحب . ان الحب يهزم الموت ويسمو فوقه ، ونثر الحياة يتراجع امام الشعر السامى . وعبر قرن يتجاوب الموسيقار والأديب فى مباركتهما العظيمة للحياة : «للارض ، للمياه ، للأشجار ، للأزهار ، للسماء ، للروائح ، للبشر ، للوحوش ، للطيبة الخالدة والجمال الخالد ، الكامنين فى المرأة» .

استقبل كوبرين بحرارة ثورة فبراير ١٩١٧ وسقوط القيصرية ، الا ان موقفه من ثورة اكتوبر الاشتراكية كان متناقضا . فقد كان يعتبر البلشفية «تعاليم نزيهة ، نقية ، وعظيمة وحتمية بالنسبة للبشرية» ، ولكنه لم يكن يثق بامكانية انتصار المثل الشيوعية ، وكان يخشى ضراوة اشكال النضال الثورى . وانتابه الفزع والاضطراب ، واختلطت عليه الامور فرحل عن البلاد عام ١٩١٩ .

ولما كانت جذور ابداع كوبرين تضرب عميقا فى تربة الحياة الشعبية فقد اصبح بعده

عن الوطن مأساة حقيقية ، وذوت موهبته . لقد ظل يكتب عن روسيا ما قبل الثورة ، بيد انه راح يصورها بألوان وردية عاطفية . واعترف فى احدى مقابلاته الصحفية باحساس عميق بالوحشة : «ثمة من يؤكد ، إما عن حمق وإما من يأس ، انه من الممكن الحياة بدون الوطن . ولكن هؤلاء ، ولتعذرونى ، اشخاص متظاهرون امام انفسهم . فكلما كان الشخص اكثر موهبة ، ازدادت صعوبة الحياة بالنسبة له بدون روسيا» . وكان يقول انه يرى روسيا فى الحلم ، ويفكر فيها على الدوام .

واخيرا ، وفى مايو ١٩٣٧ عاد كوبرين الى الاتحاد السوفييتى .

عاد وهو فى شدة المرض ، وفى ٢٥ اغسطس ١٩٣٨ وافته المنية . ولكن قبل وفاته بقليل عاش لقاء مشهوداً ، فكأنما محا هذا اللقاء كل اخطائه الفاجعة وتشرده بعيدا عن الوطن . ويتحدث الكاتب تيليشوف عن لقاء كوبرين هذا مع جنود الجيش السوفييتى فى احد المصحات قرب موسكو فيقول :

«وضعوا له مقعداً فى الحلبة ، واجلسوه فيه باحترام ، بينما جلس وهو ينظر الى ما يجرى حوله فى صمت تقريبا . وكان العسكريون يتوجهون اليه احيانا ، قائلين انهم يعرفونه ويقرأون مؤلفاته ، وانهم سعداء بوجوده بينهم . فكان يشكرهم باقتضاب وهو مستغرق فى التفكير . وبدا للبعض انه لا يحس بهذا الجو الرفاقى المرح . بيد انه عندما غنت جوقة الجنود الاغانى الروسية الشعبية مثل «نزولاً مع الفولجا أمّنا» وعن ستيبان رازين والاسيرة الفارسية وغيرها من الاغانى ، تغير كوبرين تماما ، وكأنما عادت اليه الروح . وعندما غنوا الاغنية الجديدة «بلادى الحبيبة ما ارحبك» بدا على كوبرين التأثر الشديد . وعندما ودعه الجنود الراحلون ، لم يتمالك نفسه ، وتفجر فيه كل ما كان يعايشه هذا اليوم فى صمت ، وكما بدا للبعض بلا احساس ، فقال من خلال الدموع الحارة الصادقة :

— لقد سامحنى الوطن ، انا المذنب الكبير فى حقه . سامحنى الجنود وهم بنو الوطن . اخيراً وجدت السكينة .

ان الكتب ، كالبشر ، لها اقدارها الخاصة . ولكتب كوبرين قدرها الذى تحسد عليه . . فقد قدر لها البقاء طويلا ، ويقرأها الكبار والصغار .

وهذه المجموعة ، كأى مجموعة فى مجلد واحد ، لا تعطى فكرة عامة عن الكاتب . وهى لا تضم سوى عدد قليل من اعمال الأديب الشهيرة . ولكننا نأمل ان يتاح للقراء الاطلاع على مزيد من مؤلفات هذا الكاتب الكبير .

الغول

(مولك)

١

زمجرت صفارة المصنع طويلا معلنة بدء يوم العمل . وبدا هذا الصوت الابح الغليظ المستمر كأنما يخرج من تحت الارض وينتشر فوق سطحها على ارتفاع منخفض . واضفى عليه الفجر المدلهم ليوم من ايام اغسطس الممطرة لونا صارما من الكآبة والتجهم .

دوت الصفارة عندما كان المهندس ببروف يتناول الشاى . ففى الايام الاخيرة بشكل خاص كان اندريه ايليتش يعانى من الارق بشدة . وعندما كان يأوى الى الفراش فى المساء برأس مثقل وهو ينتفض كل لحظة كأنما بسبب هزات مفاجئة ، كان مع ذلك يغيب بسرعة فى نوم قلق متوتر ، ولكنه يستيقظ قبل الفجر بوقت طويل ، محطما تماما وخائرا وعصبيا .

وكان السبب فى ذلك بلا شك الارهاق الروحى والبدنى ، وكذلك عادته القديمة فى حقن نفسه بالمورفين تحت الجلد ، تلك العادة التى بدأ ببروف فى الايام الاخيرة يخوض ضدها كفاحا عنيدا .

كان الآن جالسا بجوار النافذة يرشف الشاى بجرعات صغيرة وقد بدا له كالعشب وبلا طعم . وانزلقت على زجاج النافذة قطرات متعرجة . اما صفحة البرك فى الفناء فكانت تتغضن وترتعش لوقع المطر . ولاحت من النافذة بحيرة صغيرة مربعة تحيطها كالاطار اعواد الصفصاف الكثة بسيقانها القصيرة العارية وخضرتها الرمادية . وعندما تهب الريح كانت امواج صغيرة قصيرة ترتفع وتركض كأنها على عجلة من امرها ، اما اوراق الصفصاف فكانت ترتعش مبدية شيبها الفضى . والتصق العشب الابلق بالارض تحت المطر فى عجز . وبدت منازل اقرب قرية ، واشجار الغابة الممتدة كشريط قاتم مسنن فى الافق ، وحقل اواخر الصيف ببقعه الصفراء والسوداء . . . بدا كل ذلك رماديا مبهما كأنما يلفه الضباب .

كانت الساعة السابعة عندما خرج ببروف من المنزل وقد ارتدى معطف المطر المشمع . كان مثل جميع الاشخاص العصبيين ، فى حالة سيئة وقت الصباح ، فقد كان يشعر بجسده ضعيفا وبألم مكتوم فى عينيه ، كما لو كان شخص ما يضغط عليهما بقوة من الخارج ، وبمذاق كريه فى فمه . لكن اكثر ما كان يؤلمه هو ذلك التمزق الروحى الذى بدأ يلاحظه منذ وقت قريب . ولا شك ان رفاق ببروف ، المهندسين الذين كانوا ينظرون الى الحياة نظرة اكثر ما تكون بساطة ومرحا وعملية ، كانوا سيسخرون مما يسبب له كل هذه الآلام الخفية ، وما كانوا ليفهمونه على الاقل . كان يزداد كل يوم تقززا ، بل ورعبا من العمل فى المصنع .

وحسب تركيبه الذهنى وعاداته واذواقه كان افضل ما يناسبه ان يكرس نفسه للاعمال المكتبية ، للنشاط الاكاديمى او للزراعة . فلم تكن الهندسة ترضيه ، ولولا الحاح امه الشديد لترك المعهد وهو فى الصف الثالث .

كانت نفسه الرقيقة ، التى تكاد تكون انثوية ،

تتعذب بقسوة من الاحتكاك الخشن مع الواقع بمتطلباته العادية والصارمة مع ذلك . وكان يقارن نفسه فى هذا الوضع برجل سلخوا جلده حيا . وكانت الامور التافهة التى لا يلحظها الآخرون تسبب له احيانا احزانا عميقة طويلة .

وكان مظهر بيروف الخارجي متواضعا غير متميز . . . كان نحيفا ، غير طويل ، ولكن تحس فيه قوة عصبية دفاقة . وكان اول ما يلفت النظر فى وجهه جبينه الكبير الابيض الرائع . وكانت حدقتاه الواسعتان ، غير المتساويتي الحجم كبيرتين ، بحيث بدت عيناه سوداوين رغم رماديتهما . والتقى حاجباه الكثيفان غير المنتظمين عند الانف فأضفيا على عينيه تعبيرا صارما ثاقبا يكاد يكون متقشفا . وكانت شفتا اندريه ايليتش عصبيتين دقيقتين ولكنهما غير حاقدتين وغير متطابقتين قليلا ، فقد كانت زاوية الفم اليمنى اعلى بقليل من الزاوية اليسرى . وكان شاربه ولحيته قصيرين ، قليلى الشعر ، ضاربين الى البياض ، مثل شوارب ولحى الصبيان . وكان سحر وجهه غير الجميل فى الواقع يتجلى فى

ابتسامته . فعندما كان بيروف يضحك تصبح عيناه رقيقتين مرحتين ويصبح وجهه كله جذابا . .

قطع بيروف نصف كيلومتر ثم صعد على ربوة . وتحت قدميه مباشرة انبسط منظر عريض للمصنع الممتد على مساحة خمسين كيلومترا مربعا . كانت تلك مدينة حقيقية من الطوب الاحمر ، بغابة من المداخن المشرئبة عاليا فى الهواء والملوثة بالهباب . مدينة مشبعة كلها برائحة الكبريت والحديد المحترق ، يصم آذانها هدير ابدى لا ينقطع . وكانت اربعة افران صهر تشمخ فوق المصنع بمداخنها الرهيبة . وانتصبت بجوارها ثمانية ابراج «كاوبر» مخصصة لدورة الهواء الساخن . . ثمانية ابراج حديدية ضخمة تنتهى بقباب مستديرة . وتناثرت حول افران الصهر ابنية اخرى : ورش التصليح والصب وقسم الغسيل ، وعنبر القاطرات ، ودلفنة القضبان وافران مارتن وبودلينج وما الى ذلك .

كان المصنع يتدرج الى اسفل على ثلاث فسحات طبيعية ضخمة . وكانت القاطرات البخارية الصغيرة تجرى فى جميع الاتجاهات . وتلوح

3-608

عند اسفل درجة وهى تندفع الى اعلى مطلقة صفيرا حادا ، ثم تختفى عدة ثوان فى الانفاق ، وتندفع خارجة منها ملفعة بالبخار الابيض ، وتقرقع مارة فوق الجسور ، واخيرا تمرق فوق القناطر الحجرية وكأنها تحلق فى الهواء ، لكى تلقى بالحديد الخام والكوك فى انبوب الفرن مباشرة .

وبعد تلك الشرفة الطبيعية كان النظر يتشتت مع الفوضى التى تشمل المكان المخصص لبناء الفرنين الخامس والسادس . كان يبدو وكأن انفجارا رهيبا تحت الارض قد القى الى سطحها بهذه الاكوام العديدة من المخلفات والطوب المختلفة الاحجام والالوان ، والاهرامات الرملية ، وجبال البلاط وقضبان الحديد والاخشاب . وكان كل ذلك مكدسا كأنما بلا غاية ، بمحض الصدفة . وكانت مئات العربات وآلاف البشر تتحرك هنا كنمل بجوار عش نمل مهدم . وانتشر غبار الجير الابيض الناعم والكوك فى الجو كالضباب .

وبعد ذلك ، وعند حافة الافق تماما ، تجمهر عمال التفريغ بجوار قطار شحن طويل ،

وتدفقت قوالب الطوب الى الارض بلا انقطاع فوق الواح خشبية مدلاة من العربات ، وتساقط الحديد برنين وصخب وتطايرت الواح رفيعة فى الهواء وهى تتقوس وتتلوى . كان بعض عربات الجر يتجه نحو القطار فارغا ، والبعض الآخر يعود من هناك فى قافلة محملا الى الحافة . وكانت آلاف الاصوات تختلط هنا فى ازيز طويل متراقص : اصوات ازاميل النقاشين الصافية القوية ، وضربات عمال البرشمة الرنانة وهم يبرشمون المراجل ، وهدير المطارق البخارية الثقيل ، وصفير المداخن البخارية وزفيرها الهائل ، والانفجارات المكتومة المتباعدة تحت الارض والتى كانت تجعلها ترتعش .

كانت تلك لوحة رهيبة اخاذة . وكان العمل البشرى يتدفق هنا مثل ميكانيزم ضخم معقد ودقيق . لقد جاء الى هنا آلاف الناس ، من المهندسين والبنائين والميكانيكيين والنجارين والسياكين والحفارين والحدادين ، من شتى انحاء الارض ، انصياعا للقانون الحديدى ، قانون الصراع فى سبيل العيش ، جاؤا لكى ليبذلوا

قواهم وصحتهم وعقولهم وطاقاتهم من اجل خطوة واحدة فقط الى الامام من خطوات التقدم الصناعى .

كان بيروف معتلا اليوم بشكل خاص . وكان احيانا وان كان ذلك نادرا ما يحدث — ثلاث او اربع مرات فى السنة — يصاب بحالة نفسية غريبة من اللامبالاة والعصبية فى نفس الوقت . وكانت تلك الحالة تنتابه عادة فى الفترات الصباحية من ايام الخريف المكفهرة ، او فى الامسيات الشتائية ، عند ذوبان الثلج . فكان كل شيء يصبح فى ناظريه مملا لا لون له ، وتبدو له وجوه الناس عكرة قبيحة او مريضة . وتصل اليه اصواتهم كأنما قادمة من مكان بعيد . لا تثير فيه شيئا سوى الملل . وكانت وجوه العمال الشاحبة الملوثة بالفحم والتى جففتها النار تثير اعصابه اليوم بشكل خاص ، عندما كان يتفقد ورشة دلفنة القضبان . واذ راح يراقب جهدهم الشاق ، وصهد الكتل الحديدية المتوهجة يلفح اجسادهم بينما تهب رياح خريفية قارسة من الابواب العريضة ، داخله احساس بانه

هو ايضا يعانى معهم جزءا من آلامهم الجسدية . وحينذاك شعر بالخجل من جسمه البدين وملابسه الداخلية الرقيقة والثلاثة آلاف روبل التى يتقاضاها فى العام . . .

٢

وقف بجوار فرن اللحام يتابع العمل . وكان فم الفرن الضخم الملتهب ينفتح واسعا كل دقيقة لكى يبتلع «مطاريف» الصلب المحماة الى درجة البياض والتى يزن الواحد منها ٣٢٠ كيلوجراماً ، والخارجة لتوها من الافران المتأججة . وبعد ربع ساعة تخرج ، وقد امتدت عبر عشرات الماكينات فى قرقعة رهيبة ، الى طرف الورشة الآخر قضبانا طويلة ناعمة لامعة .

لمس شخص ما كتف بيروف من الخلف ، فاستدار فى اسى ورأى سفيجيفسكى ، احد زملائه .

لم يكن سفيجيفسكى هذا ، بقامته المحنية قليلا بصفة دائمة ، فلا تدرى اهو ينحنى

تلصصا ام احتراما ، وبضحكاته القصيرة الدائمة وفركه لراحتيه الباردتين الرطبتين ، يعجب ببروف ابدا . كان فيه شيء من التزلف والمهانة والحقد . وكان دائما يعرف قبل اى شخص آخر الاقاويل السارية فى المصنع فيدلى بها باستمتاع خاص لمن تسبب له اكبر ضيق . واثناء الحديث كان يتحرك بعصبية ويلمس جنبى محدثه وكتفيه ويديه وازراره كل لحظة .

— لماذا لم نرك منذ فترة طويلة يا عزيزى ؟ — قال سفيجيفسكى ، وضحك وهو يفرك يد اندريه ايليتش بين راحتيه . — دائما جالس الى الكتب تقرأ ؟ دائما تقرأ ؟

فرد ببروف بلا رغبة وهو يسحب يده :

— مرحبا . كنت متوعكا فى هذه المدة .

فمضى سفيجيفسكى يقول بلهجة ذات مغزى :

— اشتاق اليك الجميع فى منزل زينتكو . . لماذا لا تزورهم ؟ اما اول امس فقد كان المدير هناك وسأل عنك . تطرق الحديث الى اعمال الصهر العالى فأثنى عليك كثيرا .

فانحنى ببروف بسخرية وقال :

— ممنون جدا .

— لا ، انا لا امزح . . . قال ان الادارة تقدرك جدا كمهندس ذى معارف واسعة ، وانك لو اردت لصعدت عاليا . وفى رأيه انه ما كان ينبغى ان نكلف الفرنسيين باعداد مشروع المصنع ما دام لدينا اناس ذوو خبرة مثل اندريه ايليتش ، ولكنه . . .

وقال ببروف لنفسه : «سيقول الآن شيئا مزعجا» .

— ولكنه قال انك لا تفعل خيرا بابتعادك عن المجتمع وتولد انطباعا بانك شخص انطوائى . والانسان لا يستطيع ابدا ان يعرف من انت بالفعل ولا كيف يعاملك . آه . . — وضرب على جبينه فجأة — اخذت اثرثر ونسيت ان اخبرك باهم شيء . . . لقد طلب المدير من الجميع ان يحضروا غدا الى المحطة فى الساعة الثانية عشرة .

— مرة اخرى لاستقبال شخص ما ؟

— بالضبط . خمن من هو ؟

واكتسى وجه سفيجيفسكى بتعبير ماكر وظافر.

وفرك يديه ، ويبدو انه كان يشعر بسرور كبير وهو يستعد للافضاء بنبأ شيق .

فقال ببروف :

— فى الحقيقة لا اعرف . . وعموما فلست ماهرا فى التخمين .

— لا ، لا يا عزيزى ، خمن من فضلك . . ولو هكذا ، اذكر اى اسم . . .

وصمت ببروف واخذ يتابع حركة الرافعة البخارية باهتمام مصطنع . ولاحظ سفيجيفسكى ذلك فازداد قلقا .

— لن تخمن ابدا . . حسنا ، لن اعذبك اكثر . . انهم يتوقعون حضور كفاشنين نفسه .

ولفظ الاسم بتملق سافر حتى ان ببروف احس بالتقزز .

فسأل باستخفاف :

— وما الذى تجده ذا اهمية خاصة هنا ؟

— ماذا تقول ؟ كيف ؟ انه عضو مجلس الادارة ، ويستطيع ان يفعل ما يشاء ، فهم يصغون اليه كما يصغون لنبى . وها هى الادارة قد خولته الآن الاسراع بالعمل ، او بعبارة

اخرى هو الذى خول نفسه بذلك . سترى اية رعود وصواعق ستتفجر هنا عندما يحضر . فى العام الماضى تفقد المبنى — يبدو ان ذلك كان قبل مجيئك ؟ . . . وبعد ذلك طار المدير واربعة مهندسين من مناصبهم الى الشيطان . هل سينتهى النفخ قريبا لديك ؟*

— نعم ، جاهز تقريبا .

— هذا حسن . اذن فسنحتفل فى حضوره بالافتتاح وببداية البناء . هل قابلت كفاشنين نفسه من قبل ؟

— ابدا . طبعا سمعت باسمه . . .

— اما انا فقد تشرفت بلقائه . دعنى اقول لك انه نمط لن تجد مثيلا له . بطرسبرج كلها تعرفه . انه اولا سمين لدرجة ان يديه لا تنعقدان على بطنه . الا تصدق ؟ اقسم لك . لديه عربة خاصة ينفتح جانبها الايمن كله بمفصلات . وهو مع ذلك ضخم القامة ،

* النفخ هو تسخين الفرن العالى قبل بدء العمل حتى درجة انصهار الخام ، وهى حوالى ١٦٠٠ درجة مئوية . وقد يستمر النفخ احيانا عدة اشهر — ملاحظة المؤلف .

احمر الشعر ، وصوته كأنما يخرج من بوق هائل . .
ولكن يا له من عقل جبار ، يا الهى ! . . .
عضو مجلس ادارة فى جميع الشركات المساهمة . .
يتقاضى مائتى الف مقابل حضوره سبعة اجتماعات
فقط فى السنة ! ولكنك لن تجد من هو
افضل منه لانقاذ الموقف فى الجمعيات العمومية .
فهو يعرض أكثر التقارير السنوية مدعاة للشك
بطريقة تجعل المساهمين يرون الاسود ابيض ولا
يعرفون بعد ذلك كيف يعبرون للادارة عن شكرهم .
واهم ما فى الامر انه لا يدرى شيئا عن المسألة
التى يتحدث عنها ولكنه يصعق بثقته الشديدة
فى النفس . ستسمعه غدا وستظن انه لم يفعل
فى حياته شيئا غير العمل على الافران العالية ،
بينما لا يفقه فيها الا مقدار ما افقه انا فى
اللغة السنسكريتية .

واذا ببروف يدندن باستخفاف مقصود ونشاز
مستديرا :

— ترررام . . ترام . .

— نعم . . اتدرى كيف يستقبل الزوار
فى بطرسبرج ؟ انه يجلس عاريا فى البانيو

مغمورا حتى رقبته ، فلا يظهر فوق الماء الا رأسه
الاحمر ، ويصغى الى الزوار ، بينما يقف امامه
احد المستشارين مثلا ، باحترام ، وقد احنى
قامته وهو يفضى اليه بما عنده . . ويا له من
اكول نهم . . وفعلا يجيد انتقاء الطعام ، ففى
افضل المطاعم تشتهر كوستليتة «ألا-كفاشنين» .
اما بخصوص النساء فحدث ولا حرج . لقد
وقع له حادث مضحك جدا منذ ثلاث سنوات . . .

وعندما رأى سفيجيفسكى ببروف يهم بالانصراف
امسك بزر سترته وهمس بضراعة :

— انتظر . . انه حادث مضحك جدا . .
مهلا . . سأرويه فى كلمتين . اتدرى كيف كانت
الحكاية . . منذ ثلاث سنوات جاء الى بطرسبرج
فى الخريف شاب فقير . . موظف على ما
يبدو . . اننى اعرف اسمه ، ولكنى لا اتذكره
الآن . كان هذا الشاب يسعى من اجل ميراث
متنازع عليه ، وعندما يعود من المحاكم كل
صباح يجلس فى حديقة «ليتنى» ويبقى ربع
ساعة جالسا على الاريكة . . احسنا ، حسنا . .
جلس ثلاثة ايام ، واربعة ، وخمسة ، واذ

به يلاحظ ان رجلا احمر الشعر ، سمينا للغاية يتردد معه كل يوم على الحديقة . . فتعارفا . وعرف الرجل الاحمر ، الذى كان كفاشنين ، جميع احوال الشاب فاعرب له عن عطفه ، لكنه لم يذكر له اسمه . حسنا ، حسنا . . واخيرا قال الرجل الاحمر للشاب ذات مرة : «هل توافق على الزواج من امرأة ، بشرط ان تفترق عنها بعد الزفاف مباشرة ولا تقابلها بعد ذلك ابدا ؟» . وكان الشاب فى تلك اللحظة يكاد يموت جوعا . فقال له : «موافق ، ولكن هذا يتوقف على مقدار المكافأة ، والدفع مقدما» . أترى ان هذا الشاب ايضا يعرف من اين تؤكل الكتف . حسنا ، حسنا . . اتفقا . وبعد اسبوع البس الرجل الاحمر الشاب حلة «الفراك» ورحل به مع الفجر الى مكان ما خارج المدينة ، الى احدى الكنائس . لم يكن هناك احد ، والعروس تنتظر ، ملفعة «بالفوال» وان كانت تبدو جميلة وشابة جدا . وبدأ الزفاف . ولكن الشاب لاحظ ان عروسه تقف حزينة ، فسألها همسا : «يبدو انك جئت الى هناك مكرهة ؟» فقالت :

«وانت ايضا فيما يبدو ؟» وهكذا تفاهما ، فاتضح ان ام الفتاة هى التى ترغمها على الزواج . ولكن يبدو ان ضميرها لم يسمح لها مع ذلك ببيع ابنتها لكفاشنين بصورة سافرة . . . حسنا ، حسنا . . هكذا ظلا واقفين . . ثم قال لها الشاب : «هيا بنا ندبر مقلبا . . انا وانت ما زلنا شبابا ، وربما حمل لنا المستقبل اشياء سارة كثيرة . . هيا بنا نجعل كفاشنين يخرج من المولد بلا حمص» . وكانت الفتاة حازمة وسريعة البديهة . فقالت : «حسنا ، هيا» . وانتهت مراسيم الزفاف وخرجوا جميعا من الكنيسة ، وكفاشنين فى قمة الفرحة . وكان الشاب قد حصل منه على المبلغ مقدما ، بل وعلى مبلغ كبير ، لان كفاشنين فى مثل هذه الاحوال لا يتردد فى دفع اى مبلغ . واقترب من العروسين وهنأهما وهيئته تطفح بالسخرية . اما هما فاستمعا اليه وشكراه وهما يدعوانه بالعرّاب ، وفجأة قفزا الى العربة . «ما هذا ؟ الى اين ؟» — «كيف الى اين ؟ الى المحطة ، فى رحلة شهر العسل . هيا يا سائق ! . .» . وهكذا بقى فاسيلى تيرنتيفتش

واقفا فى مكانه وقد فغر فاه . . . اسمع هذه ايضا . . لقد حدث . . ماذا ؟ أأنت ذاهب يا اندريه ايليتش ؟ — وتوقف سفيجيفسكى عن ثرثرته وقد رأى ببروف يرتدى قبعته ويزرر ازرار المعطف بحزم .

وقال ببروف بجفاء :

— عفوا ، انني مستعجل . . اما بخصوص مزحتك فقد سمعتها او قرأتها من قبل فى مكان ما . . . احتراماتى .

وأولى ظهره لسفيجيفسكى الذى حيرته حدته ، وغادر الورشة على عجل .

٣

عاد ببروف من المصنع وتناول غداءه على عجل وخرج من المنزل . كان الحوذى متروفان الذى تلقى من قبل امرا بتسريج الكميت «فرفاتر» ، من خيول الدون ، يشد بعناء رباط السرج الانجليزى . ونفخ فرفاتر بطنه ولوى عنقه بسرعة عدة مرات محاولا ان يقتنص باسنانه كم قميص

متروفان . وعند ذاك كان متروفان يصيح فيه بصوت غاضب غير طبيعى غليظ : «هس ! كفاية شقاوة ! ايها الشيطان !» ، ثم يضيف وهو يئن من الجهد : «يا لك من حيوان !» .

اما فرفاتر — المهر المتوسط الطول وذو الصدر الوافر والجسد الطويل والكفل العضلى المنخفض قليلا — فكان يقف بخفة ورشاقة على قوائمه القوية الغزيرة الشعر الواثقة الحوافر الدقيقة الارساغ . ولو نظر اليه خبير فى الجياد الاصيلة لما اعجبه وجهه الاحدب الانف وعنقه الطويل ذو الحرقدة الحادة البارزة . ولكن ببروف كان يعتبر ان هذه الخصائص المميزة لخيول الدون هى مصدر جمال فرفاتر كما هى السيقان المعوجة لدى فصيلة كلاب ديكسهند والآذان الطويلة لدى كلاب «السيتر» . ولم يكن هناك فى المصنع كله جواد يستطيع ان يسبق فرفاتر .

ورغم ان متروفان كان ككل حوذى روسى جيد ، يرى من الضرورى ان يخاطب الخيل بقسوة ولا يسمح لها او لنفسه باى مظهر من مظاهر الرقة ، ولذلك كان يدعو فرفاتر «بالمجرم» و«الرمة»

و«السفاح» بل وحتى «الوغد» . . . رغم ذلك كان فى اعماق قلبه يحبه حبا جارفا . وكان هذا الحب يتجلى فى ان مهر الدون هذا كان يلقى منه عناية افضل وعلفا اكبر مما يلقى حصانا ببروف الميريان الآخران : لاستوتشكا وتشيرنوموريتس .

وسأل ببروف :

— هل سقيته يا متروفان ؟

ولم يجب متروفان على الفور . كانت لديه خصلة اخرى من خصال الحوذى الجيد وهى البطء والوقار فى الحديث .

— سقيته يا اندريه ايليتش ، كيف لا اسقيه . — ثم صاح فى الحصان بغضب : هس . . كفاك تلفتا ايها الشيطان ! سأريك كيف تلوى سحنتك ! — آه يا سيدى ، كم يود اليوم ان يُركب . . لا يطيق الانتظار .

وما ان اقترب ببروف من فرفاتر وامسك اللجام بيسراه ولف شعر عرفه على اصابعه حتى بدأت القصة التى تكاد تتكرر كل يوم . فقد اخذ فرفاتر ، وهو يتطلع الى ببروف شذرا بعينه الكبيرة الغاضبة ، يرقص فى مكانه لاويا عنقه

ومبعثرا كتل الطين بساقيه الخلفيتين . واخذ ببروف يقفز بجواره على ساق واحدة محاولا وضع قدمه فى الركاب .

— اترك اللجام يا متروفان ، اتركه !

— صاح ببروف وقد اقتنص الركاب اخيرا ، وفى نفس اللحظة طوح بساقه عبر الكفل فاعتلى السرج .

وعندما احس فرفاتر بساقى الفارس هدأ على الفور وغير مشيته عدة مرات وهو يزفر بانفه ويهز رأسه ، ثم انطلق بعد البوابة فى خبب واسع مرن . . .

وسرعان ما هدأت اعصاب ببروف الواهنة وانتعشت من الركض السريع والهواء البارد الذى كان يصفر فى اذنيه ، ورائحة الحقل الخريفى الرطب قليلا . وفوق ذلك فقد كان ببروف يشعر بارتفاع لذيذ مثير فى معنوياته كلما توجه لزيارة آل زيننكو .

كانت اسرة زيننكو تتألف من الاب والام وخمس بنات . وكان الاب يعمل رئيس مخزن فى المصنع . وكان هذا العملاق الذى يبدو فى

الظاهر كسولا ودودا ، سيدا وصوليا خبيثا جدا فى واقع الامر . كان ينتمى الى ذلك الطراز من الناس الذين ينافقون الرؤساء بصورة فجة ولكنها محببة تحت ستار ذكر «عين الحقيقة» لاى شخص فى وجهه ، ويشون بزملائهم فى العمل صراحة ، ويعاملون مرؤوسيهم بطغيان فظيع لا حدود له . كان يجادل فى اتفه الامور وهو يصرخ بصوت ابح دون ان يصغى للاعتراضات . ويهوى الطعـام ويميل الـى الغنـاء الاوكرانى الجماعى ، ويغنيه دائما بنشاز . ودون ان يشعر اصبح تحت نعل زوجته ، تلك المرأة القصيرة القامة والمعتلة الصحة والمتكلفة ، ذات العينين الرماديتين الصغيرتين جدا ، الملاصقتين تماما للانف الى حد مضحك .

وكانت البنات يدعين ماكا وبيتا وشورتشكا ونينا وكاسيا .

وكان لكل منهن دورها الخاص فى الاسرة . فقد كانت لماكا ، الفتاة التى يشبه جانب وجهها سحنة السمكة ، شهرة الشخصية الملائكية . «آه ماكا . انها البساطة بعينها» . كان والداها

يقولان عنها عندما كانت تتراجع الى المؤخرة اثناء النزهات والحفلات لصالح شقيقاتها الاصغر (كانت ماكا قد تجاوزت الثلاثين) .

اما بيتا فكانت تعد ذكية ، وكانت ترتدى عوينات ، وكما قيل فقد ارادت فى وقت ما ان تلتحق بدورة دراسية . وكانت تحتفظ برأسها فى وضع مائل الى اسفل ، مثل حصان العربة الجانبى العجوز ، وتغوص وتطفو مع كل خطوة . وكانت تلح على الضيوف الجدد بالجدل فى ان النساء افضل واشرف من الرجال ، او تسأل الضيف بدلال ساذج : «انك فطن جدا . . حسنا حدد لى شخصيتى» . وعندما كان الحديث ينتقل الى احد المواضيع العائلية الكلاسيكية مثل : «من اعلى مرتبة : ليرمنتوف ام بوشكين ؟» او «هل تساعد الطبيعة على تهذيب الأخلاق ؟» كانوا يدفعون بيتا الى المقدمة مثل افيال الحرب .

اما الابنة الثالثة شورتشكا فقد تخصصت فى لعب الورق مع جميع المهندسين العزاب بالدور . وما ان تعلم بان ملاعبها القديم قد عزم على الزواج حتى تختار ملاعبا جديدا وهى

تكتم فى نفسها الاسى والحزن . وبالطبع كان يصاحب اللعب مزاح رقيق ومكر قليل ساحر مع مخاطبة الملاعب بـ«الكريه» وضربه على يديه باوراق اللعب .

وكانت نينا تعتبر فى الاسرة محبوبة الكل ، وطفلا مدللا ساحرا . كانت شاذة وسط شقيقاتها ذوات الاجساد الضخمة والتقاطيع الخشنة الفظة . وربما كان بوسع مدام زينتكو وحدها ان تفسر من اين لنينا بهذا القوام الرقيق المرهف وهاتين اليدين شبه الارستقراطيتين والوجه الجميل الاسمر المليء بالشامات ، وهاتين الاذنين الورديتين وهذا الشعر الدقيق الغزير المتموج . كان والداها يعلقان عليها آمالا كبيرة ، ولذلك كان يسمح لها بكل شيء : ان تأكل الحلوى حتى الشبع وان تلثغ بدلال ، بل وان تتأنق اكثر من شقيقاتها .

اما الشقيقة الصغرى كاسيا فقد بلغت منذ وقت قريب الرابعة عشرة ، ولكن هذا الطفل الاعجوبة فاق امه طولا وبز شقيقاته الاكبر فى ضخامة تضاريس الجسد . وكان جسدها قد شد اليه انظار شباب المصنع المحروم من المجتمع

النسائى لبعده عن المدينة ، وكانت كاسيا تتقبل هذه النظرات بلا حياء ساذج لفتاة نضجت مبكرا .

وكان توزيع المفاتن العائلية هذا معروفا جيدا فى المصنع ، حتى ان احد الظرفاء قال ذات مرة انه اذا اردت الزواج من بنات زينتكو فلا بد ان تتزوجهن كلهن معا . وكان المهندسون وطلبة التدريب ينظرون الى بيت زينتكو نظرتهم الى فندق ، ويتزاحمون هناك من الصباح الى المساء ويأكلون كثيرا ويشربون اكثر ، ولكنهم كانوا يفلتون بمهارة مدهشة من شباك الزواج .

وكان بيروف غير محبوب فى هذه الاسرة ، فقد كان سلوكه مهينا لذوق مدام زينتكو البرجوازى ، والتى كانت تحاول وضع كل شيء فى اطار الحشمة الريفية المبتذلة المملة فى ايقاعها الوادع . فكانت نكاته اللاذعة ، عندما يكون مزاجه طيبا ، تقابل باعين واسعة مفتوحة ، وبالعكس عندما يصمت امسيات باكملها نتيجة الارهاق او الضيق ، كانوا يتهمونه سرا بالانطواء والتكبر والتهكم الصامت بل وحتى . . . — اوه ، كان

هذا افظع شىء ! — بانه «ينشر الروايات فى المجلات ويجمع لها النماذج» .

وكان ببروف يشعر بهذا العداء الدفين الذى كان يتجلى فى الاستهانة به حول المائدة وفى هز ام الاسرة لكتفيها بدهشة ، ومع ذلك ظل يزور آل زيننكو . هل كان يحب نينا ؟ لم يستطع هو نفسه ان يجيب على هذا السؤال . وعندما كان يتغيب عن منزلهم ثلاثة او اربعة ايام كانت ذكراها تجعل قلبه يخفق بحزن لذيذ قلق . وكان يتخيل قوامها الممشوق الرشيق وبسمة عينيها الساجيتين المحاطتين بالظلال ورائحة جسدها التى كانت تذكره لسبب ما برائحة براعم الحور الصمغية الوليدة .

ولكن ما ان يزور آل زيننكو ثلاث امسيات متتالية حتى يشعر بالارهاق من صحبتهم وعباراتهم ، نفس العبارات التى يرددونها فى الحالات المتشابهة ، وتعابير وجوههم القالبية المتصنعة . ولقد نشأت مرة واستقرت الى الابد علاقات غزل وضيع لعوب بين «الآنسات» الخمس و«الفرسان» «المتوددين» اليهن (حسب تعبير آل زيننكو) . وكان هؤلاء

واولئك يتظاهرون بانهم يؤلفون معسكرين متخاصمين . فكان احد الفرسان بين الحين والآخر يختطف مازحا شيئا ما من احدى الآنسات مقسما انه لن يرده ، وعندئذ تغضب الآنسات ، ويتهامسن فيما بينهن ، ويصفن المازح بـ«الكريه» ويقهقهن طوال الوقت قهقهة متخشبة عالية منفرة . وكان هذا يتكرر كل يوم ، ويحدث اليوم مثلما حدث بالامس تماما ، بنفس الكلمات ونفس الحركات . وكان ببروف يعود من عند آل زيننكو بصداع وباعصاب ارهقها دلعهم الريفى .

وهكذا كان الشوق الى نينا ، والى الشد بعصبية على راحتيها الدافئتين دائما ، يتعاقب فى نفس ببروف مع النفور من الملل والحركات المتكلفة لاسرتها . وقد مرت عليه لحظات كان مستعدا فيها تماما لان يطلب يدها . وما كان ليوقفه عن عزمه آنذاك علمه بانها سوف تجعل من حياته العائلية جحيما بدلالها السمج وخواء روحها ، وبان كلا منهما يفكر ويتحدث بلغة غير لغة الآخر . ولكنه لم يقدم وظل صامتا .

وعندما كان يقترب الآن من شيبتوفكا كان

يعلم سلفا ما الذى سوف يقال هناك وكيف سيقال فى هذه الحالة او تلك ، بل وتصور التعابير التى سترتسم على الوجوه . كان يعلم انهم عندما سيرونه من شرفتهم قادما على ظهر الحصان فسينشب فى البداية جدال عمن هو القادم بين الآنسات اللاتى يعشن دائما فى انتظار «الفرسان اللطيفين» . ثم عندما يقترب ستقفز تلك التى خمنت شخصه وتصفق بيديها وتطقطق بلسانها وتصيح بحماس : «هه ؟ هه ؟ انا خمنت ! انا خمنت !» . وبعد ذلك تهرع الى آنا افناسيفنا صارخة : «ماما ، ببروف قادم ، انا خمنت اول الجميع» . اما ماما فستلتفت وهى تجفف ملاعق الشاى بكسل الى نينا — وحتما الى نينا — وتقول وكأنها تفضى بخبر مضحك ومفاجئ : «ببروف قادم يا نينا» . وبعد ذلك سيبدون جميعا دهشتهم الشديدة فى صخب بالغ وهم يرون اندريه ايليتش داخلا المنزل .

٤

سار فرفاتر وهو ينفر بانفه بصوت مسموع

ويقضم اللجام . وظهر على البعد منزل شيبتوفكا ، وجدرانه البيضاء وسقفه الاحمر لا تكاد تبين وسط الخضرة الكثيفة لاشجار الليلك والاكاسيا . وعند سفح الجبل برزت بوضوح بركة صغيرة بين الشطآن الخضراء المحيطة بها .

وعلى سلم المدخل لاح قوام نسائى ، فعرف فيه ببروف من بعيد قوام نينا فى بلوزة صفراء فاقعة تبرز سمرة وجهها الجميلة ، فشد على الفور لجام فرفاتر واستقام فى جلسته وخلص اطراف اقدامه الغائرة فى الركاب .

وصاحت نينا من فوق السلم بصوت مرح نزق لطفل مدلل :

— جئت ثانية على ظهر كنزك الغالى ؟ انى لا اطيق رؤية هذا المسخ !

لقد اصبح من عادتها ان تغيظ ببروف بحصانه الذى كان متعلقا به جدا . وعموما فقد كانوا فى منزل آل زيننكو دائما يغيظون شخصا ما بشىء ما .

والقى ببروف باللجام الى سائس المصنع الذى جاء راكضا ، وربت على عنق الحصان

المستقيم المريد من العرق ، ودخل فى اثر نينا الى غرفة الاستقبال . وتظاهرت آنا افناسيفنا الجالسة بجوار السماور بالدهشة الشديدة لمقدم ببروف وصاحت بصوت منغم :

— آه ! اندريه ايليتش ! اخيرا شرفتنا ! . . .

ودست يدها فى شفتيه مباشرة وهو يصافحها وسألت بصوتها الاخن العالى :

— شاى ؟ لبن ؟ تفاح ؟ قل ماذا تريد .

— ميرسى يا آنا افناسيفنا .

— Merci – oui, ou merci – non? *

كانت مثل هذه العبارات الفرنسية شيئا ثابتا فى عائلة زيننكو . واعتذر ببروف عن تناول اى شىء .

فصرفته مدام زيننكو بسماحة :

— اذن اذهب الى الشرفة ، فالشباب هناك ينظمون العابا ما .

وعندما خرج الى الشرفة صاحت الآنسات

---

* شكرا نعم ام شكرا لا ؟ (بالفرنسية فى الاصل) — المترجم.

الاربع بصوت واحد اخن ومنغم تماما مثل صوت امهن :

— آه ! اندريه ايليتش ! ها هو اذن من لم نره منذ وقت طويل ! ماذا تتناول ؟ شايا ؟ تفاحا ؟ لبنا ؟ لا تريد ؟ حقا ؟ ولكن ربما تريد شيئا ؟ حسنا ، اذن اجلس هنا واشترك معنا .

لعبوا لعبة «السيدة احضرت مائة روبل» ولعبة «الآراء» ولعبة اخرى . وكان الضيوف ثلاثة من طلبة التدريب ، كانوا دائما ينفخون صدورهم ويتخذون اوضاعا تمثيلية ، فيمدون ساقا الى الامام ويضعون يدا فى الجيب الخلفى للسترة ، وكان هناك الفنى ميللر الذى يمتاز بجمال وغباء وصوت «باريتون» رائع ، وكان هناك اخيرا سيد صموت يرتدى حلة رمادية ولا يسترعى انتباه احد .

لم يسر اللعب على ما يرام . كان الرجال يؤدون ادوارهم بوجوه يبدو عليها التفضل والملل ، اما الفتيات فقد امتنعن تماما عن القيام بادوارهن واخذن يتهامسن فيما بينهن ويقهقهن بصورة غير طبيعية .

وحل الغسق . وصعد القمر الاحمر الضخم ببطء من وراء اسقف القرية القريبة .

وصاحت آنا افناسيفنا من وراء الطاولة :

— يا اولاد ، تعالوا الى الداخل . . اطلبوا من ميللر ان يغنى لنا شيئا .

وبعد دقيقة كانت اصوات الآنسات تتردد فى الغرف .

ورفرفن حول امهن قائلات :

— كنا فى غاية السرور . . وكم ضحكنا ، كم ضحكنا . . .

لم يبق فى الشرفة سوى نينا وببروف . كانت جالسة على الحاجز ممسكة العمود بيدها اليسرى وقد التصقت به فى وضع لا ارادى رشيق . اما ببروف فتربع على اريكة منخفضة تحت قدميها مباشرة واخذ يتطلع الى وجهها من اسفل الى اعلى فرأى التقاطيع الرقيقة لرقبتها وذقنها .

وقالت نينا بلهجة آمرة عجول :

— احك لى شيئا طريفا يا اندريه ايليتش ، هيا !

فرد ببروف :

— فى الواقع لا ادرى ماذا احكى . من الصعب جدا ان يتحدث المرء حسب الطلب . لقد بدأت افكر . . . الا يوجد دليل للمحادثة فى مختلف المواضيع . .

فقالت نينا بلهجة ممطوطة :

— اووه . . يا لك من ممل ! قل لى : متى يكون مزاجك طيبا ؟

— وانت قولى لى ، لماذا تخافين السكوت الى هذه الدرجة ؟ ما ان ينقطع حبل الحديث قليلا حتى يتملكك الضيق . . . هل من السيئ ان نتحدث فى صمت ؟

فغنت نينا مازحة :

— «سنكون واياك صامتين . . .»

— طبعا سنكون صامتين : انظرى ، ها هى السماء صافية ، والقمر احمر ، ضخم ، والشرفة هادئة . . ماذا تريدين بعد ؟

فرددت نينا :

— «وهذا القمر الاحمق على هذه القبة

الحمقاء» * . . . A propos ** هل سمعت ان زينا ماركوفا ستتزوج من بروتبوبوف ؟ ستتزوج فعلا ! انسان عجيب بروتبوبوف هذا ! — وهزت كتفيها — رفضته زينا ثلاث مرات ، ولكنه مع ذلك لم يهدأ فعرض عليها الزواج للمرة الرابعة . ذنبه على جنبه . . ربما احترمته ، ولكنها لن تحبه ابدا !

كانت هذه الكلمات كافية لتحرك المرارة فى قلب ببروف . فقد كان قاموس آل زينتكو الضيق المبتذل ، بعبارات من نوع «انها تحبه ولكنها لا تحترمه» او «انها تحترمه ولكنها لا تحبه» يثير ثائرته . كانت هذه العبارات فى مفهومهم تلخص اعقد العلاقات بين الرجل والمرأة ، تماما مثلما كانوا لا يستخدمون سوى كلمتين اثنتين : «اسمر» و«اشقر» لتحديد الخصائص الخلقية والذهنية والبدنية لاى شخص .

وسأل ببروف بدافع غامض لاثارة الحنق

* بيت للشاعر الروسى الكبير الكسندر بوشكين — المترجم .

** بالمناسبة (بالفرنسية فى الاصل) — المترجم .

فى نفسه :

— ومن هو بروتبوبوف هذا يا ترى ؟

— بروتبوبوف ؟ . . . — وفكرت نينا ثانية واحدة — انه . . . كيف اوضح لك . . طويل بعض الشىء . . . كستنائى الشعر !

— ولا شىء اكثر ؟

— وماذا اكثر ؟ آه ، نعم . . انه يعمل فى مصلحة الضرائب . . .

— وفقط ؟ أحقا يا نينا جريجورفنا أنك لا تجدين ما تصفين به شخصا سوى انه كستنائى الشعر ويعمل فى مصلحة الضرائب ! هلا فكرت ، كم نلتقى فى الحياة باناس ظرفاء ، موهوبين واذكياء . امن المعقول ان كل هؤلاء ليسوا سوى «كستنائيى الشعر» و«موظفين فى الضرائب» فقط ؟ انظرى الى اولاد الفلاحين . . باى فضول نهم يتأملون الحياة ، واية دقة فى اقوالهم . اما انت ، الفتاة الذكية ، الرهيفة ، فتمرين بجوار كل شىء بلا مبالاة ، لان لديك رصيدا من عشر عبارات قالبية منزلية . اننى اعرف انه اذا ما ذكر احد ما القمر فى حديثه فسوف

تضيفين على الفور : «مثل هذا القمر الاحمق» الى آخره . واذا ما رويت لك ، مثلا ، حادثة مثيرة غير عادية ، فانني اعرف مقدما انك ستقولين «ما احدث القصة وما اصعب التصديق» . وهكذا في كل شيء ، في كل شيء . . صدقيني ، اتوسل اليك ، ان كل شيء متفرد وذو طابع خاص . . .

فرددت نينا بحدة :

— ارجوك ، لا تقرأ لي موعظة !

سكت وفي فمه طعم المرارة ، وجلسا كلاهما خمس دقائق في صمت ودون حراك . وفجأة تناهت من غرفة الاستقبال انغام صادحة ، وغنى ميللر بصوت مشروخ قليلا ولكنه عامر بتعبير عميق :

صدفة في الحفل الصاخب
رأيتك وسط هرج الحياة
لكن الاسرار
حجبت عني ملامحك .

وهدأت نفس ببروف المحنقة بسرعة ، وشعر الآن بالاسف لانه احزن نينا . وقال لنفسه :

«لاي شيء عنّ لي ان اتطلب من عقلها الساذج الغض الطفولي جرأة مبتكرة ؟ انها كالعصفور تزقزق باول خاطر يرد في رأسها ، ومن يدري ، ربما كانت هذه الزقزقة افضل بكثير من الحديث عن تحرير المرأة وعن نيتشه وادب الانحطاط» .

وقال بصوت شبه هامس :

— نينا جريجورفنا ، لا تغضبي مني . لقد انسقت في الحديث وتفوهت باشياء غبية .

لزمت نينا الصمت وقد استدارت عنه وهي تتطلع الى القمر الصاعد . وبحث في الظلام عن يدها المدلاة حتى وجدها فضغط عليها برفق ، وهمس :

— نينا جريجورفنا . . ارجوك . .

وفجأة استدارت نينا اليه ، وردت على ضغطة يده بضغطة سريعة عصبية وهتفت بصوت العفو واللوم :

— ايها الشرير ! دائما تسيىء اليّ . . تعرف انني لا استطيع ان اغضب منك ! . .

ودفعت يده التي ارتعشت فجأة وتخلصت منه وعبرت الشرفة ركضا واختفت خلف الباب .

. . . وانام مع احلامى الغائبة . . .
ترى احبك .. لا ادرى ،
لكن يبدو لى انى احبك . . . —

غنى ميللر وقد ارتسم على وجهه تعبير الشوق واللوعة .

«لكن يبدو لى انى احبك» . . ردد ببروف بهمس مضطرب ، وهو يتنفس بعمق ويضغط بيده على قلبه الواجف .

وقال لنفسه متأثرا : «لماذا اعذب نفسى اذن بآمال خائبة فى سعادة سامية لا وجود لها ، بينما توجد هنا ، بجوارى سعادة بسيطة لكنها عميقة ؟ ما الذى اريده بعد من امرأة ، من زوجة اذا كان لديها كل هذه الرقة والجمال والرشاقة والعطف ؟ نحن اناس مساكين ، عصبيون ، مرضى ، لا نعرف كيف نأخذ من الحياة ببساطة افراحها ، بل نسممها عمدا بسم التنقيب الدؤوب فى كل احساس ، فى كل نية من نوايانا ونوايا الآخرين . . . الليل الهادئ ، والمحبوبة بقربى ، والاحاديث اللطيفة الساذجة ، ولحظة غضب سريع ثم رقة مفاجئة . . يا الهى !

أليس فى هذا كل سحر الوجود ؟»

دخل غرفة الجلوس بادى المرح والنشاط ، بل والظفر تقريبا . والتقت عيناه بعينى نينا ، فقرأ فى نظرتها الطويلة اجابة رقيقة على افكاره . وقال ببروف لنفسه وهو يشعر فى اعماقه بفرحة هادئة : «ستكون زوجتى» .

كان الحديث يدور عن كفاشنين . وقالت آنا افناسيفنا وهى تملأ غرفة الجلوس بصوتها الواثق ، انها تنوى ايضا اخذ «فتياتها» الى المحطة .

— من المحتمل جدا ان يرغب فاسيلى تيرنتيفتش فى زيارتنا . وعلى اى حال فمنذ شهر كتبت الىّ قريبة زوج ابنة عمى ليزا بيلوكونسكايا عن مجيئه . . .

وقال السيد زينتكو بخنوع عبارة محفوظة :

— أليست بيلوكونسكايا هذه اخت زوج الاميرة موخفتسكايا ؟

فأومأت آنا افناسيفنا نحوه بتفضل :

— نعم ، هى بعينها . انها ايضا على قرابة بعيدة من جهة الجدة بآل ستريموخوف الذين تعرفهم . كتبت الىّ ليزا بيلوكونسكايا

هذه انها التقت فى احد المجتمعات بفاسيلى تيرنتيفتش واوصته ان يزورنا اذا ما فكر يوما ما ان يأتى الى المصنع .

فسأل زيننكو بقلق :

— وهل سنستطيع ان نستقبله كما يجب يا نوسا ؟

— يا لك من مضحك ! سنفعل ما نقدر عليه . وعلى اى حال لن نستطيع ان ندهش رجلا يتقاضى ثلاثمائة الف فى السنة .

فقال زيننكو متأوها :

— يا الهى ! ثلاثمائة الف ! ان مجرد التفكير فى ذلك مخيف !

وتنهدت نينا كالصدى :

— ثلاثمائة الف !

وهتفت الفتيات فى صوت واحد باعجاب :

— ثلاثمائة الف !

فقالت آنا افناسيفنا :

— نعم ، وينفق كل هذا حتى آخر كوبيك

— ثم اضافت مجيبة على خاطر لم تبح به بناتها — رجل متزوج . لكنه فيما يقال غير

موفق فى زواجه . زوجته امرأة لا شخصية لها وليس فيها ذرة من العظمة . مهما يكن فعلى الزوجة ان تكون عنوانا لاعمال زوجها .

— ثلاثمائة الف ! — رددت نينا ثانية وكأنها تهذى — ما اكثر ما يمكن عمله بهذه النقود ! . . .

ومرت آنا افناسيفنا بيدها على شعر ابنتها الكثيف وقالت :

— آه لو تحصلين على زوج كهذا يا صغيرتى ، هه ؟

وكأنما كهربت هذه الآلاف الثلاثمائة لدخل شخص غريب المجتمع كله . فقد اخذوا بعيون متوهجة ووجوه ملتهبة يروون ويستمعون الى طرائف حياة اصحاب الملايين وحكايات عن قوائم طعامهم الخيالية ، وعن خيولهم الرائعة وحفلاتهم وتبذيرهم الجنونى للاموال .

وسرت البرودة فى قلب بيروف وتقلص حتى الالم . وبحث عن قبعته بلا ضجة حتى وجدها فخرج بحذر الى سلم المدخل . وعلى اى حال فلم يكن هناك من سيلحظ خروجه .

وعندما اطلق جواده ليركض بخبب واسع وهو عائد الى المنزل تخيل عينى نينا الحالمتين الساجيتين وهى تهمس فى غيبوبة «ثلاثمائة الف !» فتذكر مزحة سفيجيفسكى فى الصباح .

وهمس لنفسه وقد اطبق على اسنانه بعصبية :

— وهذه . . . ستعرف ايضا كيف تبيع نفسها ! — وضرب فرفاتر على عنقه بالسوط فى غيظ .

٥

عندما اقترب بيروف من شقته لمح ضوءا فى نوافذها . فقال لنفسه وهو يكبح جماح الحصان العرقان : «لا بد ان الدكتور جاء فى غيابى وهو الآن مستلق على الكنبة فى انتظـــارى» .

لقد كان الدكتور جولدبرج الانسان الوحيد الذى يستطيع بيروف ، فى حالته النفسية هذه ، ان يتحمل وجوده دون عصبية مؤلمة .

كان يحب باخلاص هذا اليهودى الوديع اللامبالى لذكائه الواسع وللحيوية الصبيانية فى طبعه وشغفه المسالم بالمناقشات ذات الطابع التجريدى . وكلما اثار بيروف قضية ، مهما كانت ، فان الدكتور جولدبرج يعارضه بنفس الاهتمام بالامر والاندفاع المعهود . وبالرغم من انه لم تنشأ بينهما حتى الآن خلال مناقشاتهما اللانهائية سوى التناقضات ، فقد كان كل منهما يشعر بالشوق الى الآخر ويلتقيان يوميا تقريبا .

كان الدكتور مستلقيا على الكنبة بالفعل ، واضعا ساقيه على ظهرها ، وهو يقرأ كتيبا ما وقد رفعه بملاصقة عينيه القصيرتى النظر . والقى بيروف نظرة سريعة على الغلاف فقرأ «دورة تعليمية فى التعدين» تأليف ميفيوس ، فابتسم . كان يعرف جيدا عادة الدكتور فى قراءة كل ما تقع عليه يداه بنفس الولع ، ولا بد ان يبدأ القراءة من وسط الكتاب .

قال الدكتور وقد نحى الكتاب جانبا ونظر الى بيروف من فوق النظارة :

— لقد تصرفت فى الشاى بدون اذنك . . حسنا ، كيف حالك يا مولاى اندريه ايليتش ؟ اووه ، كم تبدو غاضبا . ماذا ؟ عدت الى السوداوية المرحة من جديد ؟

فقال بيروف باعياء :

— آه ياذكتور ، ما افظع الحياة .

— لماذا يا عزيزى ؟

— هكذا . . عموما . . كل شيء فظيع . حسنا ، كيف حال مستشفاك يا دكتور ؟

— مستشفانا لا بأس به . . على قيد الحياة . كان لدينا اليوم حالة جراحية طريفة جدا . اى والله كانت مضحكة ومؤثرة . تصور . . جاءنا فى الصباح شاب من البنائين من ناحية مسالسك . وهؤلاء الشبان كلهم عمالقة ، كما لو كانوا قد اختيروا اختيارا . سألته «ماذا بك ؟» قال : «كنت اقطع الخبز لجماعتنا يا حضرة الدكتور ، فاصبت اصبعى قليلا ، ولا استطيع ان اوقف النزيف» . ففحصت يده ، خدش بسيط ، لكنه تقيح قليلا ، فامرت الممرض ان يضع عليه شريط بلاستر . ولكن الفتى لم ينصرف ، فقلت له : «ماذا تريد بعد ؟ لصقنا لك يدك فاذهب» فقال : «صحيح . . لصقت لى يدى ، متعكم الله بالصحة ، ولكن رأسى يوجعنى ، فربما اعطيتنى شيئا لوجع الرأس» . سألته : «ماذا جرى لرأسك ؟ ضربك عليها

احد ما ، أليس كذلك ؟» فظهرت الفرحة الشديدة على وجهه وقهقه . وقال : «فعلا حصل . منذ قريب ، فى عيد المخلّص (يعنى منذ ثلاثة ايام) احتفلت جماعتنا ، فشربنا دلوا ونصف من الخمر ، واخذ الفتيان يلهون معا . . وانا ايضا . ويعدين . . . هل تذكر شيئا فى العراك ؟ . . هوى احدهم على نافوخى بأزميل . . يعنى عمل المطلوب . . فى الاول لم يكن يؤلمنى ، اما الآن فهو يوش» . بدأت افحص «نافوخه» فماذا تظن ؟ تملكنى الرعب ! كانت جمجمته مكسورة كسرا نافذا ، بحجم الزر الكبير ، بينما غاصت قطع العظم فى المخ . . انه الآن يرقد فى المستشفى غائبا عن الوعى . صدقنى ، انهم اناس مدهشون ، ابطال واطفال فى الوقت نفسه . اى والله ، اننى اعتقد ، بلا مزاح ، انه لا احد يستطيع ان يتحمل مثل هذا الكسر فى «النافوخ» سوى الفلاح الروسى الصبور . لو كان مكانه شخص آخر للفظ انفاسه فى الحال . ثم تأمل هذه السماحة الساذجة : «وهل تذكر شيئا فى العراك ؟» . الشيطان وحده

ملايين الروبلات فى جيوبهم . وليس هناك اى هدف او اى مغزى آخر لهذا الجهد الذى انفقت على الاستعداد له اجمل سنوات عمرى !

— لا ، ان ما تقوله يثير الضحك يا اندريه ايليتش — قال الدكتور واستدار فى الظلام بوجهه نحو بيروف — انك تريد من هؤلاء البرجوازيين ان يتفهموا الدوافع الانسانية . ولكن منذ ان وجد العالم ، يا عزيزى ، والبطن هو الذى يحرك كل شيء ، ولم ولن يكون غير ذلك . ولكن المسألة انك تبصق على البرجوازيين ازدراء ، لانك اسمى منهم بكثير . الا يكفيك ادراكك الرجولى الابى بانك تدفع الى الامام «عجلة التقدم» على حد تعبير افتتاحيات الصحف ؟ يا للشيطان ! ان اسهم شركات الملاحة تأتى بارباح هائلة ، ولكن هل هذا يمنع اعتبار فولتن* صاحب خير على البشرية ؟

فامتعض بيروف وقال بأسى :

---

* روبرت فولتن (١٧٦٥ — ١٨١٥) ميكانيكى امريكى ، عمم استعمال البخار فى السفن — المترجم .

— آه يا دكتور يا دكتور ، لم تكن اليوم فيما يبدو لدى آل زينتكو ، ولكن شفتيك نطقتا فجأة بحكمتهم الحياتية . لحسن الحظ اننى لن اذهب بعيدا وراء البراهين ، ولكنى سأحطمك الان بنظريتك انت المفضلة .

— اية نظرية تعنى ؟ . . عفوا . . اننى لا اذكر اية نظرية . حقا يا عزيزى لا اذكر . . يبدو اننى نسيت . . . .

— نسيت ؟ ومن الذى كان يصرخ هنا ، على نفس هذه الكنبة ، والزبد يعلو شفتيه ، اننا نحن المهندسين والمخترعين ندفع باكتشافاتنا نبض الحياة الاجتماعية الى سرعة محمومة ؟ ومن الذى كان يقارن هذه الحياة بحالة حيوان وُضع فى زجاجة بها اوكسيجين ؟ اوه ، اننى اذكر جيدا تلك القائمة الرهيبة من اطفال القرن العشرين المصابين بانهيار الاعصاب والمجانين والمرهقين والمقدمين على الانتحار . . هذه القائمة التى كنت تلوح بها فى وجه هؤلاء الاشخاص اصحاب الخير على البشرية . كنت تقول ان التليغراف والتليفون والقطارات المنطلقة بسرعة مائة وعشرين

كيلومترا قد قصرت المسافة الى minimum * . . ازالتها . . . اصبح الوقت غاليا الى درجة انهم سيبدأون قريبًا فى تحويل الليل الى نهار لانهم يشعرون بالحاجة الى هذه الحياة المضاعفة . ان الصفقة التى كانت تتطلب سابقا اشهرا طويلة تعقد الآن فى خمس دقائق . ولكن حتى هذه السرعة الجهنمية لم تعد ترضى فروغ صبرنا . . . قريبا سوف يرى الواحد منا صاحبه على بعد مئات وآلاف الكيلومترات عن طريق الاسلاك ! . . . ومنذ خمسين عاما فقط ، عندما كان اسلافنا يتوجهون من القرية الى المدينة ، كانوا يؤدون الصلاة على مهل ويمضون وقد اخذوا معهم من التموين ما يكفى لبعثة الى القطب . . . بينما نحن ننطلق الى الامام باندفاع ، وقد اصم آذاننا هدير هذه الآلات الخرافية وزئيرها ، وتبلدت حواسنا من هذه السرعة الجنونية ، وتوترت اعصابنا وتشوهت اذواقنا وركبتنا آلاف الامراض الجديدة . . اتذكر يا دكتور ؟ كل

* الحد الادنى (باللاتينية بالاصل) — المترجم .

هذا هو ما قلته انت يا نصير التقدم الخيّر !

حاول الدكتور اثناء حديث ببروف أكثر من مرة ان يعارضه دون فائدة واخيرا استغل هذه الوقفة القصيرة فقال على عجل ولكن دون ثقة كبيرة :

— نعم ، نعم يا عزيزى ، قلت كل ذلك ، وما زلت اؤكده . ولكن ينبغى يا عزيزى ، كما يقال ان نتكيف مع هذا كله . والا كيف نعيش ؟ فى كل مهنة توجد هذه الجوانب الوعرة . خذنا مثلا ، نحن الاطباء . . . اتظن ان كل شىء لدينا واضح وسليم كما هو فى الكتب ؟ اننا لا نعرف شيئا محققا على وجه الاطلاق اكثر من الجراحة . اننا نخترع ادوية وطرقا جديدة ، وننسى تماما انه من بين كل الف جسم لا يوجد حتى جسمان متشابهان ولو الى درجة قليلة من حيث تركيب الدم ونشاط القلب وظروف الوراثة وغيرها من الاشياء التى لا يعلمها الا الشيطان ! لقد ابتعدنا عن الطريق الصحيح الوحيد للعلاج الباطنى . . ابتعدنا عن طب الوحوش والعرافين . لقد اغرقنا الصيدلة بمختلف انواع

الكوكايين والاتروبين والفيناسيتين ، وغاب عنا تماما انه لو اعطينا الانسان البسيط ماء قراحا واوحينا اليه جيدا انه دواء ناجع ، فسيشفى هذا الانسان البسيط . وبالمناسبة ففى تسعين بالمائة من الحالات التى نواجهها اثناء الممارسة لا يساعدنا سوى هذا الايمان الذى توحى به الى المرضى ثقتنا المهنية الكهنوتية بالنفس . هل تصدق ؟ لقد اعترف لى طبيب جيد ، وفى الوقت نفسه انسان ذكى وشريف ، بان الصيادين يعالجون الكلاب بصورة اكثر رشدا مما نعالج به البشر . فلديهم دواء واحد وهو مسحوق الكبريت . . انه لا يسبب ضررا ملحوظا ، ولكنه قد يفيد . . . أليست هذه يا عزيزى صورة لطيفة فعلا ؟ ومع ذلك فنحن نبذل ما فى وسعنا . . ليس هناك حل آخر يا عزيزى ، فالحياة تتطلب التنازلات . . واحيانا ، ولو بمنظر الكاهن المحيط بكل شىء ، فانك تخفف عن قريبك آلامه . فشكرا لك على ذلك .

فرد ببروف بنبرة عابسة :

— دع التنازلات وشأنها . . فانك مع

ذلك قد استخرجت العظام اليوم من رأس ذلك البنّاء . . .

— آه يا عزيزى ، وماذا تعنى جمجمة واحدة عولجت ؟ هلا فكرت فى عدد الافواه التى تطعمها والايدى التى تشغلها انت . لقد ورد فى تاريخ ايلوفايسكى ان «القيصر بوريس ، وقد اراد ان يكسب ود جماهير الشعب ، امر اثناء سنوات المجاعة ببناء المرافق العامة» . او شىء من هذا القبيل . . . فلتحص اذن ذلك القدر الهائل من الفوائد التى ت. . .

وكأنما قذفت قوة بببروف على السرير عند سماعه هذه الكلمات الاخيرة ، فاعتدل فى جلسته فى الفراش بسرعة وقد دلى ساقيه العاريتين ، وصاح بجنون :

— فوائد ؟ ! انت تحدثنى عن الفوائد ؟ فى هذه الحالة ، اذا ما كنا سنجمل نتائج الفوائد والاضرار ، اسمح لى ان اقدم لك صفحة صغيرة من الاحصائيات . . . — ثم راح يتحدث بنبرة منتظمة حادة ، وكأنما يلقى كلمة من على منبر : من المعروف منذ وقت طويل ان العمل

في المناجم والمحاجر ومصانع الحديد والمصانع الضخمة يقصر حياة العامل بمقدار الربع تقريبا . ودع جانبا الحوادث المؤسفة او اعمال السخرة . وانت كطبيب تعرف افضل منى بكثير مدى النسبة التى يساهم بها الزهرى والسكر وظروف المعيشة المرعبة فى هذه العنابر والملاجئ اللعينة ... مهلا يا دكتور ، قبل ان تعارضنى تذكر ، هل رأيت كثيرا من العمال فى المصنع تجاوزوا سن الاربعين او الخامسة والاربعين ؟ انا شخصيا لم ار احدا . وبعبارة اخرى فان العامل يعطى لصاحب العمل ثلاثة اشهر من حياته فى السنة ، او اسبوعا فى الشهر ، او باختصار ست ساعات يوميا . . . والآن فلتصغ الى ما سأقول . . . سوف يبلغ عدد العاملين فى المصنع ببناء ستة افران حوالى ثلاثين الف شخص . حتى القيصر بوريس نفسه لم يحلم على ما يبدو بهذا الرقم ! ثلاثون الف شخص سوف «يحرقون» معا مائة وثمانين الف ساعة من اعمارهم يوميا ، اى سبعة آلاف ونصف يوم ، اى ، كم سنة فى النهاية ؟

فقال الدكتور بعد صمت قصير :

ـــ حوالى عشرين سنة .

فصرخ بيروف :

ـــ حوالى عشرين سنة فى اليوم ! يومان من العمل يلتهمان حياة شخص كاملة . يا للشيطان ! أتذكر فى التوراة ، كيف كان قوم مثل الاشوريين او الامونيين يقدمون الضحايا البشرية لآلهتهم ؟ ولكن هذين السيدين النحاسيين «مولك» و«داغون» * كانا سيحمران خجلا وغضبا لو سمعا هذه الارقام التى ذكرتها الآن . . .

وردت هذه الحسابات المتميزة على ذهن بيروف فى هذه اللحظة (فقد كان ككثير من الاشخاص الشديدى التأثر لا يعثر على الافكار الجديدة الا من خلال الحديث) . ومع ذلك فقد بهرته هو وجولدبرج هذه الطرافة فى الحساب .

---

* مولك هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين القدماء . وكانوا يقدمون له اولادهم ذبائح يطرحونها امامه فى النار . وقد اصبح رمزا للقوة المتعطشة الى الدماء . ونظرا لعدم اقتران اسمه بهذا المعنى فى الذهن العربى المعاصر فقد ارتأينا ان نترجمه الى «الغول» . اما داغون فهو اله من آلهة الفلسطينيين القدماء ـــ المترجم .

وقال الدكتور من فوق الكنبة :

— يا للشيطان ، لقد صدمتني . رغم ان الارقام قد تكون غير دقيقة تماما . . .

فمضى ببروف يقول بحماس اكبر :

— وهل تعرف جدولا احصائيا آخر تستطيع من خلاله ان تحصي بدقة شيطانية كم من الارواح البشرية تتكلفها كل خطوة الى الامام من عجلتك الملعونة وكل اختراع لآلة عزاق او بذار او دلفنة قضبان حقيرة ؟ فعلا ، ما اروع حضارتك التي تقاس ثمارها بارقام ، آحادها آلة حديدية واصفارها صف طويل من الكائنات البشرية !

فقال الدكتور وقد اربكه حماس ببروف :

— ولكن مهلا يا عزيزي . . اذن فانت ترى انه من الافضل ان نعود الى العمل البدائي ؟ ام ماذا ؟ لماذا لا تستشهد الا بالجوانب المظلمة فقط ؟ خذ مثلا هنا . . عندنا ، رغم حساباتك ، مدرسة تابعة للمصنع ، وكنيسة ، ومستشفى جيد ، وجمعية تسليف مناسب للعمال . . .

وقفز ببروف من سريره وراح يخطو في

الغرفة حافي القدمين :

— مستشفاك ومدرستك . . كل هذه اشياء تافهة ! لعبة اطفال للانسانيين امثالك . . تنازل للرأى العام . . استطيع ان اقول لك ، اذا اردت ، كيف نبدو نحن . . أتعرف ما هو الفنيش ؟

— الفنيش ؟ اظنه شيئا خاصا بالخيل ؟ شيء ما في سباق الخيل ، أليس كذلك ؟

— نعم ، في سباق الخيل . انه المائتا متر الاخيرة قبل علامة النهاية . ويجب على الحصان ان يقطعها باقصى سرعة ، اما بعد العلامة فلا يهم حتى لو نفق . الفنيش هو اقصى واكبر حشد للمجهود ولكي يدفعوا الحصان الى الفنيش ينهالون عليه بالسوط حتى يتمزق جلده . . . وهكذا نحن . وعندما يبلغون الفنيش ويسقط الحصان محطم الظهر مكسور القوائم . . لا يهم ، فليذهب الى الشيطان ، فهو غير صالح الآن لشيء ! عندئذ فلتتفضل لتواسي الحصان الذي سقط بعد الفنيش بمدارسك ومستشفياتك . . . هل اتيح لك يا دكتور ان ترى عملية الصهر

والدلفنة ؟ اذا كنت قد شاهدتها فلا بد انك تعرف انها تتطلب قوة اعصاب جهنمية وعضلات فولاذية ومهارة لاعب سيرك . . . ينبغى ان تعرف ان كل اسطى يتفادى خطر الموت فى اليوم الواحد عدة مرات فقط بفضل رباطة جأشه المدهشة . . . فهل تريد ان تعرف كم يتقاضى العامل لقاء هذا العمل ؟

فقال جولدبرج باصرار :

— ومع ذلك ، فطالما ظل المصنع قائما فان العامل يضمن عمله .

فهتف بيروف وهو يجلس على حافة النافذة :

— لا تتفوه باشياء ساذجة يا دكتور ! العامل الآن مرتبط اكثر من اى وقت مضى بسوق العرض والطلب وبمضاربات البورصة ، وبشتى الدسائس الدائرة وراء الكواليس . ان كل مؤسسة ضخمة ، قبل ان تبدأ العمل تقبر ثلاثة او اربعة من المساهمين . هل تدرى كيف تكونت شركتنا ؟ لقد اسستها جماعة صغيرة من الرأسماليين باموالهم وكان مقررا فى البداية ان يمضى العمل فى حدود غير كبيرة . ولكن عصابة كاملة من

المهندسين والمديرين والمقاولين بددوا رأس المال بسرعة ، حتى قبل ان يفيق ارباب العمل من ذهولهم . كانوا يشيدون المبانى الضخمة ، التى يتضح فيما بعد انها غير صالحة . . . ثم ترسل هذه المبانى فيما بعد «الى الجزار» كما يقولون عندنا ، اى تنسف بالديناميت . وعندما بيعت المؤسسة اخيرا بعشرة كوبيكات مقابل كل روبل * . . عندها فقط اصبح واضحا ان اولئك الاوغاد كانوا يعملون وفق خطة مدبرة من قبل ، ويتقاضون مقابل تصرفهم السافل هذا رواتب معينة من شركة اخرى اغنى واشطر . والآن يسير العمل فى حدود اكبر بكثير ، ولكنى اعرف جيدا انه عند افلاس المرحوم صاحب الشركة الاول لم يحصل ثمانيمائة عامل على اجر شهرين . هذا هو ما تسميه العمل المضمون ! ما ان تنخفض قيمة الاسهم فى البورصة حتى ينعكس ذلك فورا على الاجور . واعتقد انك تعرف كيف ترتفع

---

* الروبل يساوى مائة كوبيك — المترجم .

الاسهم وتنخفض فى البورصة ؟ يكفى لذلك ان اذهب الى بطرسبرج واهمس فى اذن السمسار باننى اريد ان ابيع اسهما بحوالى ثلاثمائة الف «ولكن ارجوك ، هذا بينى وبينك ، لا تقل لاحد وسأدفع لك نسبة جيدة . . .» . ثم اهمس لآخر ولثالث بنفس الشىء سرا ، وعلى الفور تنخفض الاسهم عشرات الروبلات . وكلما امعنت فى السرية تهبط الاسهم اكثر واسرع . . . يا له من ضمان عظيم !

وفتح ببروف النافذة على مصراعيها بحركة قوية من يده ، فتدفق الى الغرفة هواء بارد .

وصاح اندريه ايليتش مشيرا باصبعه نحو المصنع :

— انظر ، انظر الى هنا يا دكتور !

ونهض جولدبرج قليلا معتمدا على مرفقه ونظر الى ظلام الليل المطل من النافذة . كانت اكوام لا حصر لها من الجير المحمى الى درجة الاحمرار تتلألأ فى الفضاء الضخم المنبسط على البعد . وتندلع فوقها بين الحين والآخر ألسنة نارية كبريتية زرقاء وخضراء . . . كانت تلك

افران الجير* . وتعالى فوق المصنع لهيب احمر ضخم متذبذب . وعلى خلفيته الدامية بدت قمم المداخن العالية الداكنة واضحة رشيقة ، بينما تلاشت اجزاؤها السفلى فى الضباب الرمادى المتصاعد من الارض . وكانت افواه هذه العمالقة المفغورة تطلق بلا توقف اعمدة كثيفة من الدخان تختلط ببعضها وتؤلف سحابة واحدة مضطربة تزحف نحو الشرق ببطء ، وتبدو احيانا بيضاء ككتل القطن ، واحيانا رمادية قذرة واحيانا صفراء كالحديد الصدئ . وتطايرت كتل ساطعة من الغاز المشتعل فوق انابيب المداخن الرفيعة الطويلة وهى تتراقص مضفية عليها منظر الشعلات الهائلة . وبسبب بريقها المتذبذب كانت السحابة الدخانية المنعقدة فوق المصنع تتقد تارة وتارة تخبو ، مكتسبة الوانا غريبة ومنذرة . ومن

* تقام افران الجير على النحو التالى : تكوم الاحجار الجيرية على شكل تل بارتفاع قامة الانسان ، وتضرم فيها النار بواسطة الحطب او الفحم الحجرى . ويظل هذا التل مشتعلا حوالى اسبوع الى ان يتحول الحجر الى جير غير مطفى — ملاحظة المؤلف .

حين لآخر ، عندما كان غطاء الفرن العالى يهبط على اثر رنين حاد من مطرقة الاشارة ، تنطلق عاصفة من اللهب والهباب من مصب الفرن الى عنان السماء مصحوبة بهدير يشبه هزيم الرعد البعيد . وعند ذاك كان المصنع كله يبرز من الظلام مرعبا وحادا لعدة لحظات ، اما صف ابراج «كاوبر» المتلاصقة السوداء المستديرة فيبدو مثل ابراج حصن حديدى اسطورى . وامتدت نيران افران الكوك صفوفا طويلة منتظمة . واحيانا كان احدها يتقد فجأة ويتوهج فيصبح مثل عين حمراء ضخمة . واختلط بريق المصابيح الكهربائية الازرق البارد بوهج الحديد المحمى الارجوانى . . وتناهت من هناك قرقعة وصخب الحديد بلا توقف .

واضفى وهج اضواء المصنع على وجه بيروف فى الظلام لونا نحاسيا شريرا ، ولمعت فى عينيه انعكاسات حمراء ساطعة ، وسقطت خصل شعره المتشابكة على جبينه فى فوضى . ورن صوته بحدة وغضب ، وهو يمد يده النحيلة فى النافذة :

ـــ ها هو «مولك» . . الغول المتعطش

الى الدماء البشرية الحارة . . اوه ، بالطبع ، هنا التقدم ، والعمل الآلى ومنجزات الحضارة . . . لكن فكر بالله عليك . . عشرون عاما ! عشرون عاما من العمر البشرى فى اليوم ! اقسم لك اننى احس بنفسى فى بعض الاحيان قاتلا ! . . .

«يا الهى ، انه مجنون» ـــ قال الدكتور لنفسه وقد سرت فى بدنه قشعريرة الرعب ، فاخذ يهدئ ثائرة بيروف :

ـــ اندريه ايليتش ، يا عزيزى ، دعك من هذا يا صديقى ، لماذا تزعج نفسك بالحماقات . احذر . . النافذة مفتوحة والجو رطب . . استلق ، وخذ ، خذ قليلا من البروم . . . «انه مجنون ، مجنون بالفعل» ـــ قال فى نفسه وقد تملكه الاشفاق والرعب معا .

وقاوم بيروف بضعف بعد ان هدت قواه تلك الثورة التى مر بها منذ قليل . ولكنه عندما استلقى فى الفراش انفجر فجأة فى بكاء هستيرى . وجلس الدكتور الى جانبه طويلا وهو يمسد شعره كأنه طفل ويطيب خاطره بكل ما يرد الى ذهنه من كلمات رقيقة مهدئة .

٦

جرى فى اليوم التالى الاحتفال الرسمى باستقبال فاسيلى تيرنتيفتش كفاشنين فى محطة ايفانكفو . وما ان قاربت الساعة الحادية عشرة حتى كانت ادارة المصنع بكاملها قد وصلت الى هناك . ويبدو ان احدا لم يكن يشعر بالاطمئنان . فقد كان المدير — سرجى فاليريانوفتش شيلكوفنيكوف — يجرع الكوب تلو الكوب من مياه سلتر المعدنية ويخرج ساعته من جيبه كل لحظة ويدسها ثانية حتى قبل ان يلقى نظرة على عقاربها . وكشفت هذه الحركة الشاردة وحدها عن قلقه . اما وجهه الجميل المعتنى به ، وجه الرجل الارستقراطى الواثق من نفسه ، فقد ظل جامدا . وكان القليلون جدا هم الذين يعرفون ان شيلكوفنيكوف هو مدير المشروع رسميا فقط ، اى على الورق . اما المتصرف فعلا فى جميع الشئون فكان المهندس البلجيكى اندريا ، الذى كان نصف بولندى ونصف سويدى ، والذى لم يستطع غير العالمين ببواطن الامور ان يدركوا ابدا طبيعة دوره . وكان مكتبا المديرين متجاورين ، يصل بينهما باب . ولم

يكن شيلكوفنيكوف يجرؤ على توقيع اية ورقة دون ان يجد عليها رمزا وضعه اندريا بالقلم الرصاص فى احدى زوايا الورقة . اما فى الحالات العاجلة التى لا يمكن فيها اجراء مشاورات فقد كانت تبدو على شيلكوفنيكوف مظاهر الهم ، فيقول للسائل بلهجة لامبالية :

— عفوا . . لا استطيع ان اخصص لك دقيقة واحدة . . مشغول جدا . لو سمحت اشرح موضوعك للسيد اندريا ، وسوف يبلغنى به فيما بعد بمذكرة مستقلة .

كانت خدمات اندريا للادارة لا تعد . فقد خرج من رأسه كاملا ذلك المشروع الاحتيالى العبقرى لافلاس شركة المستثمرين الاولى ، بينما اتمت يده الراسخة وغير المرئية الدسيسة حتى النهاية . وكانت مشاريعه التى تميزت ببساطة واتساق مذهلين تعد فى الوقت نفسه آخر صيحة فى علم التعدين . وكان يجيد جميع اللغات الاوروبية . وكان ملما بالاضافة الى مهنته بشتى المعارف ، وتلك ظاهرة نادرة وسط المهندسين .

ومن بين جميع الحاضرين فى المحطة

ظل هذا الشخص ذو القامة النحيلة المسلولة ووجه القرد العجوز محافظا وحده على برودة اعصابه العادية . وصل آخر الجميع ، واخذ الآن يتمشى جيئة وذهابا ببطء على الرصيف ، داسا يديه حتى المرفقين فى جيبى سرواله الواسع المهدل ، وهو يمضغ سيجاره الذى لا يغيب عن فمه . واطلت من عينيه اللتين تحس وراءهما عقل عالم كبير وارادة مغامر قوية نظرة ساكنة لامبالية من خلف جفنين متورمين مرهقين .

لم يدهش احد لمجىء آل زينتكو . فلسبب ما تعود الجميع منذ زمن بعيد ان يعتبروهم جزءا لا يتجزأ من حياة المصنع . وحملت الفتيات معهن الى صالة المحطة الجهمة ، حيث سادت البرودة والملل ، مرحهن المبالغ فيه وضحكهن المفتعل . واحاط بهن المهندسون الاصغر سنا والذين امضهم طول الانتظار . وعلى الفور اتخذت الفتيات وضع الدفاع المألوف وبدأن يلقين على اليمين وعلى اليسار بسذاجاتهن الودودة والتى ملها الجميع منذ زمن بعيد . وبدت آنا افناسيفنا وسط بناتها اللاغطات بصغرها ونشاطها ومجيئها

ورواحها كدجاجة حاضنة قلقة .

وكان ببروف المجهد ، المريض تقريبا بعد ثورة الامس ، يجلس وحيدا فى زاوية صالة المحطة ويدخن بكثرة . وعندما دخلت اسرة زينتكو وجلست الى الطاولة المستديرة تصحبها زقزقة عالية ، راود اندريه ايليتش فى وقت واحد احساسان مبهمان للغاية . فقد شعر بالخجل لمجىء هذه العائلة غير اللائق من وجهة نظره ، شعر بالخجل المحرق المقبض ، **الخجل للآخرين** . ومن جهة اخرى فقد فرح اذ رأى نينا بوجنتيها المضرجتين من ركض الجياد السريع ، وعينيها البراقتين ، وهندامها الرقيق للغاية . وكانت ، كما هى العادة دائما ، اجمل بكثير مما صورها له خياله . وفجأة تأججت روحه المريضة المعذبة برغبة جارفة فى الحب العذرى الرقيق العطر ، والشوق الى الود الانثوى المألوف المسكن .

اخذ يبحث عن فرصة مواتية ليقترب من نينا ، لكنها ظلت طوال الوقت منهمكة فى الثرثرة مع طالبين من طلاب التعدين اخذا يتسابقان فى اضحاكها ، فكانت تضحك كاشفة عن اسنان

دقيقة بيضاء براقة ، وبصورة أكثر دلالا ومرحا من اى وقت مضى . لكن نظراتها التقت بنظرات بيروف مرتين او ثلاثا ، فخيل اليه انه رأى فى حاجبيها المرفوعين قليلا سؤالا صامتا ، لكنه غير عدائى .

ودوى على الرصيف جرس طويل معلنا تحرك القطار من اقرب محطة . وحدث هرج بين المهندسين . وراح اندريه ايليتش يرقب من ركنه بابتسامة ساخرة كيف سيطرت نفس الفكرة الجبانة على اكثر من عشرين شخصا فى لحظة واحدة ، وكيف اصبحت وجوههم جادة مهمومة ، ومرت ايديهم بحركة سريعة لا ارادية على ازرار السترات واربطة العنق والكابات ، وتحولت عيونهم نحو الجرس . وسرعان ما اصبحت القاعة خاوية تماما .

خرج اندريه ايليتش الى الرصيف . وتجمعت الآنسات اللائى هجرهن الرجال المتوددون ووقفن فى عجز حول آنا افناسيفنا قرب الابواب . والتفتت نينا الى نظرة بيروف المتفرسة المصوبة اليها ، وكأنما فطنت الى رغبته فى الحديث اليها على

انفراد فمضت نحوه .

— مرحبا . ما لك تبدو اليوم شاحبا ؟ هل انت مريض ؟ — سألت وهى تضغط بقوة ورقة على يده ونظرت فى عينيه مباشرة بجدية وود . — لماذا رحلت بالامس مبكرا ولم تشأ حتى ان تودعنا ؟ هل اغضبك شىء ؟

فاجاب بيروف مبتسما :

— نعم ولا . . . لا ، لانى لا املك اى حق فى ان اغضب .

— ولكن كل انسان يحق له ان يغضب . خاصة اذا كان يعرف ان رأيه موضع اعتزاز . ولماذا نعم ؟

— لانه . . . الحقيقة يا نينا جريجوريفنا . . .

— قال بيروف وقد احس بدفعة شجاعة مفاجئة .

— بالامس عندما جلسنا معا فى الشرفة ، أتذكرين ؟ لقد عشت بفضلك عدة لحظات رائعة . وادركت انك ، لو اردت ، لجعلت منى اسعد انسان فى الوجود . . . اوه مالى اخاف واتردد . . انك تعرفين ، لقد خمنت ، نعم منذ زمن بعيد وانت تعرفين اننى . . .

ولم يستطرد ، فقد تبخرت فجأة الشجاعة التى غمرته .

— ماذا تقول . . ماذا هناك ؟

سألت نينا بلامبالاة متكلفة ، ولكن بصوت تهدج فجأة رغما عنها ، وخفضت بصرها .

كانت تنتظر اعترافا بالحب ، هذا الاعتراف الذى يثير قلوب العذارى دائما ويجعلها تخفق بقوة ولذة سواء تجاوبت قلوبهن مع هذا الاعتراف ام لا . وشحب خدا نينا قليلا .

وقال بيروف مضطربا :

— ليس الآن . . فيما بعد . . فى وقت آخر . . . فى ظروف اخرى سأقول لك . . .

— واضاف متوسلا — استحلفك بالله . . ليس الآن . . .

— حسنا . ومع ذلك لماذا غضبت ؟

— لاننى بعد تلك اللحظات القلائل دخلت غرفة الطعام فى اشد . . كيف اقول لك . . فى اشد حالات التأثر . . . وعندما دخلت . . .

— صدمت بالحديث عن اموال كفاشنين ؟

— قالت نينا وقد فطنت بتلك الفراسة الغريزية

المفاجئة التى تحل احيانا حتى باكثر النساء محدودية — نعم ؟ هل خمنت ما تريد ان تقول ؟ — والتفتت اليه وشملته مرة اخرى بنظرة عميقة ملاطفة — هيا قل ، بصراحة . لا داعى لان تخفى شيئا عن صديقك .

منذ ثلاثة او اربعة اشهر ، اثناء نزهة فى النهر مع مجموعة كبيرة ، عرضت نينا على بيروف ، وقد اثار جمال الليلة الصيفية الدافئة مشاعرها وحنانها ، عرضت عليه صداقتها الى ابد الآبدين ، وعندها قبل بيروف هذا العرض بجدية تامة ، وظل طوال اسبوع يدعوها بـ«يا صديقى» كما كانت هى ايضا تدعوه . وعندما كانت تقول له ببطء وبلهجة ذات مغزى وبنظراتها الساهمة المألوفة : **«يا صديقى»** ، كانت هذه الكلمة المحددة تجعل قلبه يخفق بعنف وعذوبة . وقد تذكر الآن تلك المزحة فقال لها وهو يتنهد :

— حسنا ، «يا صديقى» . . سأقول لك الحقيقة ، رغم ان ذلك صعب علىّ بعض الشىء . اننى اجد نفسى فى حالة من الازدواجية المرهقة بالنسبة لعلاقتى بك . وتمر لحظات اثناء احاديثنا

يكون بوسعك فيها بكلمة واحدة ، بحركة واحدة ، بل حتى بنظرة واحدة ، ان تجعلى منى اسعد انسان ! . . . اوه ، وهل استطيع ان اعبر عن تلك المشاعر بالكلمات ؟ . . . خبرينى فقط ، هل لاحظت ذلك ؟

— لاحظت . .

قالت شبه هامسة ، واسدلت عينيها برعشة ماكرة فى الرموش .

— وبعد ذلك . . . بعد ذلك تتحولين فجأة وامام عينىّ الى آنسة ضيقة الافق تردد عددا من الجمل المكرورة وتتصرف بطريقة مفتعلة ومحفوظة . . . لا تغضبى منى على صراحتى . . . لو لم يكن ذلك يعذبنى الى هذا الحد لما تكلمت . . .

— وقد لاحظت ذلك ايضا . . .

— أترين . . كنت دائما واثقا من ان روحك رقيقة عطوف . لماذا لا تريدين ان تبقى دائما كما انت الآن ؟

واستدارت نحوه ثانية ، وحركت يدها وكأنها تهم بلمس يده . كانا فى ذلك الوقت يسيران

جيئة وذهابا عند نهاية الرصيف الخالية .

وقالت له بلوم :

— انت لم تشأ ابدا ان تفهمنى يا اندريه ايليتش . انت عصبى وعجول . انك تبالغ فى تقدير كل ما هو طيب فىّ ولكنك فى المقابل لا تغفر لى اننى لا استطيع ان اكون شخصا آخر فى الوسط الذى اعيش فيه . لو اصبحت هكذا لكان ذلك مضحكا ، ولأدخل ذلك فى اسرتنا التنافر . اننى جد ضعيفة ، بل وللحقيقة جد تافهة ، لكى اناضل واحيا مستقلة . . . . اننى اسير الى حيث يمضى الجميع ، وانظر الى الاشياء واحكم عليها كما يفعل الجميع . ولا تظن اننى لا ادرك اعتياديتى . . . ولكنى لا احس بوطئها مع الآخرين ، اما معك . . . معك أفقد كل المعايير لانك . . . وتلعثمت — سيان . لانك شخص مختلف تماما ، لاننى لم اقابل فى حياتى ابدا شخصا مثلك .

وخيل اليها انها تتحدث بصدق . فصفاء الهواء الخريفى المنعش وضجيج المحطة ، ووعيها بجمالها ، وراحة الاحساس بنظرات بيروف الولهانة

اليها . . . كل ذلك قد كهربها الى تلك الدرجة التى تكذب فيها الشخصيات الهستيرية بالهام وبصورة آسرة وغير ملحوظة لها نفسها . وراحت تستمتع بتملى نفسها فى دورها الجديد ، دور الفتاة المتعطشة الى المساندة الروحية ، فاحست بالحاجة الملحة الى ان تقول لببروف اشياء سارة .

— اننى اعلم انك تعتبرنى لعوبا . . . لا داعى ، لا تعتذر . اننى اوافقك ، فانا اقدم المبررات لذلك . مثلا كثيرا ما اضحك واثرثر مع ميللر . ولكن آه لو تعرف كم امقت هذا الملاك السعفى ! او هذان الطالبان . . . ان الرجل الجميل منفّر على الاقل لانه دائما يتيه بجماله . هل تصدق — وان بدا ذلك غريبا — اننى دائما كنت اميل بشكل خاص الى الرجال غير الجميلين .

تنهد ببروف بحزن لدى سماعه هذه العبارة الرقيقة ، التى قالتها باعذب نبرة . يا للحسرة ! كم سمع من شفاه النساء هذا العزاء القاسى ، الذى لا يبخلن به ابدا على عشاقهن الدميمين . وسألها بنبرة ساخرة ، وان شفت مع ذلك

بوضوح عن مرارة السخرية من نفسه :

— اذن فبوسعى ان آمل فى كسب عطفك يوما ما ؟

وتنبهت • نينا بسرعة فقالت :

— ما هذا الذى تقول . . . انت لا يمكن الحديث معك . لماذا تتوسل الثناء يا سيدى العزيز ؟ عيب عليك ! .

وخجلت هى نفسها قليلا مما تسببت فيه من حرج ، ولكى تغير مجرى الحديث سألته بنبرة دلال آمرة :

— حسنا ، وما الذى كنت تنوى ان تقوله لى فى وقت آخر ؟ تفضل بالاجابة فورا !

فتردد ببروف الذى فترت همته :

— لا ادرى . لا اذكر . . .

— سأذكرك يا صديقى الكتوم . لقد اخذت تحدثنى عن يوم الامس ، ثم عن لحظات رائعة ، ثم قلت لى اننى ربما اكون قد لاحظت منذ زمن بعيد . ولكن ماذا لاحظت ؟ لم تقل . فهلا قلت الآن . اننى اطالبك بذلك ، أتسمع ؟ ! . .

كانت تحدق فيه بعينين تشرقان بابتسامة . . ابتسامة ماكرة وواعدة ورقيقة فى آن . . . وسكن قلب ببروف فى صدره فى عذوبة ، وعاد يحس بموجة الشجاعة السابقة . وقال فى نفسه وهو يستجمع جرأته : «انها تعرف ، انها تريد ان اقول لها» .

وتوقفا عند طرف الرصيف تماما ، حيث لم يكن هناك اى انسان . وكانا مضطربين . كانت نينا تنتظر الاجابة مستمتعة باللعبة المتوترة التى دبرتها ، بينما ببروف يبحث عن الكلمات ، وهو يتنفس بصعوبة وانفعال . ولكن ترددت فى هذه اللحظة اصوات حادة من ابواق الاشارة وثار الهرج فى المحطة .

فهمست نينا وهى تبتعد عن ببروف بسرعة :

— اننى منتظرة . . أتسمعنى ! انه اهم لى بكثير مما تظن . . .

واندفع من منعطف السكة الحديدية قطار ركاب سريع ملفع بالدخان الاسود . وبعد بضع دقائق هدأ من سيره بانسياب وبسرعة وهو يقرقع فوق خطوط التحويلة ، ثم توقف عند الرصيف . . .

وفى طرفه كانت عربة رسمية يلمع طلاؤها الازرق الحديث ، فاندفع جميع المستقبلين نحوها . وهب مفتشو المحطة فى احترام ليفتحوا بابها ، وتدلى منه على الفور سلم مطوى ، اخذت درجاته تنفتح بجلبة . وراح ناظر المحطة يستعجل العمال على فصل العربة وقد احمر وجهه من الاضطراب والركض وارتسم عليه الخوف . لقد كان كفاشنين واحدا من كبار المساهمين فى شركة «س» للسكك الحديدية ، فكان يسافر على خطوطها باحترام لم يكن يحظى به دائما حتى اعلى رؤساء مصلحة السكك الحديدية .

لم يدخل العربة سوى شيلكوفنيكوف واندريا واثنين من المهندسين البلجيكيين ذوى النفوذ . وكان كفاشنين جالسا فى مقعد وقد باعد بين ساقيه المهولتين ومد كرشه الى الامام . وكان يرتدى قبعة خفيفة مستديرة لمع من تحتها شعره النارى . اما وجهه الحليق كوجه ممثل ، بخديه المدليين ولغده المثلث ، والملىء ببقع النمش الكبيرة ، فقد بدا ناعسا ومتأففا . وانطبقت شفتاه فى تقطيبة احتقار وامتعاض .

وعندما رأى المهندسين نهض بصعوبة ، وقال بصوت غليظ مبحوح وهو يمد لهم بالدور يده الضخمة المنتفخة لمصافحات التبجيل :

— مرحبا يا سادة . . كيف الاحوال لديكم فى المصنع ؟

واخذ شيلكوفنيكوف يبلغه بلغة التقارير الرسمية . كل شىء فى المصنع على ما يرام ، ولا ينتظرون الا وصول فاسيلى تيرنتيفتش ، لكى يشغلوا فرن الصهر ويضعوا حجر الاساس للمبانى الجديدة فى حضوره . . . وقد استأجروا العمال والاسطوات بأجور مربحة للمصنع . وبلغ تدفق الطلبيات حدا كبيرا بحيث يدفع الى البدء فى الانتاج باسرع ما يمكن .

اصغى كفاشنين مديرا وجهه الى النافذة وهو يتأمل فى شرود الجمع المحتشد بجوار العربة . ولم يكن وجهه ينم عن اى تعبير سوى الارهاق المتقزز .

وفجأة قطع تقرير المدير بسؤال غير متوقع :

— ايه . . اسمع . . من هذه الفتاة ؟

ونظر شيلكوفنيكوف فى النافذة .

فأشار كفاشنين باصبعه فى فروغ صبر وقال :

— هذه . . ذات الريشة الصفراء فى قبعتها . فانتفض المدير :

— آه ، هذه ؟ — ومال على اذن كفاشنين وهمس بالفرنسية بلهجة غامضة — انها ابنة رئيس مخزننا . اسمه زيننكو .

واومأ كفاشنين برأسه بتثاقل ، ومضى شيلكوفنيكوف يتابع تقريره ، ولكن الرئيس قاطعه ثانية مرددا ببطء دون ان يتحول عن النافذة :

— زيننكو . . زيننكو . . . زيننكو . . من هو زيننكو هذا ؟ اين سمعت هذا الاسم ؟ . زيننكو ؟ . .

فرد شيلكوفنيكوف باحترام وبحياد مقصود :

— انه يعمل رئيسا لمخزننا .

ولكن فاسيلى تيرنتيفتش استدرك فجأة :

— تذكرت ! . . . لقد حدثونى عنه فى بطرسبرج . . حسنا ، اكمل من فضلك .

ادركت نينا بغريزة المرأة التى لا تخطئ ان كفاشنين ينظر اليها بالذات ويتحدث عنها فى هذه اللحظة . واستدارت قليلا ، ولكن وجهها

الذى تضرج من السرور المدلل ظل مع ذلك مرئيا لفاسيلى تيرنتيفتش بكل شاماته الجميلة .

واخيرا انتهى التقرير ، فخرج كفاشنين الى فسحة الدرج المشيدة على شكل جناح زجاجى واسع فى مؤخرة العربة .

كانت تلك لحظة لم يكن ينقصها لكى تخلد ، كما فكر بيروف ، الا آلة تصوير جيدة . ولسبب ما تباطأ كفاشنين فى النزول ، وظل واقفا خلف الجدار الزجاجى ، متساميا بقامته الضخمة فوق جمهرة المحتشدين بجوار العربة ، وقد باعد كثيرا بين ساقيه ورسم تعبير تقزز على وجهه ، فصار اشبه بصنم يابانى سيئ الصنعة . ويبدو ان سكون الرئيس هذا قد سبب انزعاجا للمستقبلين ، فقد جمدت على شفاههم البسمات المعدة من قبل فقلصتها ، بينما نظرت عيونهم المصوبة الى اعلى نحو كفاشنين بوله ، بل وذعر تقريبا . وعلى جانبى الباب اصطف مفتشو المحطة المشدودون دون حراك مثل الجنود . وحانت من بيروف التفاتة عارضة الى وجه نينا التى سبقته فلاحظ عليه بأسى نفس الابتسامة

ونفس الخوف القلق الذى يشعر به الوثنى وهو يتطلع الى صنمه .

وفكر اندريه ايليتش فى نفسه : «أمن المعقول انه ليس فى هذا شىء آخر سوى الدهشة الصادقة المبجلة من الدخل البالغ ثلاثمائة الف روبل فى السنة ؟ ما الذى يجعل كل هؤلاء الناس يلوحون باذنابهم لشخص لن يلقى اليهم ابدا حتى بنظرة اهتمام ؟ ام ان هناك قانونا سيكولوجيا ما للتملق لا يمكن ادراكه ؟»

واخيرا قرر كفاشنين ان يتحرك ، فهبط على الدرج الى الرصيف يسبقه كرشه ، ويسنده من تحت ابطيه بعناية خدم القطار .

واومأ برأسه بلامبالاة ردا على انحناءات الاحترام من الجمهور الذى تراجع امامه بسرعة الى اليمين واليسار ، ومد شفته السفلى الغليظة وقال بصوت اخن منفر :

— انصرفوا الى الغد يا سادة .

وقبل ان يصل الى باب الخروج استدعى المدير باشارة وقال له بصوت منخفض :

— اذن قدمه لى يا سرجى فاليريانوفتش .

فقال المدير مستدركا :

— زيننكو ؟

فدمدم كفاشنين وقد ثار فجأة :

— نعم ، نعم ، يا للشيطان ! — وجذب المدير الذى هم بالاندفاع ، من كمه — ليس هنا ، ليس هنا . . عندما اكون فى المصنع . . .

٧

بدأت اعمال البناء وافتتاح فرن الصهر العالى بعد اربعة ايام من وصول كفاشنين . وكان من المقرر الاحتفال بهاتين المناسبتين باكبر قدر من الفخامة ، ولذلك ارسلت مقدما بطاقات دعوة مطبوعة لمصانع الحديد والصلب المجاورة : مصنع كروتوجورسكى ، وفورونسكى ولفوفسكى .

وبعد مجئ كفاشنين وصل ايضا من بطرسبرج اثنان من اعضاء مجلس الادارة ، واربعة مهندسين بلجيكيين ، وعدد من المساهمين الكبار . وسرت بين موظفى المصنع شائعات بان الادارة اعتمدت

لمأدبة الغداء حوالى الفى روبل ، بيد انه لم يظهر بعد ما يؤكد هذه الشائعات ، اذ وقع عبء تمويل شراء الخمور والمواد الغذائية كله على عاتق المقاولين .

وجاء اليوم المقرر جد مناسب للاحتفالات ، فقد كان يوما من ايام الخريف المبكر الصحوة الشفافة ، عندما تبدو السماء سميكة زرقاء عميقة ، ويعبق الهواء البارد برائحة الخمر المرهفة القوية . وكانت الحفر المربعة المعدة لوضع اساس آلة النفخ الجديدة وفرن «بسمر» محاطة بجمع غفير من العمال على شكل مستطيل ذى ثلاثة اضلاع . وفى وسط هذا السور الحى ، وعلى حافة الحفرة تماما ، اقيمت طاولة بسيطة غير مطلية ، مغطاة بمفرش ابيض ، وعليها صليب وانجيل بجوار كوب من الصفيح للماء المقدس ومذرة . ووقف القسيس جانبا وقد ارتدى بدلة القداس الخضراء المطرزة بصلبان ذهبية ، وامامه خمسة عشر عاملا تطوعوا للانشاد . واحتل الضلع الرابع المفتوح للمستطيل المهندسون والمقاولون وكبار الملاحظين وموظفو الادارة . . . مجموعة مرحة

متعددة الالوان مؤلفة من اكثر من مائتي شخص . واستقر المصور فوق جسر السكة الحديد وقد غطى آلته ونفسه بمنديل اسود وراح يفتش من مدة طويلة عن زاوية مناسبة .

وبعد عشر دقائق اقترب كفاشنين من الساحة بسرعة على عربة تجرها ثلاثة خيول رمادية رائعة . كان يجلس في العربة وحده ، لانه لم يكن من الممكن ان يجلس احد بجواره حتى لو شاء . ومن ورائه وصلت خمس او ست عربات . وعندما رأى العمال فاسيلي تيرنتيفتش ادركوا بالغريزة انه «الرئيس الكبير» ، فنزعوا على الفور قبعاتهم كرجل واحد . وتقدم كفاشنين بعظمة واومأ برأسه للقسيس .

وتردد وسط السكون الذي خيم فورا صوت القسيس المخشخش الوديع الاخن :

— باركنا يا ربّ الآن والى ابد الآبدين ..

وصاحت الجوقة المرتجلة بصوت متناسق الى حد ما :

— آمين .

اما العمال — وكانوا حوالي ثـلاثـة آلاف شخص — فقد رسموا علامة الصليب باشارات

واسعة ، واحنوا رؤوسهم ، ثم رفعوها مطوحين بشعورهم الى الوراء بنفس الاتفاق في الحركات الذى حيوا به كفاشنين ... واخذ ببروف يراقبهم لا اراديا . كان في المقدمة صفان من البنائين الروس الرصينين ، يرتدون جميعا وبلا استثناء مرايل بيضاء ، وكلهم تقريبا ذوو شعر كالكتان ولحى حمراء .. ومن خلفهم وقف عمال الصب والحدادون يرتدون قمصانا فضفاضة غامقة اللون اخذوها عن العمال الانجليز والفرنسيين ، وبوجوه لا يزول عنها هباب الحديد .. وكانت تلوح بينهم وجوه العمال الاجانب بانوفهم المحدودبة .. واطل من خلف عمال الصب عمال افران الجير ، الذين تستطيع ان تميزهم عن بعد بوجوههم التي تبدو وكأنها ملطخة بطبقة سميكة من الدقيق ، وباعينهم الملتهبة المحمرة المتورمة ...

وعندما كانت الجوقة تردد بصوت عال ومتناسق ، وان كان اخن بعض الشيء : «ايتها العذراء ارحمي عبيدك» ، كانت هذه الآلاف الثلاثة ترسم علامة الصليب باجتهاد وبحفيف رتيب خافت وتركع حتى تكاد تلامس الارض . وتراءى

لبيروف شىء ما هائل كظواهر الطبيعة ، وفى الوقت نفسه طفولى ومؤثر فى هذه الصلاة الجماعية للحشد الرمادى الضخم . وغدا سينخرط العمال فى كدهم العنيد المرهق على مدى نهار كامل . ومن يدرى ايهم قد قدر له ان يدفع حياته ثمنا لهذا الكد ، فيسقط من فوق السقالة العالية ، او يكويه المعدن المصهور ، او يدفن تحت التراب او الانقاض ؟ أليس حكم القدر المحتوم هو ما يفكرون الآن فيه ، وهم ينحنون بشدة ويطوحون بخصلاتهم الشقراء عندما ترجو الجوقة من العذراء ان ترحم عبيدها . . . وفيمن غير العذراء يستطيع ان يأمل هؤلاء الاطفال الكبار ذوو القلوب الشجاعة البسيطة ، هؤلاء الجنود الطيعون ، الذين يغادرون كل يوم ملاجئهم القارسة المتجمدة ليحققوا مأثرة الصبر والبسالة المعتادة ؟

هكذا ، او تقريبا هكذا ، كان يفكر بيروف ، الميال دائما الى الصور الشاعرية العريضة . ورغم انه قد ترك الصلاة منذ وقت طويل فقد كانت تسرى فى ظهره وقفاه موجة باردة من الانفعال العصبى كلما انطلق هتاف الجوقة المجتمع اثر

صوت القسيس المخشخش البعيد . كان ثمة شىء ما قوى وخانع ومتفان فى هذه الصلاة الساذجة التى يؤديها هؤلاء الكادحون الرماديون القادمون من اماكن لا يعلمها الا الله فى محافظات بعيدة وقد نزعوا نزعا من مساقط رأسهم الاليفة ليقوموا بهذا العمل الشاق الخطر ...

وانتهت الصلاة . والقى كفاشنين بروبل ذهبى فى الحفرة دون مبالاة ، ولكنه لم يستطع ابدا ان ينحنى بالمجرفة ، فقام شيلكوفنيكوف بذلك بدلا منه . ثم تحركت المجموعة كلها الى افران الصهر المتشامخة فوق الاساس الحجرى بابراجها المستديرة السوداء الضخمة .

وكان الفرن الخامس الذى شيد حديثا يسير كما يقال بلهجة الفنيين «سيرا ناضجا» . فمن الفتحة الموجودة فى الاسفل على ارتفاع ذراع تدفق تيار نارى متوهج هادر عريض من الخبث المصهور ، تطايرت منه الى جميع الاتجاهات نيران كبريتية زرقاء . وكان الخبث يسيل عبر ميزاب مائل الى قدور موضوعة عند الناحية العمودية من الاساس ، فيتجمد فيها متحولا الى كتلة

كثيفة مائلة الى الخضرة ، تشبه اللدائن . وظل العمال الواقفون عند قمة الفرن العليا يلقون فيه دون توقف بالخام والفحم الحجرى اللذين كانا ينقلان الى اعلى بعربات حديدية بين الحين والحين .

ودشن القسيس الفرن من جميع النواحى بالماء المقدس وتنحى جانبا على عجل وبحذر ، بخطوات متعثرة هرمة . ورسم اسطى الكور العجوز المعروق الاسود الوجه علامة الصليب وبصق فى راحتيه . وقام اربعة من مساعديه بنفس الحركات . ثم رفعوا من الارض عتلة حديدية طويلة جدا ، وظلوا طويلا يهزونها ، وضربوا بها اسفل الفرن بعد ان صاحوا صيحة واحدة . ودقت العتلة على الجلبة الطينية مصدرة رنينا . وزر الحاضرون عيونهم بخوف وتوقع متوتر ، وارتد بعضهم الى الوراء . وضرب العمال مرة اخرى ، ثم ثالثة ، فرابعة . . . وفجأة اندفعت من تحت سن العتلة نافورة من المعدن السائل الوهاج الى درجة لا تطاق . وعندئذ قام اسطى الكور بتوسيع الفتحة بحركات دائرية بالعتلة ، فانساب حديد الزهر

ببطء فى المجرى الرملى مكتسبا لون المغرة النارى . وتطايرت من فتحة الفرن حزم كبيرة من النجوم اللامعة الضخمة فى جميع الاتجاهات وهى تطقطق عاليا ، ثم تلاشت فى الهواء . ومن ذلك المعدن المنساب بهدوء ، وكأنما ببطء ، انبعثت حرارة فظيعة ، حتى ان الضيوف غير المألوفين اخذوا يتراجعون ويغطون خدودهم براحاتهم .

وتحرك المهندسون من افران الصهر الى آلات النفخ . فقد اصدر كفاشنين من قبل تعليماته بأن يرى المساهمون القادمون معه المصنع بكل عظمته الهائلة وجلبته . وقد بنى تقديراته الدقيقة تماما على ان هؤلاء السادة ، وقد بهرهم ذلك القدر من الانطباعات القوية والجديدة عليهم ، سوف يروون العجائب فيما بعد للجمعية العمومية التى فوضتهم . ولما كان خبيرا بنفسية رجال الاعمال ، فقد اعتبر اصدار الاسهم الجديدة المربح له شخصيا والذى لم تقدم عليه الجمعية العمومية حتى الآن امرا مفروغا منه .

وبالفعل كان المساهمون مبهورين الى درجة الصداع ، الى درجة الرعشة فى السيقان . . .

وسمعوا فى قسم آلات النفخ ، وقد اعتراهم الشحوب من الاضطراب ، كيف كانت اربعة مكابس عمودية ضخمة تدفع الهواء فى انابيب فيصدر عنها هدير تهتز له جدران المبنى الحجرية . كان الهواء ينطلق فى هذه الانابيب الحديدية الضخمة التى يبلغ قطرها طوقى ذراعين ليمر عبر ابراج كاوبر حيث تسخنه الغازات المحترقة هناك الى درجة ستمائة مئوية ، ثم يتغلغل بعدها الى اعماق فرن الصهر فيذيب الخامات والفحم بحرارته . وكان المهندس المشرف على قسم النفخ يقدم الشروح . وبالرغم من انه كان يميل بالدور على آذان المساهمين ويصرخ بأعلى صوته متحشرجا ، الا ان كلماته لم تكن مسموعة فى صخب الآلات الرهيب ، وبدا فقط انه يحرك شفتيه فى صمت وتوتر .

ثم قاد شيلكوفنيكوف الضيوف الى مخزن افران التسويط ، وهو مبنى حديدى عال ، وطويل الى درجة ان طرفه البعيد بدا من هذه الناحية مجرد فتحة لا تكاد تلحظ . وبحذاء احد الجدران امتد رصيف حجرى استقر عليه عشرون

فرن تسويط تشبه فى شكلها عربات قطار نزعت عجلاتها . وكان حديد الزهر السائل يخلط فى هذه الافران بالخام ويحول الى صلب . وينساب الصلب الجاهز الى اسفل عبر انابيب فيملأ اصطمبات حديدية عالية — تشبه صناديق دون قاع ولكنها ذات مقابض فى الاعلى — ويتجمد فيها على شكل كتل صماء تزن الواحدة اربعين بودا *. وامتد فى الجانب الآخر من المخزن خط حديدى كانت تروح وتجىء عليه رافعات بخارية وهى تصفر وتقرقع وتلهث ، وتشبه الحيوانات المطيعة الماهرة المزودة بخراطيم مرنة . وكانت احدى الرافعات تلتقط الاصطمبة من مقبضها بخطاف وترفعها الى اعلى ، فتسقط منها بتثاقل كتلة الصلب التى تشبه قضيبا طويلا مستقيما ذا لون احمر وهاج . وقبل ان تسقط هذه الكتلة على الارض يلف عليها احد العمال بمهارة منقطعة النظير سلسلة بسمك الذراع . وتلتقط الرافعة الثانية هذه السلسلة وتحمل «القطعة» بانسياب

* البود — وحدة وزن روسية تساوى ١٦,٣٨ كيلوغرام — المترجم .

فى الهواء وتضعها بجوار الاخريات على العربة المسطحة المتصلة برافعة ثالثة . وتقوم الرافعة الثالثة بسحب هذا الحمل الى الناحية الاخرى من المخزن ، حيث تتولى رافعة رابعة ، مزودة بكماشة بدلا من الخطاف ، نزع «القطع» من العربة وتنزلها فى فتحات الافران الغازية المشيدة تحت الارض . واخيرا تقوم الرافعة الخامسة بانتشال القطع وقد ابيضت تماما من الحرارة وتضعها بالدور تحت عجلة مستديرة ذات اسنان حادة تدور بسرعة كبيرة على محور افقى ، فتشطر «القطعة» التى تزن ٤٠ بودا شطرين خلال خمس ثوان وكأنها قطعة من البسكويت الطرى . ويدخل كل شطر تحت مكبس مطرقة بخارية قدرته سبعمائة بود يضغط على الشطر بقوة هائلة وسهولة ، وكأنه من الشمع . وعلى الفور يلتقطه العمال على عربات يد ويسحبونه ركضا مبتعدين به وهم يلفحون من يقابلهم بوهج الحديد المحمى وبريقه .

ثم عرض شيلكوفنيكوف على ضيوفه ورشة دلفنة القضبان . كان القضيب المعدنى المحمى الضخم يمر عبر عدة مكنات منزلقا من احداها

الى الاخرى على محاور تدور تحت الارض فلا يرى منها الا سطحها العلوى فقط . وكان القضيب ينحشر فى الفراغ الموجود بين اسطوانتين حديديتين تدوران فى اتجاهين مختلفين ، ويمر بينهما فيجعلهما تبتعدان وترتعشان من التوتر . وبعد ذلك يجد القضيب فى انتظاره مكنة اخرى ذات فراغ اقل بين الاسطوانتين . ويصبح القضيب بعد كل مكنة ارفع واطول . وبعد ان يمر بعملية الدلفنة عدة مرات ذهابا وايابا يأخذ بالتدريج شكل قضيب احمر طوله عشرة ساجينات * . وكان يدير حركة الخمس عشرة مكنة المعقدة رجل واحد يقف فوق الآلة البخارية على منصة تشبه جسر القبطان على السفينة . كان يدفع المقبض الى الامام فتبدأ جميع الاسطوانات والمحاور فى الدوران فى اتجاه واحد ، ثم يدفعها الى الخلف فتدور الاسطوانات والمحاور فى اتجاه معاكس . وعندما يتم سحب القضيب تماما ، يقطعه منشار دائرى الى ثلاثة اجزاء وهو يئز بصوت

* الساجين — وحدة قياس روسية تساوى ٢،١٣ متر — المترجم .

يصم الآذان وينثر نافورة شرار ذهبية .

وبعد ذلك انتقل الجميع الى ورشة الخراطة ، حيث كان يتم فى الاساس تشطيب عجلات العربات والقاطرات . كانت السيور الجلدية تتدلى هناك من السقف من محور حديدى سميك يمر عبر الورشة كلها ، فتدير حوالى مائتى او ثلاثمائة مكنة مختلفة الاحجام والاشكال . وكانت تلك السيور من الكثرة والتشابك وتعدد الاتجاهات ، الى درجة انها تترك لديك انطباعا بانك امام شبكة جلدية مرتعشة معقدة وملتفة الخيوط . وكانت عجلات بعض المكنات تدور بسرعة عشرين لفة فى الثانية ، اما دوران البعض الآخر فكان بطيئا الى درجة لا تكاد العين تلحظها . وغطت الارضية طبقة سميكة من البرادة على شكل حلزونات جميلة طويلة من الصلب والحديد والنحاس . وكانت مكنات الثقب تملأ الهواء بازيزها الحاد الرفيع الذى لا يطاق . وهناك ايضا عرضت على الضيوف مكنة تصنع الصواميل . . شيء اشبه بفكين حديدين ضخمين يمضغان باستمرار . وكان اثنان من العمال يدسان فى هذا الشدق

طرف سلك طويل محمى . فتقضمه المكنة بانتظام قطعة قطعة وتلقى بها على الارض فى هيئة صواميل تامة الصنع .

وعندما خرجوا من ورشة الخراطة وعرض شيلكوفنيكوف على المساهمين (الذين كان يتوجه اليهم وحدهم بايضاحاته) ان يروا آلة «كومباوند» ، موضع فخار المصنع ، والتى تبلغ قدرتها تسعمائة حصان ، كان السادة القادمون من بطرسبرج قد اصمهم وازعجهم ما رأوه وسمعوه بما فيه الكفاية . ولم تعد الانطباعات الجديدة تثير فيهم اى اهتمام ، بل كانت تسبب لهم فقط مزيدا من الارهاق . كانت وجوههم متوقدة من حرارة الورشة ، وحللهم ملوثة بهباب الفحم . ويبدو انهم وافقوا على اقتراح المدير كارهين ، وفقط لكى لا يهينوا كرامة الجمعية العمومية التى فوضتهم .

كان «الكومباوند» ذو التسعمائة حصان مقاما فى مبنى خاص ، نظيف وانيق للغاية ، بنوافذ ساطعة الضوء وارضية من الموزايكو . ورغم ضخامة الآلة فلم يصدر عنها ضجيج تقريبا . . .

كان ثمة كباسان ، طول كل منهما اربعة ساجينات يتحركان بخفة وسرعة داخل اسطوانتين مبطنتين بعوارض خشبية . كذلك كانت عجلة قطرها عشرون قدما وباثنى عشر حبلا تنزلق عليها ، تدور هى ايضا بسرعة ودون صوت . وكان هواء عنبر الآلات الجاف الحار يتذبذب بدفقات قوية منتظمة من جراء حركتها الواسعة . كانت هذه الآلة هى التى تدير ماكينات النفخ والدلفنة وجميع آلات ورشة الخراطة .

وبعد ان تفقد المساهمون «الكومباوند» اصبحوا على يقين تماما من ان عذابهم قد انتهى ، ولكن شيلكوفنيكوف الذى لا يكل توجه اليهم فجأة باقتراح جديد رقيق :

— والآن يا سادة سأريكم قلب المصنع كله ، ذلك المركز الذى يمده بالحياة .

ولم يقدهم ، بل سحبهم تقريبا الى قسم المراجل البخارية . ولكن «قلب المصنع» — اثنا عشر مرجلا اسطوانيا طول كل منها خمسة ساجينات وارتفاعه ساجين ونصف — لم يترك فى نفوس المساهمين المتعبين ، بعد كل ما

رأوه ، انطباعا قويا . كانت افكارهم تهوم منذ زمن بعيد حول الغداء المنتظر ، فلم يعودوا كما فى السابق يوجهون اية اسئلة ، بل اخذوا يهزون رؤوسهم بشرود ولامبالاة ردا على كل ايضاحات شيلكوفنيكوف . وعندما انتهى المدير تنفس المساهمون الصعداء ، ومضوا باخلاص وارتياح ظاهر يشدون على يده .

لم يبق بجوار المراجل البخارية الآن سوى اندريه ايليتش . وقف على حافة الحفرة الحجرية العميقة شبه المظلمة ، حيث كانت المواقد ، واخذ يحدق طويلا نحو الاسفل متأملا ستة من الرجال العراة الى وسطهم وهم يقومون بعملهم الشاق . كان عليهم ان يلقوا بالفحم الحجرى فى فتحات المواقد دون انقطاع ، ليل نهار . وبين الحين والحين كانت المغالق الحديدية المستديرة تفتح بجلبة ، وعندئذ كان يبدو اللهب المتوهج الناصع البياض وهو يهدر ويئز ويصفر داخل المواقد . وبين الحين والحين كانت اجساد العمال العارية السوداء من غبار الفحم والمقددة من النار تنحنى ، فتبرز على ظهورها بشدة جميع

العضلات وجميع حلقات العمود الفقرى . وبين الحين والحين كانت الاذرع النحيفة القوية القبضة تملأ المجاريف بالفحم ثم تدسه فى الفم اللاهب المفتوح بحركة سريعة ماهرة . وكان هناك عاملان يقفان فى الاعلى ويلقيان الى اسفل دون توقف ايضا بالمزيد والمزيد من الفحم الذى كان مكوما جسورا سوداء ضخمة حول قسم المراجل . وبدا لبيروف ان ثمة شيئا مقبضا ولا انسانيا فى عمل الوقادين اللانهائى هذا . خيل اليه ان قوة جبارة قاهرة قد ربطتهم مدى الحياة الى هذه الاشداق المفغورة ، وان عليهم ، تحت سلطة الخوف من الموت الرهيب ، ان يطعموا ويطعموا دون كلل هذا الوحش الاكول الشره . . .

— ماذا يا عزيزى ، هل تتأمل كيف يعلفون غولك ؟ . . .

سمع بيروف خلف ظهره صوتا مرحا بشوشا . وارتعد وكاد ان يسقط فى حفرة الموقد . لقد صعقه ، بل وهزه تقريبا ذلك التطابق المفاجئ بين سؤال الدكتور المازح وبين افكاره الخاصة . وحتى بعد ان تمالك نفسه ، لم يستطع طويلا

ان يتخلص من غرابة هذا التطابق . لقد كانت تهمه دائما ، بل وتبدو له غامضة تلك الحالات التى تفكر اثناءها فى شىء ما ، او تقرأ عن شىء ما فى كتاب ، فتسمع فى تلك اللحظة حديثا عن ذلك الشىء نفسه .

وسأل الدكتور وهو يتطلع باهتمام الى وجه بيروف :

— ترى هل اخفتك يا عزيزى ؟ ارجو المعذرة . . .

— نعم ، قليلا . . . لقد جئت دون صوت . . لم اتوقع ابدا .

— اوه ، يا اخى اندريه ايليتش . . يجب ان تعالج اعصابك . . انها سيئة للغاية . . اسمع نصيحتى . . خذ اجازة وارحل الى مكان ما فى الخارج . . ما الذى يجعلك تعذب نفسك هنا ؟ عش نصف عام على مزاجك . . اشرب نبيذا جيدا ، وتنزه على الخيول اكثر ، اشغل بالك بالغرام . . .

واقترب الدكتور من حافة الموقد ، ونظر الى اسفل فصاح :

— يا للجحيم ! ترى كم تزن كل غلاية من هذه ؟ أظن ثمانيمائة بود ؟ . .

— كلا ، اكثر . . حوالى الف وخمسمائة .

— ياى ، ياى ، ياى . . حسنا واذا خطر لمثل هذه ان . . تنفجر ؟ سيكون منظرا ملفتا ، هه ؟

— ملفتا جدا يا دكتور . ربما لم يبق من كل هذه المبانى حجر على حجر . . .

وهز جولدبرج رأسه وصفر بدلالة :

— وما الذى يمكن ان يؤدى الى ذلك ؟

— الاسباب مختلفة . . . ولكن فى الغالب يحدث ذلك كالتالى : عندما لا يبقى فى المرجل سوى قدر قليل جدا من الماء ، تحمى جدرانه اكثر فاكثر الى درجة تقرب من الاحمرار . ولو ادخلت فيه الماء فى تلك اللحظة فستتكون على الفور كمية هائلة من البخار ، ولا تتحمل الجدران ضغطه فيتمزق المرجل .

— اذن فيمكن عمل ذلك عمدا !

— بقدر ما تشاء . . . ألا تريد ان تجرب ؟ عندما يهبط مقياس الماء تماما ، ما عليك

فقط الا ان تدير صنبورا صغيرا . . انظر ، هذا المقبض الصغير المستدير . . ولا شىء اكثر .

كان ببروف يمزح ، ولكن نبرة صوته كانت جادة بصورة غريبة ، بينما اطلت من عينيه نظرة صارمة حزينة . وقال الدكتور فى نفسه : «يا للشيطان انه رجل لطيف ، ومع ذلك فهو . . . سيكوباتى . .»

وسأل جولدبرج بعد ان ابتعد عن الموقد :

— ولماذا لم تذهب الى الغداء يا اندريه ايليتش ؟ كنت سترى على الاقل كيف حولوا المعمل الى حديقة شتوية . . اما الخدمة فشىء مدهش .

فقال ببروف ممتعضا :

— ليذهبوا الى الجحيم ! لا اطيق مآدب غداء المهندسين . يتفاخرون ويصيحون ، ويتملقون بعضهم بعضا بفظاعة ، ثم تلك الانخاب الثملة المكرورة ، التى يسكب الخطباء اثناءها الخمر على انفسهم وعلى جيرانهم . . . شىء مقزز ! . .

وضحك الدكتور وقال :

— نعم ، نعم ، مضبوط تماما . لقد

شهدت البداية . كفاشنين هو الروعة بعينها : «ايها السادة الموقرون . . ان رسالة المهندس رسالة سامية ومسئولية . ومع السكة الحديدية وفرن الصهر والمنجم يحمل المهندس الى اعماق البلاد بذور المعرفة وزهور الحضارة و . . .» وثمارا اخرى لم اعد اذكرها جيدا . . . يا له من أفاق كبير ! . . «فلنتحد يا سادة ولنحمل عاليا علم فننا الخيرى المقدس ! . . .» ، وبالطبع دوت عاصفة من التصفيق المحموم .

سارا بضع خطوات صامتين . وفجأة اكفهر وجه الدكتور ، وراح يتحدث بصوت غاضب :

— هكذا ، فن خيرى ! ولكن عنابر العمال مبنية من شظايا الاخشاب . . المرضى لا حصر لهم . . الاطفال يتساقطون كالذباب . . هذه هى بذور المعرفة ! سنرى كيف يتصايحون عندما ينتشر التيفوس فى ايفانكوفو .

— ماذا تقول يا دكتور ؟ أهناك فعلا مرضى بالتيفوس ؟ سيكون امرا فظيعا فى ظل هذا الازدحام .

وتوقف الدكتور وزفر بصعوبة ، وقال بأسى :

— وكيف يمكن ألا يكون ؟ بالامس نقلوا الينا اثنين ، احدهما مات اليوم صباحا ، والثانى سيموت حتما فى المساء ، اذا لم يكن قد مات الآن . . . وليس لدينا ادوية ، ولا مبنى ، ولا ممرضون ذوو خبرة . . . — واضاف جولدبرج بغضب وهو يتوعد بقبضته شخصا ما فى الفراغ — مهلا ، ستكون عاقبتهم وخيمة !

٨

بدأت الالسنة الحاقدة تثرثر . وقبل مجئ كفاشنين سرت عنه فى المصنع مجموعة كبيرة من الشائعات المحرجة لدرجة ان احدا لم يعد الآن يشك فى السبب الحقيقى وراء تقربه المفاجئ الى آل زيننكو . كانت النساء يتحدثن عن ذلك بابتسامات تحتمل التأويل ، اما الرجال فكانوا فى جلساتهم يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية فى صراحة مبتذلة . لكن احدا لم يكن يعرف شيئا على وجه اليقين . وكان الجميع يترقبون بلذة فضيحة مغرية .

كان في الشائعات قدر من الصحة . فبعد ان زار كفاشنين آل زينكو ، اصبح يقضى الامسيات عندهم كل يوم . وفي حوالى الحادية عشرة كل صباح كانت عربته الرائعة بخيولها الرمادية الثلاثة تأتى الى شيبيتوفكا ويعلن الحوذى كالعادة ان «السيد يرجو السيدة والآنسات الحضور للافطار عنده» . ولم يكن احد من الغرباء يدعى الى ولائم الافطار تلك . وكان يعد الطعام طاه فرنسى يصطحبه فاسيلى تيرنتيفتش معه دائما فى رحلاته الكثيرة ، بل والى الخارج ايضا .

كان اهتمام كفاشنين بمعارفه الجدد يتجلى بصورة فريدة تماما . فبالنسبة للآنسات الخمس اصبح دون مجاملات فى موضع العم الاعزب المرح . وبعد ثلاثة ايام صار يناديهن باسماء التدليل مضيفا اليها اسم الاب * : شورا جريجورفنا ، نينوتشكا جريجورفنا ، اما الشقيقة الصغرى كاسيا ، فكان كثيرا ما يقبض على ذقنها الممتلئ ذى

* تقتضى تقاليد المخاطبة فى الروسية ان ينادى الشخص باسمه الكامل (دون تدليل) واسم ابيه — المترجم .

الغمازة ويشاكسها بـ«الرضيع» و«الكتكوت» ، مما يجعلها تحمر حتى تطفر منها الدموع ، ولكنها لم تكن تقاوم .

اما آنا افناسيفنا ، فكانت تلومه بتذمر لعوب على انه سيدلل بناتها تماما ! وبالفعل فقد كان يكفى ان تبدى احداهن اية رغبة عابرة حتى يحققها على الفور . فما ان تفوهت ماكا ، وبالمناسبة دون نية مبيتة ، بانها تود لو تعلمت ركوب الدراجة ، حتى جاء رسول من خاركوف فى اليوم التالى بدراجة رائعة لا يقل ثمنها عن ثلاثمائة روبل . . . اما بيتا فقد تراهن معها على اشياء تافهة فخسر لها بودا من الحلوى ، وخسر لكاسيا دبوسا من الاحجار الكريمة — المرجان والياقوت والكركهان واليشب — مرتبة على التوالى بحيث تشكل حروف اسمها * . وسمع ذات مرة ان نينا تحب الخيول والفروسية . وبعد يومين جيء لها بفرس انجليزية اصيلة ، مروضة تماما على

* الحروف الاولى من اسماء هذه الاحجار بالروسية تشكل اسم : كاسيا — المترجم .

الركوب الحريمى . كانت الآنسات مبهورات . لقد سكن دارهن روح اسطورى طيب يخمن ويلبى على الفور كل نزوة تعن لهن . واحست آنا افناسيفنا احساسا غامضا بشىء غير لائق فى هذا الكرم بالنسبة لاسرة طيبة ، ولكنها لم تجد فى نفسها الجرأة او اللباقة لتجعل كفاشنين يفهم ذلك بطريقة لا تلحظ . وكلما كانت توبخه بتملق كان يشيح بيده ويقول بصوته الغليظ الحازم :

— ما هذا يا عزيزتى . . هذه تفاهات تختلقينها . . .

بيد انه لم يفضل احدى بناتها على الاخريات ، فكان يتودد اليهن بدرجة واحدة ويسخر منهن جميعا دون كلفة . اما الشبان الذين كانوا يترددون من قبل على دار آل زيننكو ، فقد ابدوا لباقة واختفوا تماما . وفى المقابل اصبح سفيجيفسكى ، الذى لم يزرهم من قبل سوى مرتين او ثلاث ، ضيفا مقيما . لم يوجه احد اليه الدعوة ، بل كان يأتى من تلقاء نفسه ، كأنما بناء على دعوة غامضة من شخص ما ، واستطاع على

الفور ان يصبح ضروريا لجميع افراد الاسرة .

وعلى العموم فقد سبقت ظهوره عند آل زيننكو قصة طريفة صغيرة . فمنذ حوالى خمسة اشهر افضى سفيجيفسكى لمجموعة من زملائه فى العمل . بان حلم حياته ان يصبح مع الزمن مليونيرا ، وانه لا بد سيصبح ذلك عندما يبلغ الاربعين .

وسألوه :

— كيف ستحقق ذلك يا ستانسلاف كسافيريفتش ؟

فضحك سفيجيفسكى ضحكة قصيرة واجاب وهو يفرك راحتيه المبللتين بغموض :

— كل الطرق تؤدى الى روما .

وقد انبأه حدسه ان الظروف فى شيبيتوفكا ملائمة الآن تماما لمستقبله . وعلى اى حال فمن الممكن ان يصبح مفيدا للرئيس الجبار ، وقامر سفيجيفسكى بكل اوراقه واصبح يظهر بجرأة امام كفاشنين بضحكه القصير المرح . كان يتزلف اليه كما يلاعب الجرو المنزلى الودود كلبا شرسا ضخما من كلاب الحراسة ، مبديا بقسمات

وجهه وصوته استعداده فى كل لحظة لارتكاب اى عمل وضيع باشارة واحدة من فاسيلى تيرنتيفتش .

ولم يمانع الرئيس . كفاشنين نفسه ، ذلك الذى كان يطرد المديرين ورؤساء ادارات المصانع من العمل دون ابداء الاسباب . . كفاشنين هذا كان يصبر فى صمت على وجود من يدعى سفيجيفسكى فى حضرته . . . كانت فى الجو رائحة خدمة جليلة . . . فأخذ المليونير المقبل ينتظر ساعته بترقب .

وانتقل ذلك كله من لسان الى لسان حتى وصل الى علم بيروف . . فلم يدهش . كان قد كون لنفسه رأيا راسخا ودقيقا عن آل زيننكو . ولم يقلقه الا ان الشائعات لا بد ستلوث نينا بذيلها القذر . . . لقد اصبحت هذه الفتاة بالنسبة له اعز واقرب ، خاصة بعد حديثهما فى المحطة . فهو وحده الذى صارحته بما فى نفسها ، نفسها الرائعة حتى فى ترددها وضعفها . وفكر فى ان الآخرين لا يعرفون عنها سوى ملبسها ومظهرها الخارجى . وكانت الغيرة بما يصاحبها من شكوك وضيعة وعزة مستفزة

دائما ، بتفاهاتها وفظاظتها ، غريبة على نفس بيروف الرقيقة الميالة الى التصديق .

لم يجد الدهر على اندريه ايليتش بحب انثوى صادق طيب حتى الآن . وكان اخجل واقل ثقة فى نفسه من ان يأخذ من الحياة ما كان حقا له ، ربما عن جدارة . ولذا فليس من المدهش ان تنطلق روحه الآن فى فرح لملاقاة هذا الاحساس القوى الجديد .

كان بيروف طوال هذه الايام اسيرا لسحر ذلك الحديث الذى جرى فى المحطة . وتذكره مئات المرات بادق تفاصيله ، وفى كل مرة كان يجد فى كلمات نينا معنى اعمق . وكان يستيقظ فى الصباح باحساس مبهم بشىء كبير مشرق يملأ روحه ويعده فى المستقبل بنعم كثيرة .

واحس بشوق جارف نحو آل زيننكو . كان يود ان يتأكد مرة اخرى من سعادته ، وان يسمع من نينا مرة اخرى تلميحاتها الحيية تارة والجسورة الساذجة تارة اخرى . ولكن وجود كفاشنين كان يضيق عليه ، فاخذ يعزى نفسه بان الرئيس لا يمكن ان يبقى فى ايفانكوفو

أكثر من اسبوعين باى حال .

بيد ان الصدفة مكنته من لقاء نينا قبل سفر كفاشنين . حدث ذلك يوم الاحد ، بعد ثلاثة ايام من افتتاح العمل فى فرن الصهر . كان ببروف يمتطى فرفاتر فى طريق واسع ممهد جيدا يفضى من المصنع الى المحطة . وكانت الساعة حوالى الثانية بعد ظهر يوم صحو مائل الى البرودة . سار فرفاتر بخطوة نشطة وهو يهز اذنيه ويطوح رأسه المشعث . وعند المنعطف الواقع قرب المخزن لمح ببروف امرأة فى رداء ركوب تهبط من الجبل ممتطية فرسا كبيرا كميتا ، وفى اثرها فارس على حصان قرغيزى صغير ابيض . وسرعان ما تأكد من انها نينا ، فى جونلة طويلة فضفاضة خضراء داكنة ، وقفاز اصفر باساور ، وعلى رأسها قبعة اسطوانية لامعة غير عالية . كانت تجلس فى السرج بثقة وجمال . وسارت الفرس الانجليزية الرشيقة تحتها بخبب انسيابى واسع وقد اشرأب عنقها بشدة ، بينما كانت قوائمها الدقيقة الجافة ترتفع عاليا . وكان سفيجيفسكى المرافق لنينا قد تأخر بعيدا وهو يحاول ان يصطاد بسن قدمه

الركاب المنفلت بينما كان يضرب بكوعيه ويهتز ويتقوس .

وعندما لمحت نينا ببروف دفعت الفرس الى الرمح . وجعلها تيار الهواء المقابل تمسك بيدها اليمنى مقدمة القبعة وتخفض رأسها . وعندما حاذت اندريه ايليتش شدت اللجام فجأة فتوقفت الفرس وهى ترفع وتخفض قوائمها بفراغ صبر وتفتح واسعا منخاريها العريضين الاصيلين ، وتقرض باسنانها اللجام الذى كانت الرغوة تتساقط منه تدفقا . وتورد خدا نينا من الرمح ، وانسدل شعرها من تحت القبعة على صدغيها ومال الى الوراء خصلا طويلة رفيعة .

ــ من اين لك بهذه الروعة ؟ . . . ــ سأل ببروف عندما تمكن اخيرا من كبح جماح فرفاتر الراقص ، وانحنى وهو فى السرج ليصافح اطراف اصابع نينا .

ــ أليست جميلة حقا ؟ هدية من كفاشنين .

فقال ببروف بغلظة وقد اغضبته فجأة اجابة نينا اللامبالية :

ــ لو كنت مكانك لما قبلت هدية كهذه .

واحمرت نينا :

— على اى اساس ؟

— على اساس انه . . . من هو كفاشنين بالنسبة لك فى الواقع ؟ . . قريب ؟ . . خطيب ؟ . .

وهتفت نينا بنبرة لاذعة :

— يا الهى ، كم تبدو حساسا بدلا من الآخرين ! . .

ولكنها اصبحت أكثر رقة فورا عندما لاحظت المعاناة على وجهه :

— ان هذا لا يساوى بالنسبة له شيئا . . انه غنى جدا . .

كان سفيجيفسكى قد اصبح على بعد عشر خطوات . فانحنت نينا فجأة نحو بيروف ولمست يده بطرف سوطها برقة وقالت شبه هامسة ، وبنبرة فتاة صغيرة تعترف بذنبها :

— كفى . . . كفى . . . لا تغضب . . . سأعيد اليه الفرس ، ايها الحقود ! . . أرأيت ما الذى يعنيه رأيك بالنسبة لى . . .

اشرقت عينا اندريه ايليتش بالسعادة ، وامتدت يداه لا اراديا نحو نينا . ولكنه لم

يقل شيئا ، وانما زفر بعمق ، بملء صدره . واقترب سفيجيفسكى منه وهو ينحنى محييا ومحاولا ان تكون جلسته على الحصان لامبالية .

وصاح وهو لا يزال بعيدا :

— انك طبعا تعرف بأمر نزهتنا ؟

فأجاب اندريه ايليتش :

— اول مرة اسمع عنها .

— النزهة التى بادر اليها فاسيلى تيرنتيفتش فى وادى الجنون ؟ . .

— لم اسمع بذلك .

— نعم ، نعم ، ارجوك يا اندريه ايليتش . . . تعال معنا . . . — قالت نينا — يوم الاربعاء . . . فى الخامسة مساء . . . مركز التجمع : المحطة . . .

— هل النزهة بالاكتتاب ؟

— يبدو ذلك . . . لا اعرف بالضبط .

ونظرت نينا الى سفيجيفسكى باستفهام وارتباك ، فقال هذا مؤكدا :

— نعم ، بالاكتتاب . لقد كلفنى فاسيلى تيرنتيفتش بتنفيذ بعض تعليماته . دعنى اخبرك انها

ستكون نزهة هائلة . . . شيء اعظم من العظمة . . . ولكن هذا كله لا يزال سراً . . . سوف تذهلك المفاجأة . . .

ولم تطق نينا صبرا فقالت بدلال :

— كل هذا من اجلي . فمنذ ثلاثة ايام قلت كم يكون جميلا لو خرجنا جماعة الى نزهة فى الغابة ، فاذا فاسيلي تيرنتيفتش . . .

— لن اذهب ، — قال بيروف بحدة .

فقالت نينا ولمعت عيناها :

— بل ستذهب ! — وصاحت وهي تدفع الفرس الى الرمح — هيا يا سادة ، هيا . . . اندريه ايليتش ! اسمع ما سأقوله لك .

وتخلف سفيجيفسكى ، اما نينا وبيروف فركضا متجاورين . . . كانت هى تبتسم وتحدق فى عينيه ، وهو مقطب الوجه وغاضب .

وقالت برقة عميقة فى صوتها :

— لقد ابتكرت هذه النزهة من اجلك انت ، يا صديقى السيئ الشكاك ! . . انني اريد ان اعرف ما لم تبح به لى آنذاك فى المحطة . . . لن يعكر علينا احد اثناء النزهة .

ومن جديد حدث تحول خاطف فى روح بيروف . . . فهتف بعاطفة وهو يحس بدموع التأثر فى عينيه :

— اوه يا نينا . . . كم احبك !

ولكن نينا بدت وكأنها لم تسمع هذا الاعتراف المفاجئ . وشدت اللجام وجعلت الفرس تسير بالخطوة العادية وسألت :

— اذن ستأتى ؟ نعم ؟

— حتما . . . حتما سآتى !

— اياك ان تتخلف . . . والآن دعنا ننتظر فارسى . . . ثم . . . وداعا . لا بد ان اعود بسرعة الى المنزل .

واحس وهو يودعها بدفء يديها عبر القفاز عندما ردت عليه التحية بضغطة طويلة قوية . واطلت من عينى نينا الداكنتين نظرة عشق .

٩

فى يوم الاربعاء ، ومنذ الساعة الرابعة ، ازدحمت المحطة حتى آخرها بالمشتركين فى النزهة . وكان الجميع يشعرون بالمرح والانطلاق .

فقد انتهت زيارة فاسيلى تيرنتيفتش هذه المرة بصورة من التوفيق لم يجرؤ احد حتى على ان يأمل فيها . لم تتفجر اية صواعق او رعود ، ولم يطرد احد من وظيفته ، بل على العكس ، سرت شائعات بزيادة الرواتب لمعظم الموظفين فى المستقبل القريب . وفوق ذلك كانت النزهة تبشر بانها ستكون نزهة مسلية ، كانت المسافة الى وادى الجنون الذى قرروا الذهاب اليه ، لا تزيد على عشرة كيلومترات — لو ذهبت بالخيول — فى طريق رائع الجمال . . . ولم يكن من الممكن للطقس ان يفسد هذه الرحلة ، خاصة وانه قد استقر فى الاسبوع الاخير صحوا دافئا .

كان المدعوون حوالى تسعين شخصا . . . وقد تجمعوا حلقات على رصيف المحطة يتبادلون الحديث والضحكات والصيحات العالية . واختلطت الكلمات الروسية بعبارات فرنسية والمانية وبولندية . واخذ ثلاثة من البلجيكيين آلات التصوير معهم على امل ان يلتقطوا بعض الصور على وهج المغنيسيوم . . . وتشوق الجميع لمعرفة تفاصيل هذه النزهة التى كانت مجهولة لهم تماما .

وارتدى سفيجيفسكى مظهر الغموض والاهمية وهو يلمح الى بعض «المفاجآت» ، ولكنه كان يتهرب بكل الطرق من الافصاح عن اى شىء .

كانت المفاجأة الاولى هى القطار الخاص . ففى الخامسة تماما خرجت من مخزن المحطة قاطرة امريكية جديدة ذات عشر عجلات . ولم تستطع السيدات ان يكتمن صيحات الدهشة والاعجاب . . . فقد كانت الآلة الضخمة مزدانة كلها بالاعلام واكاليل الزهور الطبيعية . كانت باقات الاسطر والداليا والمنثور والقرنفل المختلطة بجدائل من اوراق البلوط الخضراء تحيط بجسم القاطرة الحديدى على شكل حلزون وتتسلق الى اعلى المدخنة ثم تتدلى من هناك الى الصفارة ثم تصعد الى اعلى ثانية لتغطى كابينة السائق بستار مزهر . وكانت اجزاء القاطرة الفولاذية والنحاسية تلمع بين الخضرة والزهور فى اشعة شمس الخريف الذهبية الغاربة بصورة خلابة . وكان ست من عربات الدرجة الاولى ممتدة بحذاء الرصيف على استعداد لنقل المشتركين فى النزهة الى الكيلومتر ٣٠٣ ، حيث لم يكن عليهم الا ان يقطعوا

10-608

خمسمائة خطوة ليصلوا الى وادى الجنون .

ومضى سفيجيفسكى ينتقل بسرعة من مجموعة الى مجموعة وهو يردد :

— يا سادة ، لقد طلب منى فاسيلى تيرنتيفتش ان ابلغكم بانه سيتكفل بجميع نفقات النزهة . . يا سادة ، لقد طلب منى فاسيلى تيرنتيفتش ان ابلغ جميع المدعوين . . .

واحاطت به مجموعة كبيرة فقال موضحا :

— لقد سر فاسيلى تيرنتيفتش سرورا كبيرا من الاستقبال الذى لقيه هنا ، ولهذا فيسعده ان يرد على التحية بمثلها . لقد اخذ على عاتقه كل النفقات . . .

ولم يتمالك نفسه فقال بنبرة ذات شأن ، مدفوعا بذلك الشعور الذى يجعل الخادم يتباهى بكرم سيده :

— لقد انفقنا على هذه النزهة ثلاثة آلاف وخمسمائة وتسعين روبلا !

— مناصفة مع السيد كفاشنين ؟

سمع سفيجيفسكى هذا السؤال الساخر من وراء ظهره ، فاستدار بسرعة وتأكد من ان هذا

السؤال الخبيث صادر عن اندريا ، الذى كان يتطلع اليه بوجهه المتبجح المألوف ، وقد دس يديه عميقا فى جيبى سرواله .

واستفسر سفيجيفسكى وقد تضرج وجهه بشدة :

— عفوا ، ما الذى تكرمت بقوله ؟

— بل **انت** الذى تكرمت وقلت : «لقد **انفقنا** ثلاثة آلاف» ، ولهذا فعندى من الاسس ما يجعلنى اعتقد انك تقصد بذلك نفسك والسيد كفاشنين . . . وفى هذه الحالة يسرنى ان ابلغكم اننى اذا كنت اتقبل هذا الكرم من جانب السيد كفاشنين ، فهذا لا يعنى اننى على استعداد لان اتقبله من السيد سفيجيفسكى . . .

— اوه ، كلا ، كلا . . . لقد فهمتنى خطأ — غمغم سفيجيفسكى وهو فى غاية الحرج — هذا كله من صنع فاسيلى تيرنتيفتش . اما انا ف . . . مكلف منه — ثم اضاف بابتسامة مغتصبة — مثل وكيل الاعمال يعنى . . .

وفى نفس الوقت الذى وصل فيه القطار الخاص قدم آل زينتكو فى صحبة كفاشنين وشيلكوفنيكوف . ولكن قبل ان يتمكن فاسيلى

تيرنتيفتش من الهبوط من العربة وقع حادث هزلى فاجع لم يدر بخلد احد . فمنذ الصباح بدأت زوجات عمال المصنع واخواتهم وامهاتهم يتقاطرن على المحطة بعد ان علمن بامر النزهة المرتقبة . وقد جاءت الكثيرات منهن بالرضعاء . كن يجلسن منذ عدة ساعات على درجات سلم المحطة ، وعلى الارض بجوار الجدران ذات الظلال الطويلة ، وقد ارتسمت على وجوههن المسودة المرهقة ملامح الصبر الجامد . كن اكثر من مائتى امرأة . وقد اجبن على اسئلة ناظر المحطة بانهن يردن مقابلة «الرئيس الاحمر السمين» . وحاول الحارس ان يطردهن لكنهن اثرن ضجيجا هائلا حتى انه اشاح بيده فى يأس وتركهن .

وكانت كل عربة تصل الى المحطة تثير بينهن هرجا للحظة ، سرعان ما يهدأن بعدها عندما يعرفن ان «الرئيس الاحمر السمين» لم يصل بعد .

وما ان امسك فاسيلى تيرنتيفتش بمسند مقعد الحوذى وهبط وهو يزحر على سلم العربة وقد مادت تحته ، حتى احاطت به النسوة من كل جانب

وجثمن راكعات . وزفرت الخيول الشابة الثائرة وجمحت وقد ارعبتها ضجة الحشد . وشد الحوذى اللجام واستلقى الى الوراء تماما وهو يكبح جماحها بالكاد . ولم يستطع كفاشنين فى البداية ان يفهم شيئا ، فقد كانت النسوة يصرخن جميعا فى صوت واحد ويدفعن نحوه اولادهن الرضّع . وانسابت الدموع الغزيرة فجأة على خدودهن البرونزية . . .

وادرك كفاشنين انه لن يستطيع الافلات من هذا الطوق البشرى الذى احاط به من جميع الجوانب .

فصاح بصوته الغليظ الذى طغى على اصواتهن جميعا :

— هس يا غجر ! كفى ضجيجا ! تتصايحن كأنكن فى السوق . انا لا اميز شيئا . فلتتكلم واحدة فقط . . . ماذا هناك ؟

ولكن كلا منهن كانت تريد ان تكون هى تلك الواحدة . فازداد الصياح ، وانهمرت الدموع اكثر غزارة على الخدود .

— يا مولانا . . . ارأف بحالنا . . . لم

يعد بوسعنا ان نصبر . . . جعنا ! . . اننا نهلك . . . نهلك نحن واطفالنا . . . نموت من البرد ! . .

فصاح كفاشنين من جديد :

— ما ذا تردن ؟ لماذا تهلكن ؟ . . لا تصحن معا . . . انت ، يا صبية ، تكلمى انت — وسدد اصبعه الى امرأة طويلة بدت جميلة رغم شحوب وجهها المتعب — والباقى يسكت !

وصمت معظمهن ، وان ظللن يشهقن ويعولن بصوت خافت ، ويمسحن عيونهن وانوفهن باطراف ثيابهن القذرة . . .

ومع ذلك تحدث ما لا يقل عن عشرين امرأة دفعة واحدة .

— نموت من البرد يا مولانا . . . اعمل معروفا وارأف بنا . . . لا نستطيع ابدا ان نتحمل . . . القوا بنا لنشتى فى العنابر ، وهل يمكن ان تعيش فيها ؟ هى عنابر بالاسم فقط ، ولكنها مصنوعة من شظايا الخشب . والآن لا نستطيع ان نتحمل برد الليل . . . اسناننا تصطك ، فماذا سنفعل فى الشتاء ؟ ارأف بحال اطفالنا . . .

مر يا مولانا ان يبنوا لنا افرانا . . . ليس لدينا مكان نطهو فيه الطعام . . . نطهوه فى الفناء . . . ورجالنا طول النهار فى العمل . . . وعندما يعودون بردانين . . . مبللين . . . لا يجدون ما يتدفأون به . . .

وجد كفاشنين نفسه فى مصيدة . واينما حول نظره رأى طريقه مسدودا بنساء راقدات على الارض او راكعات على ركبهن . وعندما اراد ان يشق طريقه وسطهن شددنه من سيقانه واطراف معطفه الرمادى الطويل . وعندما ادرك كفاشنين عجزه استدعى شيلكوفنيكوف باشارة من يده ، فلما شق الاخير طريقه عبر حشد النساء المتلاصق ، سأله فاسيلى تيرنتيفتش بالفرنسية وبرنة غضب فى صوته :

— هل سمعت ؟ ما معنى هذا ؟

واشاح شيلكوفنيكوف بيديه فــى عجز ودمدم :

— لقد كتبت فى ذلك الى الادارة . . رفعت تقريرا . . . الايدى العاملة محدودة جدا ، فالوقت صيف . . . موسم الحصاد . . . والاجور

عالية . . . لم تصرح الادارة . . . ليس بوسعنا ان نفعل شيئا . . .

وسأل كفاشنين بصرامة :

— ومتى ستبدأون تجهيز عنابر العمال ؟

— غير معروف ابدا . . . فليصبروا قليلا . . . علينا اولا ان تعجل بشأن مساكن الموظفين .

وقال كفاشنين متذمرا :

— الشيطان يعلم ما هذه الفوضى التى تحدث تحت اشرافكم ! . . . — واستدار مرة اخرى الى النساء وصاح بصوت عال — اسمعن ! ابتداء من الغد سيشرعون فى بناء افران لكُنّ وتغطية عنابركن بالالواح . هل سمعتن ؟

— سمعنا ، سمعنا يا مولانا . . . شكرا لك . . . طبعا سمعنا — رددت اصوات فرحة — هكذا افضل ، عندما يأمر الرئيس بنفسه . . . شكرا لك . . . فلتسمح لنا يا مولانا ان نجمع بقايا الخشب من البناء .

— حسنا ، حسنا ، اسمح لكنّ بجمع بقايا الخشب .

— انهم قد وضعوا الشركس * فى كل مكان ، فاذا جاء احد لجمع البقايا يهبون نحوه للسعه بالسوط .

— حسنا . . . حسنا . . . اذهبن واجمعن بقايا الخشب بشجاعة . . . لن يمسكن احد — قال كفاشنين مهدئا — والآن اذهبن الى البيوت ، هيا . . . اعددن الطعام ! — وصاح بصوت مشجع ونبرة فتوة — هيا . . بسرعة ! — والتفت الى شيلكوفنيكوف قائلا بصوت منخفض — مر بان يضعوا غدا حملين من الطوب بجوار العنابر . . . سيهدئ هذا خواطرهنّ لفترة طويلة . . . وليفرحن بالنظر اليه . . .

وانصرفت النساء سعيدات .

وصاحت تلك المرأة التى طلب منها كفاشنين ان تتحدث باسم الجميع :

— اعمل حسابك ، اذا لم تبنوا لنا الافران فسوف ندعو المهندسين لكى يدفئونا .

* فى مصانع ومؤسسات الجنوب يقبلون على استخدام الشركس فى الحراسة ، نظرا لما يمتازون به من تفان فى الخدمة وما يثيرونه من رعب فى قلوب السكان — **ملاحظة المؤلف** .

وردت امرأة اخرى بحيوية :

— طبعا .. فليأت الرئيس نفسه ليدفئنا . . . انظروا ما اسمنه وانعمه . . انه يدفئ احسن من الفرن .

واشاع هذا المشهد المفاجئ الذى انتهى بهذا التوفيق ، المرح فى نفوس الجميع دفعة واحدة . وحتى كفاشنين الذى غضب فى البداية من المدير ، ضحك بعد دعوة النساء له بان يدفئهن ، وسحب المدير من مرفقه بمودة ، وقال له وهو يصعد معه درجات سلم المحطة بصعوبة :

— انظر يا عزيزى . . . يجب ان تعرف كيف نتعامل مع هؤلاء الناس . بوسعك ان تعدهم باى شيء . . بمساكن من الالومنيوم . . . بيوم عمل من ثمانى ساعات ، وبالبفتيك فى وجبة الافطار . . . المهم ان تفعل ذلك بكل ثقة . اقسم لك اننى استطيع فى ربع ساعة ان اخمد بالوعود فقط لهب اى غضب شعبى . . .

وركب كفاشنين عربة القطار وهو يتذكر تفاصيل تمرد النساء الذى اخمد منذ لحظات ويضحك

بصوت عال . وبعد ثلاث دقائق غادر القطار المحطة . وصدرت الاوامر للحوذية بان يتوجهوا مباشرة الى وادى الجنون ، فقد كان من المقرر ان يعود الجميع بالخيول على ضوء المشاعل .

اثار سلوك نينا الارتباك فى نفس ببروف . لقد كان ينتظر وصولها الى المحطة بقلق مضن اخذ يراوده منذ مساء الامس . واختفت من نفسه الشكوك السابقة ، فآمن بسعادته القريبة ، ولم تبد له الدنيا من قبل اجمل ولا الناس اطيب ولا الحياة اسهل واسعد مما تبدو له الآن .

وعندما فكر فى لقائه بنينا حاول ان يتخيله مقدما ، واخذ يدبج لا اراديا العبارات الرقيقة الجياشة البليغة ، ثم يضحك بعد ذلك من نفسه . . . فلماذا ينمق عبارات الغرام ؟ عندما تكون مطلوبة سترد الى ذهنه من تلقاء نفسها اجمل وادفأ . وتذكر ببروف اشعارا قرأها فى احدى المجلات ، يقول فيها الشاعر لحبيبته بانهما لن يتبادلا الأيمان لانها ستكون مهينة لحبهما الامين الحار .

رأى ببروف كيف وصلت عربتان تقلان آل زينتكو فى اثر عربة كفاشنين . وكانت نينا تجلس فى العربة الاولى . كانت فى فستان خفيف زعفرانى اللون ، مزين عند فتحة الصدر شبه الدائرية بأشرطة عريضة من الدانتللا الشاحبة من نفس اللون ، وقبعة ايطالية عريضة تحليها باقة من الورود الصفراء ، فبدت لببروف اكثر شحوبا وجدية من المألوف . ولاحظت ببروف من بعيد فى موقفه على السلم ، ولكنها لم توجه اليه ، كما كان يتوقع ، نظرة طويلة ذات مغزى . بالعكس ، لقد بدا له انها استدارت عنه عمدا . وعندما هرع اندريه ايليتش الى عربتها ليساعدها على النزول ، اسرعت نينا ، وكأنما لتفوت عليه الفرصة ، الى الهبوط بخفة من الناحية الاخرى . ووخز احساس سيئ مشؤوم قلب اندريه ايليتش ، لكنه اسرع الى تهدئة نفسه . «يا للمسكينة . . . انها تخجل من قرارها وحبها . يخيل اليها الآن ان كل انسان يستطيع بسهولة ان يقرأ فى عينيها مكنون افكارها . . . اوه ، يا للبراءة القدسية الساحرة !» .

كان اندريه ايليتش واثقا من ان نينا ستجد بنفسها الفرصة ، كما فى المرة السابقة على المحطة ، لكى تقترب منه وتتبادل معه بعض العبارات بعيدا عن الاعين . ولكنها فيما يبدو كانت مشدودة تماما الى حديث كفاشنين مع النساء فلم تبادر الى الحديث اليه . . . لم تلتفت مرة واحدة ، ولو سرا ، الى الوراء لكى ترى ببروف . وفجأة دق قلب اندريه ايليتش بقلق ووحشة . وقرر ان يقترب من اسرة زينتكو المجتمعة معا — اذ يبدو ان النساء الاخريات كن يتجنبنها — وينتهز فرصة الصخب الذى شد اهتمام الجميع ، ويسأل نينا ، ولو بالنظرات ، عن سر اعراضها عنه .

وبينما كان ينحنى لآنا افناسيفنا ويلثم يدها ، حدق فى وجهها محاولا ان يقرأ فيه ان كانت على علم بشىء ما . نعم ، كانت تعرف بكل تأكيد . . . فحاجباها الدقيقان المنثنيان عند الاطراف — علامة الشخصية الكاذبة كما كان ببروف يعتقد كثيرا — ارتفعا بضيق ، وارتسم على شفتيها تعبير متكبر . يبدو ان نينا اخبرت

امها بما حدث ونالت منها توبيخا . . . هكذا ظن ببروف وهو يقترب من نينا .

ولكن نينا لم تعره حتى التفاتة . وعندما تصافحا استقرت يدها فى راحته المرتعشة باردة خامدة . وبدلا من ان ترد على تحيته ادارت رأسها فورا الى بيتا وتبادلت معها عدة تعليقات تافهة . . وبدا لببروف فى هذه المناورة ثمة شيء مذنب ، شيء جبان يتهرب من الاجابة الصريحة . . . واحس بساقيه تخوران وببرودة فى حلقه . . . وتنازعته الظنون . . . لو ان نينا قد باحت لامها بالسر ، افلم يكن بوسعها ان تقول له بنظرة من تلك النظرات السريعة الناطقة التى تلجأ اليها النساء بشكل غريزى دائما : «نعم ، انت مصيب فى تخمينك . . . حديثنا قد عرف ، ولكنى ما زلت على عهدى يا حبيبى ، فلا تقلق» . لكنها فضلت ان تدير له ظهرها . وقال ببروف لنفسه وهو يشعر بوحشة غامضة ترقبا لشيء فظيع دنئ : «سيان ، فسوف انتظر ردها اثناء النزهة . سيكون عليها ان تجيب باى حال من الاحوال» .

١٠

خرجت الجماعة من العربات عند الكيلومتر ٣٠٣ ومضت صفا طويلا مزركشا مارة بجوار كشك الحارس فى درب ضيق منحدر نحو وادى الجنون . . . ومن البعد هبت على الوجوه المتضرجة رطوبة الغابة الخريفية المنعشة . . . ومضى الدرب يزداد انحدارا ليختفى فى احراش البندق والعلندا الكثيفة التى التفت اغصانها فوقه على شكل قوس متصل مظلم . وتحت الاقدام خشخشت الاوراق المصفرة الجافة . وتوهج الافق بحمرة الغسق عبر اشجار الغيضة الملتفة .

وانتهى الحرش . وانبثقت امام اعين الضيوف فجأة فسحة مستديرة ممهدة ومفروشة بالرمل الناعم تحيط بها الغابة . وفى احد اطرافها انتصب جناح ثمانى الاضلاع ، مزدان كله بالاعلام والاغصان الخضراء ، وفى الطرف الآخر منصة مغطاة لفرقة الموسيقى . وما ان ظهرت الازواج الاولى من الغيضة حتى دوى الاوركسترا العسكرى من المنصة بمعزوفة مارش عسكرى مرح . وانداحت

النغمات النحاسية الراقصة الجميلة فى الغابة منعكسة على الاشجار برنين لتتجمع فى مكان بعيد مؤلفة اوركسترا آخر كان يسبق الاوركسترا الاول تارة ، ويتخلف عنه تارة اخرى . وفى الجناح الثمانى الاضلاع كان الخدم يروحون ويجيئون بجلبة حول الموائد المرتبة على شكل مستطيل بثلاثة اضلاع والمغطاة بالمفارش البيضاء الجديدة . . .

وما ان انتهى الموسيقيون من عزف المارش حتى دوت اكف المدعوين جميعا بالتصفيق . لقد كانوا مبهورين بالفعل ، لان هذه الفسحة لم تكن منذ اسبوعين فقط أكثر من تل صغير مغطى بالحرش . . .

وعزف الاوركسترا رقصة فالس .

ورأى بيروف سفيجيفسكى الواقف بقرب نينا يمسك بخصرها على الفور ودون دعوة ، ثم انطلقا يدوران بسرعة فى الفسحة .

وما ان ترك سفيجيفسكى نينا حتى هرول نحوها احد طلبة التعدين ثم شخص آخر . لم يكن بيروف يجيد الرقص ، بل لم يكن يحبه . ومع ذلك فقد خطر له ان يدعو نينا الى

رقصة «الكادريل» ، وقال فى نفسه : «ربما استطعت ان اقتنص لحظة للتفاهم» . واقترب منها بعد ان انتهت لتوها من دورتين ، وقد جلست وهى تخفق بالمروحة بسرعة على وجهها المتقد .

ـــ آمل يا نينا جريجوروفنا ان تكونى قد ابقيت لى رقصة كادريل ؟

فقالت دون ان تنظر اليه :

ـــ اوه ، يا الهى . . . يا للاسف ! جميع رقصات الكادريل حجزت .

فسأل بيروف بصوت اصم :

ـــ حقا ؟ بهذه السرعة ؟

فرفعت نينا كتفيها بضيق وتهكم وقالت :

ـــ طبعا . . لماذا تأخرت ؟ لقد وعدت بجميع رقصات الكادريل ونحن بعد فى القطار .

فقال بيروف بأسى :

ـــ اذن فقد نسيتنى تماما !

واثرت رنة صوته فى نينا ، فطوت المروحة ثم نشرتها بعصبية ، وقالت دون ان ترفع عينيها اليه :

— انت المخطئ . . لماذا لم تجئ
الىّ ؟

— ولكنى لم آت الى هذه النزهة الا لاراك . . . أحقا كنت تسخرين منى يا نينا جريجورفنا ؟

ولزمت الصمت وهى تعبث بالمروحة فى حرج . وانقذها مهندس هرول نحوها يدعوها ، فنهضت على عجل ، حتى دون ان تلتفت الى ببروف ، ووضعت يدها النحيلة التى كانت فى قفاز ابيض طويل على كتف المهندس . وتابعها ببروف بعينيه . . . ودارت دورة ثم جلست عند الطرف الآخر من الفسحة عن عمد ، كما ظن ببروف . لقد كانت تخشاه تقريبا ، او تحس بالخجل منه .

وتملكه ذلك الاسى المكتوم اللامبالى المألوف منذ زمن بعيد . واخذت جميع الوجوه تبدو له وضيعة ، بائسة ، هزلية تقريبا . وترددت انغام الموسيقى المنتظمة فى رأسه ضربات صماء مستمرة ، مسببة له الما مضنيا . ولكنه لم يفقد الامل بعد ، وحاول ان يعزى نفسه بمختلف

الظنون : «ربما كانت غاضبة لعدم ارسالى باقة زهر لها ؟ او ربما لا تريد ببساطة ان تراقص زكيبة مثلى ؟ — ومال الى هذا الظن فقال — حسنا ، يبدو انها على حق . . فمثل هذه الامور التافهة تعنى الكثير للفتيات . . اليست هذه الاشياء هى التى تؤلف افراحهن واحزانهن ، وكل رومانسية حياتهن ؟» .

وعندما هبط الظلام اضيئت حول الجناح سلاسل طويلة من المصابيح الصينية الملونة . ولكن نورها لم يكن كافيا فظلت الفسحة شبه مظلمة . وفجأة توهجت من طرفيها شمسان كهربيتان كانتا الى الآن مموهتان بعناية فى خضرة الاشجار ، وتدفق منهما ضوء صاعق مائل الى الزرقة . وعلى الفور برزت الى الامام اشجار البتولا والزان المحيطة بالفسحة . واصبحت اغصانها الساكنة الملتفة والمضاءة بقوة وبشكل غير طبيعى تشبه الديكورات فى مقدمة المسرح . ومن خلفها ، وعلى صفحة السماء السوداء تماما ، لاحت اشجار الغيضة المستديرة المسننة شاحبة وملتفة بالظلام الرمادى الضارب الى الخضرة . وفى السهوب

صرّت الجنادب بصورة غريبة ، جماعية وعالية ، دون ان تطغى الموسيقى على صريرها ، حتى بدا وكأن السهوب تردد صرير جندب واحد ، ولكنه يأتى من جميع الانحاء ، من اليمين ، واليسار ، والاعلى .

واستمرت الحفلة الراقصة وازدادت حيوية وصخبا . كانت الرقصة تتلو الاخرى . ولم يسترح العازفون تقريبا . . . وثملت النساء من الموسيقى ومن جو الحفلة الاسطورى وكأنهن ثملن من الخمر

واختلط عبير عطرهن واجسادهن الساخنة بأريج الشيح البرى والاوراق الذابلة ورطوبة الغابة فى مزيج غريب مع رائحة العشب المخصود البعيدة المرهفة . وخفقت المراوح اليدوية فى كل مكان تارة ببطء ، وتارة اخرى بسرعة ، وكأنها اجنحة عصافير جميلة ملونة توشك على الانطلاق . . . اتحدت الاصوات المرتفعة والضحكات وخفيف الاقدام على رمل الفسحة فى لغط رتيب ومرح برز فجأة عندما صمتت الموسيقى .

كان بيروف يراقب نينا طوال الوقت . وكاد فستانها يلمسه مرتين . بل لقد هبت عليه

دفقة من الهواء عندما اندفعت بجواره محلقة . كانت وهى ترقص تثنى ذراعها اليسرى بجمال وكأنما بضعف فوق كتف مراقصها ، وتحنى رأسها كأنها تريد ان تضعه على هذه الكتف . . . واحيانا كان يلوح طرف جونلتها الداخلية الدنتللا البيضاء مرفوعا بحركة سريعة ، وكذلك ساقها الصغيرة داخل الجورب الاسود ، برسغها الدقيق وسمانتها البارزة . وعند ذاك كان بيروف يشعر بالخجل لسبب لا يدريه ، ويحس فى قلبه بالغضب على كل من رأى نينا فى تلك اللحظات .

وبدأت رقصة المازوركا . كانت الساعة حوالى التاسعة . واستغلت نينا التى كانت تراقص سفيجيفسكى فرصة انشغاله بقيادة المازوركا وقيامه بحركة ما معقدة وهرولت الى التواليت وهى تنساب بسرعة وخفة مع ايقاع الموسيقى وممسكة بيديها شعرها المنسدل . ورأى بيروف ذلك من الطرف الآخر للفسحة فاسرع فى اثرها فورا ووقف بجوار الباب . . كان المكان هنا شبه مظلم ، فقد كانت غرفة التواليت الصغيرة المبنية بالالواح الخشبية خلف الجناح ، محاطة بالخضرة الكثيفة . وقرر

ببروف ان ينتظر نينا ويجبرها مهما كان على ايضاح الامر . كان قلبه يدق بسرعة والم . واصبحت اصابعه التى كان يعصرها بعصبية باردة مبللة بالعرق .

وخرجت نينا بعد خمس دقائق . وبرز ببروف من الظلام وسد عليها الطريق ، فندت عنها صيحة واهية ، وارتدت مذعورة .

وقال لها ببروف وهو يضم يديه فى حركة ضارعة دون ان يعى ذلك :

— نينا جريجورفنا ، لماذا تعذبيننى هكذا ؟ الا ترين كيف اتألم . اوه ، انك تتلهين بحزنى ... انك تسخرين منى .

فأجابت نينا بعناد وتكبر :

— انا لا افهم ماذا تريد . اننى لم افكر فى السخرية منك .

لقد استيقظت فيها روح اسرتها .

فسأل ببروف بكآبة :

— كلا ؟ وماذا تعنى اذن معاملتك لى اليوم ؟

— اية معاملة ؟

— تعاملیننی ببرود ، بل وبشبه عداء ، تتجنبيننى . . . ومجرد وجودى فى الحفل يثير ضيقك . . .

— لا يهمنى على الاطلاق . . .

— هذا اسوأ . . . اننى احس فيك بتغير فظيع نحوى لا استطيع ادراكه . . . ولكن ارجوك يا نينا ، كونى صريحة ، كونى صادقة كما كنت اعتبرك حتى اليوم . . . قولى الحقيقة مهما كانت رهيبة . فمن الافضل لك ولى ان ننهى على الفور . . .

— ماذا ننهى ؟ اننى لا افهمك . . .

وضغط ببروف بيديه على صدغيه اللذين كان الدم ينبض فيهما بعنف . وقال :

— كلا ، انت تفهمين . لا تتظاهرى . . . لدينا ما ننهيه . لقد كانت لدينا كلمات رقيقة ، تكاد تكون اعترافا بالحب ، وكانت لدينا لحظات رائعة ، نسجت بيننا اواصر رقيقة ناعمة . . . انا اعرف . . تريدين ان تقولى اننى كنت فى ضلال . . ربما ، ربما . . ولكن ، ألست انت التى طلبت منى ان احضر النزهة ، لكى تكون لدينا

فرصة للحديث بعيدا عن الاعين ؟

وفجأة احست نينا بالعطف عليه . فتمتمت وهى تخفض رأسها بشدة :

— نعم . . . لقد طلبت منك ان تحضر . . اردت ان اقول لك . . اردت ان . . . علينا ان نفترق الى الابد .

وترنح ببروف وكأنما دفعه احد فى صدره . وحتى فى الظلمة ظهر شحوب وجهه . وقال وهو يختنق :

— نفترق . . . نينا جريجورفنا ! الفراق كلمة صعبة ، كلمة مرة . . لا تقوليها . . .

— يجب علىّ ان اقولها .

— يجب عليك ؟

— نعم . ليست هذه مشيئتى .

— مشيئة من اذن ؟

اقترب منهما شخص ما . وحدقت نينا فى الظلام وهمست :

— مشيئة هذه .

كانت تلك آنا افناسيفنا . نظرت الى ببروف ونينا بريبة ، واخذت ابنتها من ذراعها . وقالت

بنبرة توبيخ :

— لماذا هربت من الرقص يا نينا ؟ وتقفين فى الظلام تثرثرين . . . ياله من عمل طيب . . . وانا ابحث عنك فى كل ركن — وفجأة خاطبت ببروف بصوت سوقى عال — وانت يا سيدى ، اذا كنت لا تجيد الرقص او تحبه ، فدع الآنسات فى حالهن على الاقل ، ولا تسىء اليهن باحاديثك tête-a-tête * . . فى الزوايا المظلمة . . .

وانصرفت وهى تسحب نينا وراءها .

— اوه ! لا تقلقى يا سيدتى . . آنستك لا يسىء اليها شىء ! . . .

صاح ببروف فى اثرها ، وانفجر فجأة فى ضحك مرير غريب مما جعل الام وابنتها يلتفتان اليه لا اراديا .

وشدت آنا افناسيفنا نينا من ذراعها وهى تقول :

— حسنا ! ألم اقل لك انه احمق

---

* على انفراد (بالفرنسية) — المترجم .

ووقح ؟.. لو بصقت فى عينيه فسيظل يضحك .. يعزى نفسه . . . — ثم اضافت بصوت آخر اكثر هدوءا — ستقوم السيدات الآن بدعوة الرجال الى الرقص . اذهبى وادعى كفاشنين . لقد انتهى من اللعب لتوه . انظرى ، ها هو عند باب العريشة .

— ماما ! اى علاقة له بالرقص ؟ انه لا يستدير الا بصعوبة .

— قلت لك ادعيه . لقد كان فى وقت ما احسن راقص فى موسكو .. على اى حال ستسره الدعوة .

وكأنما عبر ضباب رمادى متموج بعيد رأى بيروف نينا وهى تعبر الفسحة ركضا ، وتقف امام كفاشنين بدلال باسمة ، خفيفة ، وقد امالت رأسها جانبا بحركة داعية رشيقة . واصغى اليها كفاشنين وهو منحن قليلا نحوها . وفجأة انفجر ضاحكا فاهتز بدنه الضخم كله ، ثم هز رأسه بالنفى . واصرت نينا طويلا ، ولكنها بعد ذلك تصنعت الغضب فجأة ، واستدارت بنزق لكى تنصرف . ولكنه لحق بها بنشاط

غير معهود فيه ابدا ، وهز منكبيه بصورة من يريد ان يقول : «وماذا تستطيع ان تفعل . . لا بد ان تدلل الاطفال . . .» ، ومد لها يده . وتوقف جميع الراقصين ، وصوبوا انظارهم الى الزوج الجديد بفضول . لقد كان منظر كفاشنين وهو يرقص المازوركا يبشر بمشهد فكاهى للغاية .

وانتظر فاسيلى تيرنتيفتش الايقاع المناسب ، ثم استدار نحو مراقصته بحركة ذات جمال ثقيل ولكنه فريد فى عظمته ، وخطا فجأة اول pas بمهارة وثقة حتى ان الجميع استشفوا فيه على الفور راقصا قديما ممتازا . وفى البداية لم يرقص ، بل سار على وقع الموسيقى بخطوات مرنة متأرجحة قليلا ، وهو ينظر الى نينا من اعلى الى اسفل ، مديرا رأسه بعزة وتحد ومرح . وبدا ان قامته الضخمة وبدانته لم تعوقاه ، بل على العكس زادتا فى هذه اللحظة من رشاقة جسده المتثاقلة . وعندما بلغ المنعطف توقف للحظة ، ودق فجأة كعبا بكعب وادار نينا فى مكانها بسرعة ، ثم اندفع محلقا فى وسط

الساحة على ساقيه السميتين المرنتين بانسياب ، وقد علت وجهه ابتسامة كبرياء . وقبل ان يبلغ المكان الذى بدأ منه الرقص ادار من جديد مراقصته بحركة سريعة جميلة ، واجلسها فجأة على المقعد ووقف امامها خافض الرأس .

وعلى الفور احاطت به النساء من جميع الجوانب وهن يرجونه ان يقوم بدورة اخرى . ولكنه اخذ وقد اعيته الحركة غير المعتادة ، يتنفس بصعوبة ويلوح بمنديله . وقال وهو يضحك ويسترد انفاسه بالكاد :

— كفى يا mesdames . . . ارأفن بحال العجوز . . لست فى سن تسمح بالرقص . فلنذهب افضل الى العشاء . . .

وجلس الجمع الى الموائد وسط جلبة المقاعد المسحوبة . . . وظل ببروف واقفا فى نفس المكان الذى تركته فيه نينا . وانتابته مشاعر الذل والاهانة والاسى واليأس العاجز بالتناوب . لم تنهمر دموعه ، لكن شيئا كاويا كان يلسع عينيه ، وامسكت بحلقه غصة جافة واخزة . . . وظلت الموسيقى تتردد فى رأسه برتابة والم .

وسمع اندريه ايليتش بجواره صوت الدكتور المرح :

— يا الهى ! اننى ابحث عنك فى كل مكان ولا اجدك . اين اختفيت ؟ ما ان وصلنا حتى اجلسونى للعب الورق . . لم اتخلص الا بالقوة . . هيا نتعشى . لقد حجزت مكانين عمدا لكى نجلس معا .

فقال ببروف بصعوبة :

— آه يا دكتور ! اذهب وحدك . انا لن اذهب . . لا اريد .

— لن تذهب ؟ اما حكاية ! — وحدق الدكتور بامعان فى وجه ببروف — ماذا حدث لك يا عزيزى ؟ لقد انهرت تماما . . . — ثم اضاف بجدية وعطف — حسنا ، كما تشاء . . ولكنى لن اتركك وحدك . . هيا ، هيا ، ودون مناقشات .

فقال ببروف بصوت خافت وهو يتبع جولدبرج آليا :

— انا تعيس يا دكتور . . اشعر بالقرف . .

— هراء ، هراء ، هيا بنا ! كن رجلا

ولا تبال . . . — وفجأة استشهد جولدبرج ببيت شعر — «أتراه القلب عليل ؟ ام ذا عذاب الضمير ؟» — واحاط خصر ببروف بيده بقوة ولطف وحدق فى وجهه برقة — سأصف لك الآن دواء جامعا . . . «هل نشرب يا فانيا لنطرد الصقيع والاسى ؟» . . فى الحقيقة لقد شربت انا واندريا هذا الكثير من الكونياك . . يا له من سكير ، ابن الفرخة هذا ! كأنما يصب فى برميل بلا قاع . . . هيا ، كن رجلا يا عزيزى . . اتدرى ، ان اندريا مهتم بك جدا . هيا بنا هيا ! . . .

وهكذا اخذ الدكتور يتحدث وهو يسحب ببروف الى الجناح . وجلسا متجاورين . وكان جار اندريه ايليتش من الناحية الاخرى اندريا . وافسح اندريا ، الذى كان يبتسم لببروف من بعيد ، مكانا له ليجلس ، وربت على ظهره برقة وقال بمودة :

— سعيد جدا ، سعيد جدا ، اجلس بجوارنا . . انت رجل لطيف . . احب امثالك . . رجل طيب . . هل تشرب الكونياك ؟

كان اندريا ثملا . ولمعت عيناه الزجاجيتان بحيوية غريبة على وجهه الشاحب (بعد نصف عام فقط اصبح معروفا ان هذا الرجل المتحفظ الدؤوب الموهوب كان يشرب وحده تماما كل مساء حتى يفقد وعيه) . . .

فكر ببروف فى سره : «ربما احسست بنفسى افضل بالفعل لو شربت ، يا للشيطان ، فلاجرب !»

كان اندريا فى انتظاره وقد امال الزجاجة ، فوضع ببروف كأسه تحت فوهتها .

وسأل اندريا بصوت ممطوط وهو يرفع حاجبيه عاليا :

— هكذا ؟

فاجاب ببروف بابتسامة وديعة وحزينة :

— هكذا .

— حسنا ، الى اى حد اصب ؟

— الكأس هى التى ستحدد .

— رائع . قد يظن المرء انك خدمت فى الاسطول السويدى . هل يكفى ؟

— صب ، صب .

— يا صديقي ، يبدو انك لم تفطن الى انه كونياك Martel ماركة VSOP . . كونياك معتق اصلي .

— صب ولا تخش شيئا . . .

وفكر ببروف بتشف : «حسنا فلاتمل كالاسكافي . . . دعها تتفرج ! . . .» .

كانت الكأس ملأى . ووضع اندريا الزجاجة على المائدة واخذ يتأمل جاره بفضول . وشرب ببروف الكونياك دفعة واحدة وارتجف بدنه كله لعدم تعوده الشراب .

وسأل اندريا وهو يتطلع فى عينى ببروف بجدية :

— ماذا يا بنى ، هناك ما يعذبك ؟

فأومأ ببروف برأسه بكآبة وقال :

— نعم .

— فى القلب ؟

— نعم .

— ام ! اذن تريد كأسا اخرى ؟

فقال ببروف باذعان واسى :

— صب .

واخذ يعب الكونياك بشراهة وتقزز ، محاولا ان يغيب عن وعيه . ولكن الغريب فى الامر ان الخمر لم تؤثر فيه . . بالعكس ، لقد ازداد تعاسة ، ولسعت الدموع عينيه باقوى مما كان .

وفى تلك الاثناء وزع الخدم الشمبانيا ، ونهض كفاشنين من مقعده وهو يمسك كأسه باصبعين ويتطلع من خلالها الى نور شمعدان عال . وسكن الجميع ، ولم يعد يسمع سوى ازيز الفحم فى المصابيح الكهربائية وصرير رنان لجندب لا يكل .

وسعل كفاشنين ثم قال :

— سيداتى المحترمات ، سادتى المحترمون — ووقف وقفة موحية ثم مضى يقول — لا اعتقد ان احدا منكم يراوده شك فى الاحساس الحقيقى بالعرفان الذى اشعر به وانا ارفع هذه الكأس ! اننى لن انسى ابدا تلك الحفاوة التى قوبلت بها فى ايفانكوفو . اما نزهة اليوم الصغيرة فستبقى بالنسبة لى دائما ذكرى من اطيب الذكريات بفضل الكرم الرائع من قبل السيدات اللائى حضرنها . اننى اشرب فى صحتكن يا mesdames !

ورفع كأسه ورسم به فى الهواء نصف دائرة ، واحتسى منه قليلا ثم مضى يقول :

— اليكم يا اقرب العاملين معى والاصدقاء اوجه هذه الكلمة . ولا تعتبوا علىّ اذا ما كان طابعها النصح ، فانا عجوز بالمقارنة مع معظم الحاضرين ، ومن الممكن الا يغضب المرء من رجل عجوز اذا نصحه .

وانحنى اندريا على اذن ببروف وهمس :

— انظر الى سحنة هذا الوغد سفيجيفسكى .

وبالفعل كان وجه سفيجيفسكى يطفح بالممالأة والاهتمام المبالغ . وعندما اشار كفاشنين الى كبره ، اخذ سفيجيفسكى يعبر بحركات رأسه ويديه عن الاحتجاج .

ومضى كفاشنين يقول :

— دعونى مع ذلك اردد تعبير افتتاحيات الصحف القديم المكرور : فلترفعوا رايتنا عاليا . لا تنسوا اننا ملح الارض ، وان المستقبل ملك لنا . . . ألسنا نحن الذين لففنا الكرة الارضية بشبكة من السكك الحديدية ؟ ألسنا نحن الذين نشق اعماق الارض ونحول كنوزها الى مدافع وجسور

وقاطرات وقضبان وآلات هائلة ؟ ألسنا نحن الذين ننفخ من روح عبقريتنا فى مشاريع لا يمكن تصورها ، فتدب الحركة فى رؤوس اموال بآلاف الملايين ؟ . . . فلتعلموا ايها السادة ان الطبيعة الحكيمة تنفق قواها المبدعة فى صنع امة بكاملها ، وذلك فقط لكى تصنع منها عشرين او ثلاثين من المختارين . فلتتسلحوا اذن يا سادة بالجرأة والقوة على ان تصبحوا هؤلاء المختارين ! هورا !

وصاح الضيوف : هورا ! هورا ! . .

وكان صوت سفيجيفسكى اعلاهم .

ونهض الجميع من مقاعدهم واتجهوا الى فاسيلى تيرنتيفتش ليقرعوا كؤوسهم بكأسه .

وقال الدكتور فى شبه همس :

— كلمة مقززة .

ومن بعد كفاشنين وقف شيلكوفنيكوف وصاح :

— ايها السادة ، فى صحة رئيسنا المحترم ، معلمنا العزيز ومضيفنا الكريم اليوم ، فى صحة فاسيلى تيرنتيفتش كفاشنين ! هورا !

فصاح جميع الضيوف فى صوت واحد :

— هورا !

ومضوا نحو كفاشنين مرة اخرى ليقرعوا كؤوسهم بكأسه .

ثم بدأتْ بعد ذلك معمعة من الفصاحة والبلاغة . فرفعت الكؤوس نخب نجاح المشروع ، ونخب المساهمين الغائبين ، ونخب السيدات الحاضرات هذه النزهة ، ونخب جميع النساء عامة . وكان بعض الانخاب يحتمل التأويل ويخدش الحياء . وظهر مفعول الشمبانيا التى كانت تجرى انهارا ، فقد كان الجناح يمور بالطنين ، وكان صاحب النخب يضطر قبل ان يبدأ الكلام الى الدق بالسكين على الكأس طويلا وبلا فائدة . وعلى طاولة صغيرة منعزلة فى احد الاركان كان ميللر الجميل يعد كوكتيل شراب «الحراق» فى كوب فضى كبير . . . وفجأة نهض كفاشنين ، وقد تراقصت على وجهه ابتسامة بشوش ماكرة . وقال بمجاملة باهرة :

— انه ليسعدنى جدا ايها السادة ان يتفق عيدنا مع مناسبة ذات طابع عائلى . . . فلنهنئ من كل قلوبنا العريس والـعـروس

باعلان خطبتهما ، ولنتمن لهما السعادة . فى صحة نينا جريجورفنا زيننكو و . . . . — وتلعثم كفاشنين لانه نسى اسم سفيجيفسكى — ورفيقنا السيد سفيجيفسكى . . .

كان الصياح الذى قوبلت به كلمات كفاشنين اعلى من السابق لان النبأ كان غير متوقع تماما .

وسمع اندريا بجواره صيحة بدت اقرب الى انة عذاب ، فالتفت ورأى وجه ببروف الشاحب طافحا بمعاناة داخلية اليمة .

فهمس اندريا :

— يا صديقى انت لم تعرف بعد كل شىء . اسمع الآن هاتين الكلمتين الحارتين اللتين سأقولهما .

ونهض بثقة ، واسقط اثناء ذلك كرسيه وسكب نصف كأسه ، وهتف :

— السادة المحترمون ! ان رئيسنا المبجل ، لم يكمل نخبه بسبب من تواضعه السمح المفهوم جيدا . . . فعلينا ان نهنئ رفيقنا العزيز ستانسلاف كسافيريفتش سفيجيفسكى بمنصبه الجديد . فمن الشهر القادم سيشغل منصبا مسئولا ، منصب

مدير اعمال مجلس ادارة الشركة . . . وسيكون هذا التعيين بمثابة هدية زواج للعروسين من فاسيلى تيرنتيفتش المبجل . . اننى ارى علامات عدم الرضا على وجه رئيسنا الموقر . . . ربما اكون قد كشفت عفوا عن مفاجأة اعدها ، ولذلك ارجو المعذرة . ولكنى ، مدفوعا بمشاعر الصداقة والاحترام ، لا استطيع الا ان اتمنى لرفيقنا العزيز ستانسلاف كسافيريفتش سفيجيفسكى فى منصبه الجديد فى بطرسبرج ان يظل موظفا نشيطا ، ورفيقا محبوبا كما كان هنا . . . ولكنى اعرف ايها السادة ان احدا منا لن يحسد ستانسلاف كسافيريفتش (وتوقف ثم نظر الى سفيجيفسكى بابتسامة تهكم لاذع) . . . ولهذا فنحن جميعا نتمنى له كل توفيق لان . . .

وقطع حديثه فجأة وقع حوافر حصان مرتفع . واندفع من الغيضة كأنما من تحت الماء رجل يمتطى صهوة جواد عرقان ، حاسر الرأس ، بوجه شوهه تعبير رعب جامد . كان ذاك ملاحظا عند المقاول ديختريوف . واندفع فى وسط الفسحة تاركا الحصان المرتعد من الارهاق ، واقترب

راكضا من فاسيلى تيرنتيفتش ومال على اذنه دون كلفة واخذ يهمس فيها بشىء ما . . . وفجأة ساد الجناح سكون مرعب ، ولم يعد مسموعا كما فى السابق سوى ازيز الفحم وصياح الجندب اللحوح .

وشحب وجه كفاشنين الذى ضرجته الخمر . ووضع كأسه الذى كان فى يده على الطاولة بعصبية ، فانسكبت الخمر منه على المفرش . وسأل لاهثا وبصوت مبحوح :

— والبلجيكيون ؟

فهز الملاحظ رأسه نفيا ، وعاد يهمس فى اذن كفاشنين .

وفجأة صاح كفاشنين وهو ينهض من مكانه وبكور الفوطة فى يديه :

— يا للشيطان ! أكان لا بد ان . . . انتظر . . ستحمل الآن الى المحطة برقية الى المحافظ . . — والتفت الى الحاضرين وقال بصوت عال منفعل — ايها السادة ، هناك اضطرابات فى المصنع . . يجب اتخاذ اجراءات . . و . و . . ويبدو انه من الافضل

لنا ان نرحل من هنا فورا . . .

وقال اندريا بازدراء وبتشف هادئ :

— هذا ما كنت اتوقعه .

وفى الوقت الذى ساد فيه الهرج بين الجميع ، اخرج من جيبه ببطء سيجارا جديدا ، وبحث هناك عن الكبريت وصب فى كأسه كونياكا .

١١

دب اضطراب مجنون اهوج . نهض الجميع من اماكنهم وهرولوا فى الجناح وهم يتزاحمون ويصرخون ويتعثرون فى الكراسى الملقاة على الارض . واسرعت السيدات يلبسن قبعاتهن بأيد مرتعشة . وعلاوة على ذلك فقد امر شخص ما باطفاء المصابيح الكهربائية فزاد هذا من الفـوضى العامة . . وترددت فى الظلام صرخات هستيرية نسائية .

كانت الساعة حوالى الخامسة صباحا . ولم تشرق الشمس بعد ، ولكن الضوء ظهر

بوضوح فى صفحة السماء الواعدة برماديتها الرتيبة بداية صباح مكفهر . واضفى ضوء الفجر الشاحب الكابى الرتيب الذى حل فجأة محل النور الكهربائى الساطع ، طابعا رهيبا مقبضا شبه اسطورى على صورة الفوضى العامة . وبدا الاشخاص كأشباح جاءت من حكاية خيالية وليدة الهذيان . وكانت الوجوه المضطربة الذابلة بعد ليلة من السهاد شوهاء ومرعبة . ولاحت مائدة الغداء الغارقة فى الخمر والغاصة بالآوانى المكدسة كذكرى لوليمة خرافية قطعت فجأة .

وكانت البلبلة بجوار العربات افظع . . . فقد كانت الجياد الجافلة تحمحم وتشب على قوائمها الخلفية ولا تدع الحوذية يلجمونها . . وتشابكت العجلات مع بعضها ، وتردد صرير المحاور المتكسرة . . وصاح المهندسون منادين حوذيتهم الذين كانوا يتبادلون السباب بغّل . وعموما فقد كانت صورة للفوضى الصاخبة التى لا تحدث الا اثناء الحرائق الليلية الكبيرة . ويبدو ان ثمة شخصا ما داسته العجلات او هرسته ، فقد ارتفع العويل .

لم يستطع ببروف ان يعثر ابدا على متروفان . وخيل اليه مرتين او ثلاث ان حوذيه يرد على ندائه من قلب العربات المتشابكة . لكنه لم يكن قادرا رغم كل جهوده على الوصول الى هناك ، لان الازدحام كان يزداد من دقيقة الى اخرى .

وفجأة اندلع فى الظلام مشعل كيروسينى ضخم عاليا فوق الرؤوس بلهب احمر . وترددت صيحات : «افسح ، افسح ، افسحوا الطريق يا سادة ! . . .» . وحملت موجة بشرية مندفعة تحت ضغط شديد اندريه ايليتش وساقته معها وكادت تطرحه ارضا . وحشرته بشدة بين مؤخرة احدى العربات ومقدمة اخرى . ومن ذلك المكان رأى ببروف كيف انشق درب واسع بين العربات بسرعة ، وفيه انطلق كفاشنين بعربته ذات الجياد الرمادية الثلاثة . وكان المشعل المتذبذب فوق العربة يسكب على جسد كفاشنين الضخم ضوءا مرتعشا شريرا كأنه الدماء .

ومن حول عربته صاح الجمع المجنون من الألم والرعب والغضب ، وقد حوصر من

جميع الاركان . . . وطق شيء ما فى صدغى ببروف . وخيل اليه للحظة ان هذا الراكب ليس كفاشنين ، بل اله ما ملطخ بالدم ، مشوه ومرعب ، يشبه صنما من اصنام الطقوس الشرقية التى يرتمى المتعصبون السكارى بنشوة الهياج تحت عجلات عرباتها اثناء المواكب الدينية . وارتجف بدن ببروف من السعار العاجز .

وما ان مر كفاشنين حتى خف الزحام قليلا ، والتفت ببروف الى الخلف فرأى ان قضيب العربة الذى كان يضغط على ظهره هو لعربته . وكان متروفان واقفا بجوار مقعد السائق يوقد المشعل .

فصاح اندريه ايليتش وهو يركب العربة :

— متروفان ، اسرع الى المصنع ! اوصلنى فى عشر دقائق ، أتسمع !

فأجاب متروفان عابسا :

— حاضر .

ودار حول العربة ليصعد الى مقعده من اليمين كما ينبغى لاى حوذى جيد ، وامسك باللجام وقال وهو يستدير قليلا الى الخلف :

— لكن اذا اهلكنا الخيل يا سيدى فلا تغضب !

— آه ، سيان . . .

وبعد ان خرج متروفان بحذر وبمجهود ضخم من هذه الكتلة المتشابكة من الخيول والعربات وبلغ الدرب الضيق فى الغابة ، ترك العنان للخيول . وانطلقت الخيول الهائجة التى طالت وقفتها فى ركض مجنون . وكانت العربة تقفز عندما تدوس على جذور الاشجار الطويلة المارة عبر الدرب ، وتنحدر فى المنخفضات ، وتميل بشدة تارة الى هذا الجانب وتارة الى ذاك فيجهد السائق والراكب فى حفظ توازنهما .

وتطاير لهب المشعل الاحمر الى جميع الجوانب وهو يهدر بصخب ومعه تطايرت حول العربة ظلال الاشجار الطويلة الغريبة . . فبدا وكأن حشدا من الاشباح الطويلة النحيلة الغبشية ركضت حول العربة فى رقصة محمومة . وكانت الاشباح تسبق الخيول احيانا فتتطاول الى ابعاد عملاقة ، واحيانا تسقط فجأة على الارض وتنكمش بسرعة ، وتختفى خلف ظهر ببروف ،

او تندفع الى الغيضة لبضع ثوان ثم تظهر بغتة بجوار العربة مباشرة ، واحيانا كانت تتحرك صفوفا متراصة وهى تهتز وتتمايل ، وكأنها تتهامس بشىء ما فيما بينها . . . وفى عدة مرات ضربت غصون الحرش الكثيف المحيط بالدرب وجهى متروفان وببروف وكأنها ايدى اشخاص ما نحيلة ، قوية ، ممدودة الى الامام .

وانتهت الغابة . وطرطشت اقدام الخيول فى بركة ما وانعكس لهب المشعل اللامع متراقصا على مائها ، وفجأة وصلت الخيول الرامحة الى تل شديد الانحدار . وفى الامام امتد حقل اسود رتيب .

— اسرع يا متروفان . . . لن نصل أبداً !

صاح ببروف وقد نفد صبره ، رغم ان العربة كانت منطلقة بسرعة تبهر الانفاس .

وغمغم متروفان بصوت غليظ غاضب وانحنى كالحلقة فوق شدة العربة وضرب بالسوط فرفاتر الراكض . كان الحوذى لا يستطيع ان يدرك ماذا حدث لسيده ، الذى كان دائما يحب خيوله ويعطف عليها .

وفي الافق لاح لهب ضخم وهو ينعكس السنة خفاقة على السحب الزاحفة في صفحة السماء . وحدق ببروف في السماء المضرجة . وفي سريرته تحرك شعور بالشماتة الظافرة الخبيثة . لقد فتح النخب الجريء القاسي الذي رفعه اندريا عيني ببروف على كل شيء دفعة واحدة : على تحفظ نينا البارد طوال مساء اليوم ، وعلى غضب امها اثناء رقصة المازوركا ، وعلى تقرب سفيجيفسكي الى كفاشنين ، وعلى كل الشائعات والاقاويل التي ترددت في المصنع عن مغازلة كفاشنين نفسه لنينا . . . وهمس ببروف لنفسه وهو يشعر بدفعة حقد شديد واحساس عميق بالمرارة حتى ان حلقه جف : «هذا ما يستحقه ، هذا ما يستحقه . . . ذلك الوحش الاحمر . . . آه ، لو التقيت به الآن وجها لوجه لازعجت طمأنينته المغرورة ، مشترى اللحم الطازج هذا ، ذلك الجوال القذر الدهني ، المحشو بالذهب . . . ولتركت اثرا طيبا على جبهته النحاسية ! . .»

لم يسكر ببروف من كمية الخمر الكبيرة التي شربها اليوم ، لكن تأثيرها ظهر في شحنة

الطاقة غير العادية التي تقمصته ، وفي التحرق العجول والمريض الى الحركة . . . وتملكته قشعريرة عنيفة ، واصطكت اسنانه بشدة حتى اضطر الى اطباق فكيه بقوة ، وعمل ذهنه بسرعة واتقاد واضطراب كما في حالة الحمى . واخذ اندريه ايليتش دون وعي يكلم نفسه بصوت مسموع تارة ، وتارة يتأوه وتارة اخرى يقهقه بضحكات عالية متقطعة ، بينما كانت اصابعه تنقبض لا اراديا وبشدة .

وقال متروفان بتهيب :

— يبدو انك مريض يا سيدي ؟ الافضل ان تذهب الى البيت .

وفجأة اثارت هذه الكلمات جنون ببروف فصاح بصوت مبحوح :

— اخرس يا غبي . . . اسرع ! . .

وسرعان ما ظهر من فوق التل المصنع كله مغطى بدخان ابيض وردي . ومن خلفه اشتعل مخزن الاخشاب بلهب عملاق . وظهر على خلفية اللهب الساطعة عدد كبير من الاشخاص الصغار السود المهرولين هنا وهناك . ومن بعيد

سمعت طقطقة الخشب الجاف المحترق . وكانت ابراج كاوبر وافران الصهر المستديرة تبرز من الظلام واضحة محددة المعالم تارة ، وتارة اخرى تغوص فيه تماما . وانعكس لهب الحريق الاحمر بريقا ساطعا منذرا على صفحة البركة الكبيرة المربعة . وكان السد العالى المقام على البركة مغطى كله دون ثغرات بكتلة بشرية سوداء ضخمة : راحت تتقدم ببطء الى الامام وبدت وكأنها تمور . وانبعث من هذه الكتلة البشرية الكثيفة المرعبة ، المضغوطة فى مساحة ضيقة ، هدير غير مألوف ، غامض ومنذر ، يشبه هدير بحر بعيد .

وسمع ببروف صيحة خشنة فى الامام :

— الى اين تمضى ايها الشيطان ! الا ترى انك تدوس الناس ايها الوغد ! . .

وفجأة ظهر على الطريق امام العربة فلاح ذو لحية ، حاسر الرأس ، معصوب بخرق بيضاء ، وكأن الارض انشقت عنه .

وصاح ببروف :

— اسرع يا متروفان !

وسمع صوت متروفان المرتعش :

— يا سيدى ! احرقوا المصنع !

ولكنه سمع على الفور صفير حجر القى من الخلف ، وشعر بألم الضربة اعلى صدغه الايمن بقليل . ورفع يده الى مكان الضربة فتلوثت بدم دافئ لزج .

وانطلقت العربة تركض بسرعتها السابقة . واصبح اللهب اشد . واخذت ظلال الخيول الطويلة تقطع الطريق من جانب الى آخر . وكان يخيل لببروف فى بعض اللحظات انه ينطلق على غير هدى فوق سفح شديد الانحدار ، وانه سيهوى الآن مع العربة فى هوة عميقة . وفقد تماما القدرة على الادراك ، ولم يستطع أبداً ان يعرف المكان الذى كانوا يقطعونه .

وفجأة توقفت الخيول .

وصاح ببروف بضيق :

— لماذا وقفت يا متروفان ؟

فأجاب متروفان بغل مكفهر رن فى صوته :

— والى اين اذهب اذا كان امامى ناس ؟

وحدق ببروف طويلا فى غبش الفجر الرمادى ،

بيد انه لم ير سوى جدار اسود غير مستو ، ومن فوقه اشتعلت السماء .

فزمجر وهو يهبط من العربة ويتجاوز الخيول المغطاة بندف من الزبد الابيض :

— اى اناس تراهم بحق الشيطان !

ولكن ما ان خطا بضع خطوات حتى تأكد من ان الشيء الذى كان يعتبره جدارا اسود ، هو فى الواقع كتلة طويلة مرصوصة من العمال الذين سدوا الطريق واخذوا يتقدمون الى الامام ببطء وفى صمت . وبعد ان سار اندريه ايليتش وراء العمال لا اراديا حوالى خمسين خطوة عاد ثانية لكى يجد متروفان ويدور بالعربة حول المصنع من الناحية الاخرى . لكنه لم يجد متروفان ولا الخيول على الطريق . ولم يكن بيروف قادرا على ادراك ما اذا كان متروفان قد ذهب الى الناحية الاخرى ليبحث عن سيده ، ام انه هو الذى ضل الطريق . واخذ يصيح الحوذى ، فلم يرد عليه احد . وعندئذ قرر بيروف ان يلحق بالعمال الذين تركهم منذ قليل ، فاستدار مرة اخرى وركض فى الاتجاه السابق

كما خيل اليه . ولكن العمال ، ويا للغرابة ، اختفوا وكأنما ابتلعتهم الارض ، وبدلا منهم اصطدم بيروف وهو يركض بسور خشبى غير عال .

ولم يكن لهذا السور نهاية من اليمين او اليسار ، فتسلقه بيروف واخذ يصعد سفحا طويلا منحدرا مغطى بالاحراش الكثيفة . وسال العرق البارد على ظهره بينما جف لسانه والتصق بحلقه كقطعة من الخشب ، واحس فى صدره بالم حاد مع كل زفرة ، وصعد الدم الى رأسه بنبضات قوية سريعة ، وكان صدغه المصاب يؤلمه بشكل لا يطاق . . .

وخيل اليه ان الصعود لا نهاية له ، فاستولى على نفسه يأس بليد . ولكنه مضى يصعد ، وهو يسقط كل لحظة فيخدش ركبه ويتشبث بالاحراش الشائكة . وكان يتراءى له احيانا انه نائم ويرى حلما من احلامه المحمومة الممضة . وكان الاضطراب المذعور بعد النزهة ، والتخبط الطويل فى الطريق ، والصعود اللانهائى على السفح . . كان كل ذلك مرهقا ، واحمق

ومفاجئا وفظيعا مثل تلك الكوابيس .

واخيرا انتهى المنحدر فأدرك ببروف على الفور انه كان الجسر الترابى للسكة الحديدية . من هذا المكان التقط المصور امس ، اثناء الصلاة ، صورة لمجموعة المهندسين والعمال . وجلس ببروف على فلنكات الخط مهدودا تماما ، وفى نفس اللحظة حدث له شيء غريب : فقد خارت ساقاه فجأة بألم ، وظهر فى صدره وجوفه انقباض مرهق واخز فظيع ، وبرد جبينه وخداه فورا . ثم انقلب كل شيء فى عينيه ، ومر بجواره كالاعصار منحدرا الى هوة سحيقة .

لم يفق اندريه ايليتش من الاغماءة الا بعد نصف ساعة على الاقل . وفى الاسفل ، عند سفح الجسر الترابى حيث كان المصنع العملاق يعمل عادة ليل نهار بضجيج لا يخمد ، ساد سكون غير عادى رهيب . واستوى ببروف على ساقيه بصعوبة واتجه نحو افران الصهر . كان رأسه ثقيلا الى درجة انه استقام على كتفيه بصعوبة ، وكان صدغه المصاب يسبب له الما لا يطاق لدى كل حركة . وتحسس الجرح

فلمست اصابعه من جديد الدم الحار اللزج . كذلك كان الدم فى فمه وعلى شفتيه ، فقد احس بمذاقه المعدنى المالح . لم يكن الوعى قد عاد اليه كاملا ، فسببت له محاولة التذكر واستيضاح ما حدث صداعا شديدا . وامتلأت نفسه بالغم الشديد والغضب اليائس الذى لا متنفس له .

اقترب الصباح بشكل ظاهر . وكان كل شيء رماديا باردا ورطبا . . الارض والسماء والعشب الاصفر النحيل ، واكوام الاحجار المبعثرة على جانبى الطريق دون ترتيب . وهام ببروف على غير هدى بين مبانى المصنع الخاوية وهو يكلم نفسه بصوت مسموع ، كما يحدث للمرء احيانا فى حالات الهزات الروحية العنيفة . كان يريد ان يمسك بالافكار الهاربة ويرتبها .

وهمس بانفعال مخاطبا شخصا ما غريبا كأنما يجلس فى داخله :

ـــ هيا قل لى ، قل لى ماذا افعل ؟ آه كم انا بائس ! كم اشعر بالالم ! ألم لا يطاق ! . . يخيل الى اننى سأقتل نفسى . . .

لن احتمل هذا العذاب . . .

ولكن الشخص الآخر ، **الغريب** عارضه من اعماق نفسه ، بصوت **مسموع** ايضا ، ولكن بسخرية وخشونة :

— كلا ، لن تقتل نفسك . . . لماذا تتظاهر امام نفسك ؟ . . انك تحب الاحساس بالحياة الى حد لا تجرؤ معه على قتل نفسك . ان ارادتك اعجز من ذلك . انت تخاف جدا من الالم البدنى . انت تفكر كثيرا ، اكثر من اللازم .

وهمس اندريه ايليتش من جديد وهو يعصر يديه :

— وما العمل ؟ ماذا افعل ؟ آه ما ارقها ، ما اطهرها ، نينا حبيبتى ! لم يكن لى غيرها فى الدنيا كلها . وفجأة — اوه يا للحقارة ! — تبيع شبابها ، جسدها العذرى ! . . .

وقال **الآخر** متهكما :

— دعك من التصنع . . . ما الداعى لهذه العبارات الفخمة من الميلودرامات القديمة . . . اذا كنت تمقت كفاشنين الى هذا الحد ، اذهب واقتله .

فصاح بيروف متوقفا عن السير ورافعا قبضتيه بجنون :

— سأقتله ! سأقتله ! ليكف عن تلويث الناس الشرفاء بانفاسه القذرة . سأقتله !

ولكن **الآخر** قال بسخرية قاتلة :

— لن تقتله . . . وتعرف ذلك جيدا . ليس لديك الحزم او القوة على فعل ذلك . . . ستكون غدا حكيما وضعيفا . . .

وخلال هذه الحالة الفظيعة من الانفصام الداخلى مرت ببيروف لحظات من الصحو فكان يسأل نفسه بذهول : ماذا حدث له ، وكيف وصل الى هنا ، وما الذى ينبغى ان يفعله ؟ لقد كان عليه بالتأكيد ان يفعل شيئا ما ، شيئا كبيرا وهاما . . . ولكنه نسى ما هو هذا الشىء ، وقطب وجهه من الالم وهو يحاول ان يتذكر . وفى لحظة من تلك اللحظات المشرقة رأى نفسه واقفا فوق حفرة الموقد . وعلى الفور تذكر بوضوح غير عادى حديثه مع الدكتور فى نفس هذا المكان منذ وقت قريب .

لم يكن هناك احد من الوقادين فى الاسفل ،

فقد تفرقوا جميعا . وبردت المراجل منذ وقت طويل . وفي الموقدين الاخيرين وحدهما كان الفحم الحجري يشتعل بوهن . . . وفجأة ومضت فكرة مجنونة في ذهن اندريه ايليتش كالبرق . وانحنى بسرعة ، ودلى ساقيه ، ثم تعلق على ساعديه وقفز الى حفرة الموقد .

كانت هناك مجرفة مغروزة في كوم من الفحم ، فالتقطها ببروف وبدأ يدس الفحم في فتحتي الموقد بحركات متلهفة . وبعد دقيقتين كان اللهب الابيض العاصف يئز في الموقد بينما يقبق الماء في المرجل بصوت مكتوم . وكان ببروف يلقي الفحم دون توقف ، مجرفة اثر مجرفة . . . وفي الوقت نفسه كان يبتسم بخبث وهو يومئ برأسه لشخص لا يرى ، ويهتف بصيحات متقطعة بلا معنى . لقد تملكته اكثر فاكثر تلك الفكرة المريضة الانتقامية الرهيبة التي عنت له وهو بعد في الطريق . ونظر الى هيكل المرجل الضخم الذي بدأ يطن ويشع في انعكاسات النار ، فبدا له اكثر فاكثر حيا وكريها .

لم يعرقله احد . واخذ الماء يتناقص

بسرعة في المقياس . واصبح هدير المرجل وازيز الموقد اقوى واعلى .

ولكن العمل غير المعتاد سرعان ما ارهق ببروف . واخذ الدم ينبض في صدغيه بسرعة محمومة وتوتر ، وسال من الجرح على خده خيطا دافئا . وانتهت ومضة الطاقة المجنونة ، فتحدث الصوت الداخلي ، **الغريب** ، في داخله بنبرة عالية ساخرة .

— حسنا ، لم يبق الا ان تقوم بحركة واحدة ! لكنك لن تقوم بها . . . Basta * . . . هذا كله مضحك ، وغدا لن تجرؤ حتى على الاعتراف بانك اردت ليلا ان تنسف المراجل البخارية .

كانت الشمس قد بزغت في الافق على شكل بقعة كبيرة كابية عندما وصل اندريه ايليتش الى مستشفى المصنع .

وكان الدكتور يغسل يديه فوق حوض نحاسي بعد ان توقف لحظة عن تضميد الجرحى والمصابين ، ووقف الممرض بجواره ممسكا بالمنشفة .

---

* كفى ، خلاص (بالايطالية) — المترجم .

وتراجع الدكتور مذهولا عندما رأى ببروف داخلا ، وقال بجزع :

— ماذا بك يا اندريه ايليتش ؟ ما لك تبدو هكذا ؟

وبالفعل كان منظر ببروف رهيبا . تجمد الدم جلطات سوداء على وجهه الشاحب الملطخ فى عدة اماكن بغبار الفحم . وتهدلت ملابسه المبللة الممزقة على ذراعيه وركبتيه ، وانسدلت خصلات شعره المبعثرة على جبينه .

وسأله جولدبرج من جديد وهو يجفف يديه على عجل ويتجه نحوه :

— خبرني يا اندريه ايليتش ، بالله عليك ، ماذا حدث لك ؟

فتأوه ببروف قائلا :

— آه ، لا تلق بالا . . بالله عليك يا دكتور اعطنى مورفين . . . اسرع بالمورفين والا سأجن ! . . اننى اعانى عذابا لا يوصف ! . .

واخذ جولدبرج بذراع اندريه ايليتش ، وسحبه بسرعة الى الغرفة الاخرى ، واغلق الباب باحكام وقال :

— اسمع ، اننى اخمن ما يعذبك . . . صدقنى اننى اعطف عليك جدا ، ومستعد لمساعدتك . . . ولكن يا عزيزى — ورنت فى صوته نبرة بكاء — يا عزيزى الغالى اندريه ايليتش . . . الا تستطيع ان تصبر قليلا ؟ حاول ان تتذكر كم بذلنا من جهد لكى تتغلب على هذه العادة الملعونة ! لو اعطيتك حقنة الآن فستكون مصيبة . . . لن تستطيع ان تقلع عنها ابدا . . . ابدا . . . أتفهم ؟

وانهار ببروف على الكنبة المشمع العريضة ووجهه الى اسفل ، ودمدم من خلال اسنانه المزمومة وبدنه كله يرتعش من الحمى :

— سيان . . . سيان عندى يا دكتور . . . لا استطيع ان احتمل اكثر . . .

وزفر الدكتور ، وهز كتفيه ، واخرج من خزانة الادوية علبة الابر . وبعد خمس دقائق كان ببروف يغط فى سبات عميق على الكنبة المشمع . وارتسمت على وجهه الذى شحب وضمر خلال الليل ابتسامة عذبة . ومضى الدكتور يغسل له رأسه بحذر .

عام ١٨٩٦

جمبرينوس

١

هكذا كانت تسمى حانة البيرة الواقعة فى احدى المدن الساحلية الصاخبة فى جنوب روسيا . ورغم انها كانت تقوم فى واحد من أكثر شوارع المدينة ازدحاما ، فقد كان العثور عليها صعبا بسبب وجودها تحت الارض . وكثيرا ما كان الزوار — حتى اولئك الذين يعرفون جمبرينوس جيدا ويحظون هناك بالترحاب — يمرون بجوار هذا المكان الممتاز دون أن يلاحظوه ، ولا يفطنون الى ذلك الا بعد ان يتجاوزوا متجرين او ثلاثة من المتاجر المجاورة ، فيعودون أدراجهم .

لم تكن هناك أية لافتة . ومن الرصيف مباشرة كان الزوار يدلفون الى باب ضيق مفتوح دائما . ومن الباب يفضى الى اسفل درج ضيق مثله ، من عشرين درجة حجرية نحتتها وكسرتها

ملايين الاحذية الثقيلة . وعند نهاية الدرج ، فى فجوة داخل الجدار ازدهى نحت بارز ملون يبلغ ارتفاعه حوالى قامتى رجل لراعى الجعة المجيد ، الملك جمبرينوس . ويبدو ان هذا العمل الفنى كان أول انتاج لنحات مبتدئ هاو ، فبدا وكأنما صنع بخشونة من قطع اسفنج مسامية متحجرة ، وان كان الصديرى الاحمر والعباءة المصنوعة من فراء القاقم والتاج الذهبى ، والكوب المرفوع عاليا والرغوة البيضاء تنساب منه ، لا تدع للزائر مجالا للشك بأنه أمام راعى صناعة الجعة العظيم نفسه .

كانت الحانة تتألف من صالتين طويلتين ولكنهما منخفضتان جدا وبسقفين كسقوف الاقبية . وكانت الجدران تنضح دائما بالرطوبة ، فتسيل عليها خيوطا وتلمع فى ضوء المصابيح الغازية التى كانت مشتعلة ليل نهار لان الحانة كانت تخلو من النوافذ . ومع ذلك كان من الممكن ان تلاحظ فى خنايا الجدران بوضوح كاف آثار تصوير جدارى طريف . كانت احدى اللوحات تصور وليمة لجماعة كبيرة من الشبان الالمان

فى سترات صيد خضراء ، وقبعات محلاة بريش الدجاج البرى ، والبنادق معلقة فى اكتافهم . وكانوا جميعا ينظرون الى صالة الحانة ويحيون الزوار بالأكواب الممدودة ، بينما ضم اثنان منهما فوق ذلك خصرى فتاتين مكتنزتين خادمتين فى حانة القرية ، او ربما ابنتى صاحب المزرعة الطيب . وعلى الجدار الآخر صورة لنزهة ارستقراطية ترجع الى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، حيث كانت الكونتسات والفيكونتات المرتدون شعرا مستعارا مرشوشا بالمساحيق يمرحون بدلع على مرج اخضر ترعى فيه الاغنام ، وبجوارهم ، تحت اغصان الصفصاف الوارفة ، بركة تسبح فيها بجعات يطعمها برشاقة رجال وسيدات جالسون فى شىء يشبه الصدفة الذهبية . اما الصورة التالية فكانت لمحتويات منزل قروى أوكرانى وعائلة اوكرانية سعيدة ترقص رقصة «الهوباك» الشعبية وفى ايديها دوارق الفودكا . ثم تلتها صورة أخرى لبرميل كبير ، ومن فوقه وقف «كيوبيدان» بدينان الى درجة مزرية ، بوجهين أحمرين وشفاه مكتنزة وعيون لا حياء فيها ، يقرعان كأسين

مسطحين ، وقد احاطت بهما اوراق الكروم وحشائش الدينار . اما فى الصالة الثانية التى يفصلها عن الاولى قوس نصف دائرى ، فقد مضت اللوحات تصور حياة الضفادع : فالضفادع تشرب الجعة فى مستنقع اخضر ، والضفادع تطارد الجنادب بين أعواد القصب الكثيفة ، وتعزف فى فرقة رباعية للآلات الوترية ، وتتبارز بالسيوف . . . الخ . ويبدو ان مصورا اجنبيا هو الذى نقش هذه الصور على الجدران .

وبدلا من الموائد ثبتت براميل ثقيلة من خشب البلوط على الارض المغطاة بطبقة كثيفة من نشارة الخشب ، ووضعت بدلا من الكراسى براميل صغيرة . وعلى يمين الداخل ارتفعت منصة صغيرة للعازفين ووضع عليها معزف . ومنذ سنوات طويلة كان يعزف هنا كل مساء العازف على الكمان ساشكا * لتسلية الرواد والترفيه عنهم . وكان ساشكا يهوديا ، وديعا ، مرحا ، ثملا ، أصلع الرأس ، لا يعرف سنه بالتحديد ، وكانت

---

* تدليل مشتق من الاسم الكامل : الكسندر — المترجم .

هيئته تشبه قردا منحول الشعر . كانت السنون تمر ، ويتبدل الخدم بأساورهم الجلدية ، ويتبدل مورّدو الجعة وموزعوها ، ويتبدل أصحاب الحانة نفسها ، ولكن ساشكا كان دائما كل مساء عندما تحين الساعة السادسة يجلس على منصته والكمان فى يديه ، وكلبه الابيض الصغير على ركبتيه ، وفى الساعة الواحدة صباحا يغادر جمبرينوس فى صحبة كلبه «بيلوتشكا» ، وهو لايكاد يقف على قدميه من كثرة ما شرب من البيرة .

وعموما فقد كان فى جمبرينوس وجه آخر لا يتبدل . . عاملة البوفيه مدام ايفانوفا ، وهى امرأة ممتلئة ، شاحبة ، عجوز ، أصبحت لكثرة ما مكثت فى هذا القبو الرطب تشبه الاسماك الشاحبة الكسولة التى تقطن اعماق المغارات البحرية . كانت كقبطان السفينة فى قمرة القيادة توجه الخدم من قمة منصة البوفيه فى صمت ، وتدخن طوال الوقت وهى تضع السيجارة فى زاوية فمها اليمنى ، وتزر عينها اليمنى اتقاء للدخان . ونادرا ما كان أحد يتمكن من سماع

صوتها ، وكانت ترد على انحناءات التحية دائما بابتسامة باهتة لا تتغير .

٢

كان هذا الميناء الضخم الذى يعد من أكبر الموانئ التجارية فى العالم ، غاصا دائما بالسفن . وكانت تزوره المدرعات الصدئة القاتمة الضخمة . وفيه كانت تشحن سفن الاسطول الاهلى * الصفراء الغليظة المداخن المتجهة الى الشرق الاقصى ، فتبتلع كل يوم قطارات بضائع طويلة بأكملها او آلاف السجناء . وكانت مئات الاعلام من مختلف انحاء العالم ترفرف هنا فى الربيع والخريف ، وتتردد من الصباح الى المساء صيحات الاوامر والسباب بكل اللغات . ومن السفن الى المستودعات العديدة وبالعكس ، وفوق السقالات المرتعشة كان الحمالون يروحون ويجيئون : الحمالون الروس

* هى سفن تجارية اشترتها روسيا بأموال الاكتتاب الاهلى الذى بدأ فى موسكو عام ١٨٧٨ — المترجم .

الحفاة المهلهلون ، العراة تقريبا ، بوجوههم الثملة المنتفخة ، والاتراك السمر ذوو العمائم القذرة ، بسراويلهم الفضفاضة حتى الركبة ثم الملفوفة على قصبة الساق ، والفرس القصار المفتولو العضلات ، بشعرهم واظفارهم المصبوغة بالحناء بلون نارى كالجزر الاحمر . وكثيرا ما كانت تزور الميناء الشونات الايطالية الرائعة ذات الصاريتين او الثلاث صوار ، بصفوف أشرعتها المنتظمة ، النظيفة البيضاء والمشدودة كصدور العذارى . وعندما تلوح هذه السفن الرشيقة من وراء المنار كانت تبدو — خاصة فى أوقات الصباح الربيعية الصافية — كرؤى خلابة بيضاء ، تسبح لا على صفحة الماء ، بل فى الهواء ، فوق خط الافق . وكانت سفن الاناضول العالية الاجناب وفلوكات طرابزون بألوانها الغريبة ونقوشها المحفورة وزخرفتها العجيبة الاشكال تقف هنا أشهرا وهى تتمايل فى مياه الميناء الخضراء القذرة ، بين القاذورات وقشر البيض والبطيخ وأسراب النوارس البحرية البيضاء . وأحيانا كانت تدخل الميناء سفن غريبة ضيقة ، بأشرعة

سوداء مزفتة ، وخرقة قذرة بدلا من العلم . كانت السفينة من هذا النوع تدور مندفعة حول حاجز الامواج وهى تكاد تحتك به ، وتزداد ميلا الى جانبها ، وتقتحم أى ميناء دون أن تهدئ من سرعتها وترسو ، بين سيل السباب واللعنات والتهديد المتعدد اللغات ، على أول رصيف يقابلها ، حيث يقوم بحارتها — العراة تماما والبرونزيو البشرة والصغار الاجسام — بطيّ الاشرعة المهلهلة بسرعة رهيبة وهم يصدرون أصواتا حلقية ، وعلى الفور تصبح السفينة الغامضة القذرة مثل جثة خامدة . وعلى نفس الصورة من الغموض ، فى ظلام عليل ، تختفى من الميناء بلا صوت ودون ان تشعل مصابيحها . وكان الخليج يغص طوال الليل بقوارب المهربين الخفيفة . وينقل الصيادون المحليون والبعيدون صيدهم الى المدينة ، فكانوا فى الربيع يحملون سمك الخمسة الصغير الذى تمتلئ قواربهم بالملايين منه ، وفى الصيف سمك موسى الدميم وفى الخريف سمك الاسقمرى والبورى السمين والمحار ، وفى الشتاء سمك البال الابيض الذى تزن الواحدة منه عشرة او عشرين

بودا ، ويصطادونه على بعد عشرات الكيلومترات من الشاطئ ، وكثيرا ما يكون صيده محفوفا بأخطار كبيرة .

كان كل هؤلاء البشر . . البحارة المختلفو الجنسيات ، والصيادون والوقادون وصبيان البحارة المرحون ، ولصوص الميناء والميكانيكيون والعمال واصحاب القوارب والحمالون والغواصون والمهربون . . كانوا جميعا شبانا ، أصحاء الابدان ، مشبعين برائحة البحر والسمك القوية ، يعرفون جيدا مشقة العمل ويعشقون سحر المخاطرة اليومية ورعبها ، ويقدرون قبل كل شيء القوة والفتوة ومرح الكلمة اللاذعة اللاهبة ، اما على اليابسة فكانوا ينهمكون باستمتاع فى العربدة والسكر والمشاجرات . وكانت اضواء المدينة الكبيرة ، المتلألئة عاليا فى السماء تجذبهم اليها فى المساء كأنها أعين سحرية مضيئة تبشر دائما بشيء جديد مرح لم يعرف مذاقه بعد وكانت دائما تخدعهم .

كانت المدينة تتصل بالميناء عبر شوارع ضيقة متعرجة شديدة الانحدار ، يتجنب الاشخاص المحترمون السير فيها ليلا . وكنت تجد هنا فى

كل خطوة نزلا ذا نوافذ قذرة مسيجة بالقضبان ، ينبعث منه ضوء مصباح وحيد كئيب فى الداخل . أما ما ينتشر هنا اكثر من الانزال فهى الحوانيت التى يمكنك ان تبيع فيها كل ما على جسدك حتى قانلة البحارة الداخلية ، ويمكنك ايضا ان تكتسى أية حلة بحرية . كذلك تجد هنا الكثير من الحانات والخمارات والمطاعم والمشارب ذات اللافتات المعبرة المكتوبة بجميع اللغات ، وعددا غير قليل من بيوت الدعارة العلنية والسرية ، التى تقف على عتباتها ليلا نساء مطليات بفظاظة ينادين البحارة بأصوات جشة .

وكانت هنا ايضا مقاه يونانية يلعبون فيها الدومينو ولعبة ستة وستين ، ومقاه تركية مزودة بالنراجيل ويمكنك ان تبيت فيها لقاء خمسة كوبيكات . وكانت هنا ايضا خمارات شرقية تباع فيها القواقع والجمبرى وأم الخلول وأم الحبر الكبيرة وغيرها من المخلوقات البحرية الكريهة . وفى اماكن ما على الاسطح او فى الاقبية اختفت اوكار القمار التى كثيرا ما كان اللعب فيها ينتهى بأبطن مبقورة او جماجم مهشمة ، بينما فى

مكان قريب وراء الناصية ، وربما فى غرفة مجاورة ، كان من الممكن تصريف اى شىء مسروق ، ابتداء من سوار ماسى وانتهاء بصليب فضى ، ومن ربطة قطيفة فرنسية الى معطف بحارى ميرى .

كانت هذه الشوارع الضيقة المنحدرة ، السوداء من غبار الفحم تصبح دائما فى الليل لزجة وكريهة الرائحة وكأنما تتفصد بالعرق اثناء نوم مزعج . وكانت أشبه بقنوات المجارى او الامعاء القذرة التى كانت المدينة الدولية الكبيرة تلقى عبرها فى البحر بمخلفاتها وقيحها ووضاعتها وآثامها ، فتعدى بها الاجسام القوية المفتولة والنفوس البسيطة .

ونادرا ما كان اهل هذا الحى الصاخبون يصعدون الى المدينة الزاهية المرتدية دوما حلة العيد ، بزجاجها البراق كالمرايا وتماثيلها الشامخة ووهج مصابيحها الكهربائية ، وأرصفتها المسفلتة ، وممراتها المحفوفة بالاكاسيا البيضاء ، وشرطيها المنتفخى الاوداج ، بكل نظافتها المتباهية وترتيبها . ولكن كلا منهم ، قبل أن يذر فى الريح روبلاته

الممزقة المنتفخة المبللة بالعرق ، والتى كسبها بالكد ، كان حتما يزور جمبرينوس . كانت تلك عادة أضفى عليها الماضى طابع القدسية ، وان اضطروا من اجل ذلك الى التسلل تحت جنح ظلام المساء الى وسط المدينة .

ولم يكن الكثيرون فى الحقيقة يعرفون أبدا ذلك الاسم المعقد لملك الجعة المجيد . كان احدهم يقول ببساطة :

— هيا بنا الى ساشكا .

فيرد الآخرون :

— تمام ! ثابت !

ويقول الجميع معا :

— فيرا ! *

وليس هناك ما يدعو الى الدهشة فى أن ساشكا كان يحظى لدى رجال الميناء والبحارة باحترام وشهرة اكبر من الاسقف المحلى او المحافظ مثلا . ولا جدال انهم ان لم يذكروا

* هى كلمة مأخوذة عن الايطالية vira ، وتعنى : ارفع — المترجم .

اسمه فقد كانوا احيانا يتذكرون وجهه الحى كوجه القرد وكمانه ، فى سيدنى وبلايموث وكذلك فى نيويورك وفلاديفوستوك والقسطنطينية وسيلان ، هذا عدا جميع خلجان ومرافئ البحر الاسود ، حيث كان يوجد الكثيرون من عشاق فنه من بين الصيادين الشجعان .

٣

كان ساشكا يأتى الى جمبرينوس عادة وهى بعد خالية اللهم الا من زائر او زائرين عابرين . وكانت رائحة بيرة الامس الحامضة الثقيلة لا تزال تملأ الصالتين اللتين كانتا شبه مظلمتين لأن المصابيح كانت توقد نهارا بوهن توفيرا للغاز . وفى أيام يوليو القائظة ، عندما كانت المدينة الحجرية تئن من صهد الشمس ويصم سمعها ضجيج الشارع ، كنت تحس هنا بالهدوء والرطوبة المنعشين .

كان ساشكا يقترب من خشبة البوفيه ويحى

مدام ايفانوفا ويشرب قدحه الاول من البيرة . وأحيانا كانت مدام ايفانوفا تقول له :

— ساشا ، اعزف لنا شيئا !

فيستفهم ساشكا بأدب ، فقد كان معها فى غاية الادب :

— ما الذى تأمرين بعزفه يا مدام ايفانوفا ؟

— شيئا من عندك . . .

فيجلس ساشكا فى مكانه المعهود على يسار المعزف ، ويعزف الحانا غريبة طويلة مقبضة . ويعم النعاس والهدوء فى القبو ، ولا يسمع الا هدير المدينة الاصم قادما من الشارع ، وأحيانا كان الخدم يحركون الاوانى بحذر فى المطبخ خلف الجدار . وينساب من اوتار كمان ساشكا شجن قديم منسوج ومكلل بأزهار الانغام القومية الحزينة . وفى هذه الساعة من ساعات الغسق لم يكن وجه ساشكا ، بذقنه المضغوط وجبينه المنكس ، وعينيه المتطلعتين الى أعلى بصرامة من تحت حاجبين مثقلين ، يشبه ابدا وجهه المقطب ، المتغامز ، الراقص ، المألوف لجميع زبائن جمبرينوس . وكان كلبه «بيلوتشكا»

يجلس على ركبتيه . لقد اعتاد منذ زمن بعيد الا يعوى مع الموسيقى ، ولكن الالحان الحزينة الولهانة الباكية الساخطة كانت تثيره لا اراديا ، فكان يتثاءب تثاؤبا مختلجا وهو يفتح فمه واسعا ، ويلوى الى الخلف لسانه الوردى الرفيع ، ويظل يرتعد حوالى دقيقة بكل جسده الصغير ووجهه اللطيف ذى العينين السوداوين .

ثم شيئا فشيئا يفد الزبائن ، ويأتى رفيق ساشكا الذى يصاحبه على المعزف ، بعد ان يكون قد أنهى عملا من أعماله اليومية العارضة عند الترزى أو الساعاتى ، ويوضع السجق فى ماء ساخن وسندوتشات الجبن على البوفيه ، واخيرا تضاء جميع المصابيح الغازية . ويشرب ساشكا قدحه الثانى ، ويصدر لرفيقه الامر : «استعراض مايو ، آين ، تسفى ، درى !»* ويبدأ فى عزف مارش صاخب . ومنذ تلك اللحظة لا يكاد يكف عن الانحناء للقادمين الجدد ، الذين كان كل منهم يعتبر نفسه صديقه الحميم

---

* واحد ، اثنان ، ثلاثة (بالالمانية) — المترجم .

الخاص ، فيطوف على بقية الضيوف بنظرة فخار بعد انحناءة ساشكا . وفى الوقت نفسه كان ساشكا يغمز بعينه هذه مرة ، وبعينه الثانية مرة اخرى ، ويرفع تجاعيده الطويلة على جبهته المنحدرة الى الخلف ، ويحرك شفتيه بشكل مضحك ويوزع ابتساماته على جميع الجهات .

وفى حوالى العاشرة او الحادية عشرة مساء تمتلئ صالتا جمبرينوس اللتان تتسعان لاكثر من مائتى شخص عن آخرهما بالرواد . وكان الكثيرون منهم ، حوالى النصف ، يأتون فى صحبة نساء يضعن على رؤوسهن المناديل ، ولا يتأفف احد من الزحام او من ان ساقه قد ديست او ان قبعته قد تهشمت او ان أحدهم سكب البيرة على سرواله . واذا ما غضب شخص فهو غضب متعمد ، «لاثارة الشجار» بتأثير الخمر . وكانت رطوبة الاقبية تتجمع قطرات كابية وتسيل غزيرة على الجدران المطلية بالزيت ، بينما تتكثف الابخرة المتصاعدة من الحشد وتسقط من السقف كمطر ثقيل متقطع دافئ . وكان رواد جمبرينوس يشربون بجدية . وكان من مظاهر الترف المعترف

بها فى عادات هذه الدار أن يملأ زبونان او ثلاثة مائدتهما بالزجاجات الخاوية فلا يرى المتحدث رفيقه من خلفها ، وكأنهما فى غابة زجاجية خضراء .

وفى اوج السهرة يكون الضيوف قد احمروا وبحت اصواتهم واصبحوا مبللين . وكان دخان السجائر يلسع العيون . وكانوا يصرخون وينحنون فوق الموائد ليسمع بعضهم بعضا فى هذا اللغط . ولكن كمان ساشكا الذى لا يكل كان هو وحده الذى يتسامى فوق الجو الخانق والحرارة ورائحة التبغ والغاز والبيرة ، وفوق صراخ الرواد غير الآبهين .

ولكن الرواد سرعان ما يسكرون من البيرة ومن قرب النساء ، ومن الهواء الساخن . وكان كل منهم يريد ان يسمع اغانيه الحبيبة المفضلة ، فكان شخصان او ثلاثة يقفون دائما قرب ساشكا ، ويشدونه من كمه ويعوقونه عن العزف وهم يترنحون ويحملقون بأعين زائغة .

ويصيح السائل وهو يغص من السكر :

— ساش . . . اغنية . . حزي. . نة . . اعمل

مع . . . روف !

— حاضر ، حاضر . . — يؤكد ساشكا وهو يومئ برأسه بسرعة ، ويسقط قطعة النقود الفضية فى جيبه بمهارة طبيب — حاضر ، حاضر . . .

— هذه نذالة يا ساشكا . . دفعت لك وطلبت عشرين مرة : «جئت الى أوديسا عبر البحر» .

— حاضر ، حاضر . . .

— «البلبل» يا ساشكا !

— «ماروسا» يا ساشكا !

— «زتس—زتس» يا ساشكا !

— حاضر ، حاضر . . .

ومن الطرف الآخر للصالة صاح صوت غير بشرى ، بل أشبه بصهيل مهر :

— «الراعى» !

فصاح ساشكا مجيبا بصوت الديكة وسط قهقهة الجميع :

— حا — ضر . . .

ويعزف جميع الأغانى المطلوبة دون توقف .

ويبدو انه لم تكن هناك اغنية لا يعرفها عن ظهر قلب . ومن جميع الاركان تنهال على جيوبه القطع الفضية ، ومن جميع الموائد تتوارد عليه اقداح البيرة . وعندما كان يهبط من منصته متجها الى البوفيه كانت الايدى تتنازعه .

— ساشنكا . . يا عزيزى . . . قدحا واحدا .

— فى صحتك يا ساشكا . تعال هنا أيها الشيطان . . تعال يا ملعون اذا نادوك .

ويصيح صوت المهر :

— ساشكا . . تعال اشرب بيرة !

أما الحاضرات اللائى يملن ككل النساء الى الاعجاب برجال الفن والى الدلال والتميز أمامهم والترلف اليهم ، فكن يدعونه بصوت هادل وضحك لعوب نزق :

— ساشكا ، لابد أن تشرب من يدى . . . لا ، لا ، لا ، اننى أرجوك . وبعدها اعزف لنا «كوكو-فوك» .

وكان ساشكا يبتسم ويقلب سحنته وينحنى الى اليمين واليسار ويضم يده الى قلبه ، ويرسل

قبلات فى الهواء ، ويشرب البيرة على جميع الموائد ، وعندما يعود الى المعزف الذى كان ينتظره فوقه قدح جديد ، يبدأ فى عزف «فراق» ما . وكان يعمد فى بعض الاحيان ، ليسلى سامعيه ، الى جعل كمانه يعوى كالكلب متفقا مع اللحن ، او يخور كالخنزير او ينطلق بأصوات غليظة مبحوحة تمزق القلب . فكان السامعون يقابلون مزاحه هذا باستحسان بشوش وضحك :

— هو — هو — هو . . .

وتزداد حرارة الجو . وتسيل القطرات من السقف ، ويشرع بعض الضيوف فى البكاء وهم يضربون صدورهم ، ويتشاجر آخرون بعيون محمرة بسبب النساء والاهانات السابقة ويتهجمون بعضهم على بعض ، بينما يفرق بينهم جيرانهم الاكثر وعيا ، والذين كانوا فى الغالب من طفيلى الموائد . وكان الخدم ينفذون بأعجوبة بين البراميل الكبيرة والصغيرة ، والاقدام والاجسام وهم يرفعون عاليا فوق رؤوس الجالسين أيديهم المثقلة بأقداح البيرة . وكانت مدام ايفانوفا ، التى اصبحت اكثر شحوبا ولامبالاة وصمتا من المعتاد ، تدير

من خلف خشبة البوفيه حركات الخدم ، وكأنها قبطان سفينة اثناء العاصفة .

وكانت الرغبة فى الشرب تعترى الجميع . ويصبح ساشكا ، وقد تضرج وجهه من البيرة ومن طيبة قلبه ومن تلك السعادة الفجة التى أدخلتها موسيقاه على نفوس الآخرين ، مستعدا لعزف أى شىء . وعلى وقع انغام كمانه يصيح الحاضرون بأصوات مبحوحة متنافرة ، خشبية الرنين مرددين نغمة واحدة وهم يحدقون فى عيون بعضهم بجدية لا معنى لها :

يا حبيى لماذا نفترق
ونعيش بعيدين
هلا تزوجنا
وحفظنا الحب ؟

وبجوارهم مجموعة أخرى تحاول ان تطغى بصياحها على الفريق الأول ، الذى كانت تعاديه فيما يبدو ، ولكنها صاحت بأصوات متنافرة تماما :

أراه فى خطوته
مبرقش السروال
والشعر كستنائى
والحذاء بنعل كريب

وكان كثيرا ما يزور جمبرينوس يونانيون من آسيا الصغرى يأتون الى الموانئ الروسية لصيد السمك . وكانوا هم ايضا يطلبون من ساشكا ان يعزف لهم الحانهم الشرقية المؤلفة من عويل كئيب منفر رتيب وجملتين موسيقيتين او ثلاث . وكانوا على استعداد لترديدها ساعات طويلة بوجوه عابسة وأعين متقدة . وكان ساشكا يعزف أيضا الالحان الشعبية الايطالية والاغانى الاوكرانية واغانى الزفاف اليهودية وكثيرا من الالحان الاخرى .

وذات مرة دلفت الى جمبرينوس مجموعة من البحارة الزنوج ، الذين تحرقوا شوقا الى الغناء تشبها بالآخرين . وسرعان ما التقطت اذنا ساشكا اللحن الزنجى اللاهث ، ووجد له الايقاع المناسب على المعزف بسرعة ، وما هى الا لحظات حتى ارتفعت فى جمبرينوس نغمات غريبة نزقة حلقية لأغنية افريقية ، مما أثار اعجاب الرواد الدائمين وضحكهم .

وتمكن أحد معارف ساشكا ، وهو صحفى فى جريدة محلية ، من اقناع احد اساتذة معهد الموسيقى بالذهاب الى جمبرينوس للاستماع

الى عازف كمانها المشهور . ولكن ساشكا فطن الى ذلك ، فعمد الى جعل كمانه يموء ويثغى ويعول أكثر من المعتاد . وضج رواد جمبرينوس بالضحك ، اما الاستاذ فقال باحتقار :

— تهريج !

وانصرف دون ان يكمل شرب قدحه .

٤

كثيرا ما كانت المركيزات الرقيقات والصيادون الألمان المولمون وآلهة الحب البدناء والضفادع يشهدون من جميع الجدران عربدة صاخبة يندر أن ترى مثلها فى مكان غير جمبرينوس .

كانت تأتى مثلا جماعة من اللصوص السكارى ، بعد عملية ناجحة ، وكل منهم فى صحبة معشوقته ، وكل منهم يرتدى «كسكتة» مائلة الى جانب رأسه بتهور ، وحذاء طويلا لامعا ، ولكل منهم حركات الحانات المنتقاة

ومظهر التعالى والاستخفاف . وكان ساشكا يعزف لهم أغانيهم اللصوصية الخاصة ، مثل «هلكت ، أنا الغلام» و«لا تبكى يا ماروسا» و«فات الربيع» وغيرها . . . وكانوا يعتبرون الرقص شيئا لا يليق بمقامهم ، ولكن صديقاتهم ، اللائى كن جميعا جميلات ، شابات بل وكان بعضهن فتيات صغيرات تقريبا ، يرقصن رقصة «الراعى» مصحوبة بالصرخات ودق الكعوب . وكان الكل ، رجالا ونساء ، يشربون كثيرا . . اما الشىء السيئ الوحيد فهو ان اللصوص كانوا ينهون عربدتهم بخلافاتهم المالية القديمة ويفضلون الاختفاء دون دفع الحساب .

أما الصيادون فكانوا يأتون فى جماعات كبيرة ، من حوالى ثلاثين شخصا ، بعد صيد موفق . وفى أواخر الخريف كانت تحل أسابيع سعيدة عندما يصطادون حوالى أربعين ألف سمكة اسقمرى أو بورى فى اليوم . وفى هذه الفترة كان أصغر صياد يحصل على أكثر من مائتى روبل . ولكن ثراء الصيادين كان يزداد بالصيد الموفق لسمك البال شتاء ، بيد انه كان محفوفا بصعاب كبيرة .

كان هذا الصيد شاقا ، على بعد ثلاثين أو اربعين كيلومترا من الشاطئ ، واثناء الليل ، وأحيانا فى جو مضطرب تغمر فيه المياه القارب وتتجمد فورا على الملابس والمجاذيف ، ويحول الطقس بينهم وبين العودة ويبقيهم فى البحر يومين او ثلاثة ، ثم تلقى بهم الامواج فى مكان ما على بعد مائتى كيلومتر ، عند آنابا او طرابزون . وخلال الشتاء كانوا يفقدون حوالى عشرة قوارب ، وفى الربيع فقط كان البحر يلقى على الشاطئ الغريب هنا وهناك بجثث الصيادين البواسل .

ولذلك فعندما يعودون من البحر سعداء موفقين كان يتملكهم على اليابسة ظمأ جنونى الى الحياة . وخلال يومين أو ثلاثة كانوا يبددون عدة آلاف روبل فى اشد ألوان السكر والعربدة فظاظة وجلبة . كانوا يدلفون الى الحانة أو الى أى دار لهو ، فيلقون الى الخارج بجميع الرواد الآخرين ، ويغلقون الباب والنوافذ غلقا محكما وينهمكون لعدة أيام فى الشرب وممارسة الحب ورفع العقيرة بالغناء وتحطيم المرايا والاوانى والنساء وبعضهم بعضا ، الى أن يغلبهم النوم حيثما

كانوا . . فوق الموائد ، او على الارض او بعرض الاسرة ، وسط البصاق واعقاب السجائر وحطام الزجاج والخمر المراق وبقع الدم . وهكذا يعربد الصيادون عدة أيام متصلة تارة فى نفس المكان وتارة أخرى فى عدة امكنة . وبعد ان ينفقوا آخر كوبيك ينصرفون برؤوس مدوية وبآثار المعارك على وجوههم ، وبأيد وأرجل مرتعشة من السكر ، ينصرفون صامتين كآبى تائبين الى قواربهم على الساحل ليعودوا الى عملهم المحبب الملعون والشاق الممتع .

ولا ينسى الصيادون ابدا ان يزوروا جمبرينوس . كانوا يقتحمونها بأجسادهم الضخمة ، وقد بحت أصواتهم واحمرت وجوههم التى لسعتها رياح «نورد-أوست» الشتوية المسعورة ، مرتدين سترات غير قابلة للبلل وسراويل من الجلد ، وأحذية من جلد الثيران تصل الى خصورهم ، نفس الاحذية التى كان اصدقاؤهم يهوون فيها الى القاع كالحجر اثناء ليالى العاصفة .

واحتراما منهم لساشكا لم يكونوا يطردون رواد جمبرينوس الآخرين رغم انهم كانوا يشعرون

بأنفسهم سادة الحانة ويحطمون الاقداح الثقيلة على الارض . وكان ساشكا يعزف لهم اغانى الصيادين الخاصة ، تلك الاغانى الممطوطة البسيطة والمنذرة كصخب البحر ، فكانوا يغنون جميعا بصوت واحد نافخين الى اقصى درجة صدورهم القوية وحناجرهم الصلبة . وكان تأثير ساشكا عليهم مثل تأثير أورفيوس مسكّن الامواج ، حتى انه كان يحدث أحيانا أن تسيل الدموع من عينى رئيس صيادين ضخم متوحش بلغ الاربعين وذى وجه لوحته الريح ولحية ، وهو يردد بصوت رفيع كلمات هذه الاغنية الشاكية . .

ما أتعسنى ، ما أتعسنى من غلام
اذ ولدت صيادا . . .

وكانوا احيانا يرقصون بوجوه حجرية وهم يدقون بأرجلهم فى مكان واحد بأحذيتهم الثقيلة المدوية ناشرين فى الحانة كلها رائحة السمك المالحة النافذة التى كانت ملابسهم وأجسادهم مشبعة بها . وكانوا يغدقون على ساشكا ويمسكون به طويلا على موائدهم . كان يعرف جيدا نمط حياتهم الشاق الشجاع ، وكثيرا ما كان

يحس فى نفسه بحزن مبجل نحوهم وهو يعزف لهم اغانيهم .

ولكنه كان يحب بشكل خاص ان يعزف للبحارة الانجليز العاملين على السفن التجارية . كانوا يفدون رهطا واحدا متشابكى الايدى ، وكانوا جميعا ، كأنما اختيروا اختيارا ، عريضى الصدور والاكتاف ، شبانا ، بيض الاسنان ، موردى الوجنات ، بعيون زرقاء مرحة جريئة . وكانت عضلاتهم القوية تكاد تمزق ستراتهم ، ومن فتحات الياقات الواسعة تشمخ اعناقهم المستقيمة الجبارة الممشوقة . وكان بعضهم يعرف ساشكا من توقفه السابق فى هذا الميناء . وعندما يرونه يكشفون عن اسنانهم البيضاء ببشاشة ويحيونه بالروسية :

— زدرايست ، زدرايست • .

أما ساشكا فكان يعزف لهم دون ان يطلبوا منه : "Rule Britannia" •• .

• هو نطق مشوه لكلمة التحية الروسية : زدراستفويتى — المترجم .

•• سودى يا بريطانيا — بالانجليزية فى النص .

وربما كان احساسهم بأنهم الآن فى بلد يرزح تحت العبودية الابدية هو الذى يضفى مهابة أبية خاصة على نشيد الحرية الانجليزية هذا . وعندما كانوا ينشدون وقوفا ، حاسرى الرؤوس هذه الكلمات الرائعة فى آخر النشيد :

أبدا ، أبدا ، أبدا
لن يصبح الانجليزى عبدا !

كان اشد جيرانهم صخبا ينزعون قبعاتهم لا اراديا .

وكان نوتى ربع القامة ، بحلقة فى أذنه ، ولحية تنساب من رقبته وكأنها هدّاب ثوب ، يقترب من ساشكا ممسكا بقدحى بيرة وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، ويربت على ظهره بمودة ويطلب منه أن يعزف «الجيج» . وما ان تتردد اولى نغمات هذه الرقصة البحرية المندفعة حتى يقفز الانجليز من اماكنهم ويخلون المكان دافعين البراميل الى الجدران . وكانوا يطلبون من الغرباء ذلك بالاشارات وبابتسامات مرحة ، فاذا تباطأ احد فى النهوض كانوا لا يعيرون اهتماما للاصول بل يطيحون بالمقعد من تحته بركلة جيدة . ولكنهم

لم يكونوا يلجأون الى ذلك الا نادرا ، لان جميع رواد جمبرينوس كانوا من مقدرى الرقص ، وخاصة رقصة الجيج الانجليزية . وحتى ساشكا كان يصعد فوق كرسى ، دون ان يتوقف عن العزف ، ليراهم افضل .

كان البحارة يصطفون حلقة ويصفقون مع ايقاع الرقصة السريع ، بينما يتقدم اثنان منهم الى وسط الحلقة . وكانت الرقصة تصور حياة البحار فى البحر . فها هى السفينة مستعدة للابحار ، والجو رائع ، وكل شىء على ما يرام . وتتشابك أيدى الراقصين على صدورهم وترتمى رؤوسهم الى الوراء ، وتبقى أجسامهم هادئة وان كانت أرجلهم توقع ارتعاشة محمومة . وها هى الريح تشتد فتتأرجح السفينة قليلا . وليس هذا بالنسبة للبحار سوى البهجة بعينها ، ولكن حركات الرقصة تصبح أعقد وأكثر تشابكا . وتهب رياح نشطة ، ويصبح السير على سطح السفينة أصعب ، ويتأرجح الراقصون قليلا من جنب الى جنب . وأخيرا ها هى العاصفة الحقيقية ، وتلقى الريح بالبحار من هذا الحاجز الى ذاك ، ويصبح

الأمر خطيرا . «الجميع الى السطح ، اطو الاشرعة !» وتصور حركات الراقصين بوضوح مضحك كيف يتسلق البحارة الصوارى بأيديهم وأرجلهم ويشدون الاشرعة ويثبتون العقد ، بينما تؤرجح العاصفة السفينة أقوى فأقوى . «قف ، رجل فى البحر !» وينزلون القارب . ويدلى الراقصون رؤوسهم وينفخون اعناقهم القوية العارية . وهم يجذفون بضربات سريعة ويطوون ظهورهم تارة وينشرونها تارة اخرى . وها هى العاصفة تمر ، ويقل تأرجح السفينة شيئا فشيئا ، وتصحو السماء ، وتنساب السفينة من جديد برفق مع الرياح المواتية ، ويعود الراقصون يشبكون ايديهم على صدورهم وتسكن أجسامهم بينما توقع اقدامهم ضربات سريعة مرحة .

وكان ساشكا يعزف أحيانا رقصة «ليزجنكا» للجورجيين الذين كانوا يعملون فى تجهيز الخمور فى ضواحى المدينة . لم تكن هناك رقصات مجهولة بالنسبة له . وعندما كان الراقص المرتدى لبدة من الفراء وحلة الشركس يندفع محلقا بين البراميل ، وهو يلقى بهذه اليد مرة ، وباليد

الثانية مرة اخرى خلف رأسه ويصفق له رفاقه مع الايقاع ويتصايحون ، لم يكن ساشكا أيضا يتمالك نفسه فيصيح معهم بحماس : «خس ! خس ! خس ! خس !» . وكان يعزف ايضا رقصة الجوك المولدافية وترنتللا الايطالية والحان الفالس للبحارة الالمان .

وكان الشجار ينشب أحيانا فى جمبرينوس ، وبعنف وقسوة . وكان الرواد القدامى يهوون سرد حادث العراك الاسطورى بين بحارة الاسطول الروس المسرحين من طراد ما وبين البحارة الانجليز . وقد استخدمت فى ذلك العراك الايدى والقبضات الحديدية واقداح البيرة ، بل وتقاذفوا ببراميل المقاعد . ولم يكن مما يشرف البحارة الروس والحق يقال انهم هم الذين بدأوا العراك ، وكانوا أول من لجأ الى الخناجر ، ولم يتمكنوا من اخراج الانجليز من الحانة الا بعد نصف ساعة من القتال رغم انهم كانوا يفوقونهم عددا بثلاثة اضعاف .

وكثيرا ما كان تدخل ساشكا يوقف الشجار الذى كانت تفصله عن سفك الدماء شعرة .

كان يتجه الى المتشاجرين وهو يمزح ويبتسم ويقلب سحنته ، فتمتد اليه الايدى بالاقداح فورا من جميع الاركان .

— قدحا يا ساشكا ! . . . اشرب معى يا ساشكا ! . . استحلفك . . بالاخوة . . بالشرف . . بالمعروف ! . .

ربما كان يؤثر فى هذه النفوس البسيطة المتوحشة تلك الطيبة المستكينة المضحكة المنبعثة بمرح من عينيه المختبئتين فى جمجمته المنحدرة ؟ وربما كان احترام من نوع خاص لموهبته وشيء اشبه بالامتنان ؟ او ربما ايضا لان معظم رواد جمبرينوس الدائمين كانوا من مدينى ساشكا الخالدين . ففى أيام «الديكوخت» العسيرة ، والتى تعنى فى لهجة أهل البحر والموانئ الافلاس التام ، كانوا يستلفون من ساشكا ، دون تحرج ودون رفض منه مبالغ صغيرة أو قروضا صغيرة من البوفيه .

وبالطبع لم يكن أحد يرد له الدين — بسبب النسيان لا عن عمد خبيث — ولكن فى لحظات العربدة كان هؤلاء المدينون يردون

له القرض اضعافا مضاعفة لقاء اغانيه .

وكانت عاملة البوفيه تقول له مؤنبة أحيانا :

— اننى اعجب لك يا ساشا ، كيف تهون عليك نقودك ؟

فيرد عليها بثقة :

— يا مدام ايفانوفا . لن آخذها معى الى قبرى . انها تكفينى انا وبيلوتشكا . بيلوتشكا ، يا كلبى الصغير ، تعال هنا .

٥

وكانت تظهر فى جمبرينوس اغانيها الموسمية الحديثة الخاصة .

فأثناء حرب الانجليز ضد البور ازدهر هنا «مارش البور» (ويبدو أن عراك البحارة الروس الشهير مع البحارة الانجليز يرجع الى تلك الفترة) . وكان ساشكا يضطر الى عزف هذه المقطوعة البطولية ما لا يقل عن عشرين مرة فى الليلة ، وفى نهايتها يلوح الحضور حتما بالكابات ويصيحون

«هورا» ، ويلقون نظرات شذرة على اللامبالين ، الأمر الذى لم يكن دائما نذيرا طيبا فى جمبرينوس .

ثم اقتربت الاحتفالات الفرنسية الروسية * . وسمح حاكم المدينة ، وسحنته مقلوبة ، بعزف «المرسيليز» . فكان الرواد يطلبونها هى الأخرى كل يوم ، ولكن ليس بالكثرة التى كانوا يطلبون بها مارش البور ، كما كانت صيحات «هورا» اضعف ، ولم يلوحوا بالكابات مطلقا . وكان ذلك يرجع الى انه لم تكن فى النشيد نغمات تثير الاحاسيس العاطفية من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يفهم رواد جمبرينوس بالدرجة الكافية الاهمية السياسية للحلف ، ومن ناحية ثالثة فقد لوحظ أن الذين يطلبون «المارسيليز» ويصيحون «هورا» كل مساء هم نفس الأشخاص .

وكاد لحن «كيك — ووك» أن يصبح موضة ، بل ورقصه ذات مرة وسط البراميل أحد التجار العابرين الهائمين دون ان يخلع

* يبدو انها كانت بمناسبة زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لوبيه لروسيا والذكرى العاشرة للحلف السياسى العسكرى بين روسيا وفرنسا — المترجم .

معطفه الفراء وخفه العالى وطاقيته الثعلبية . ولكن هذه الرقصة الزنجية سرعان ما اصبحت فى طى النسيان .

ثم اندلعت الحرب اليابانية العظمى . وأصبحت حياة رواد جمبرينوس سريعة الايقاع . وظهرت الصحف على البراميل وفى المساء دار الجدل عن الحرب . وتحول ابسط الناس وأهدؤهم الى رجال سياسة واستراتيجية ، ولكن كلا منهم كان يعانى فى دخيلته من القلق ، ان لم يكن على نفسه ، فعلى اخيه ، او بالأدق على رفيق قريب ، فقد تبدت جلية فى هذه الايام تلك الرابطة القوية وغير المرئية التى تصهر البشر الذين ظلوا طويلا يتقاسمون العمل والخطر والمعايشة اليومية للموت .

وفى البداية لم يشك أحد فى انتصارنا — وحصل ساشكا من مكان ما على «مارش كوروباتكين» * وعزفه عشرين ليلة متتالية بنجاح

* مارش عسكرى تكريما للجنرال كوروباتكين (١٨٤٨ — ١٩٢٥) القائد العام للقوات البرية الروسية اثناء الحرب الروسية اليابانية حتى مارس ١٩٠٥ — المترجم .

محدود . ولكن «مارش كوروباتكين» أخلى المكان ذات ليلة والى الابد لاغنية حملها معهم صيادو مدينة بلاكلافا ، «اليونانيون المملحون» ، او «البندوس» كما كانوا يدعونهم هنا .

آه ، لماذا أخذونا للجندية
وارسلونا الى الشرق الأقصى ؟
وهل أذنبنا اذ ولدنا
بقامات أطول قليلا ؟

ومن يومها لم يعد أهل جمبرينوس يرغبون فى سماع شىء آخر . وطوال الليالى لم يكن يتردد غير :

— ساشكا ، العاطفية يا ساشكا . . البلاكلافية ! الاحتياطية يا ساشكا !

كانوا يغنون ويبكون ويشربون ضعف المعتاد ، كما كانت تشرب روسيا آنذاك عن بكرة أبيها . وكل مساء كان يأتى أحدهم للوداع ، فيتحامل على نفسه ويتشجع ، ويخطر كالديك ، يلقى

بطاقيته على الأرض ، ويتوعد بسحق اليابانيين جميعا بمفرده ، ثم ينهى الامسية بالاغنية العاطفية والدموع .

وذات مرة قدم ساشكا الى جمبرينوس مبكرا عن المعتاد . وبعد ان صبت له عاملة البوفيه قدحه قالت له كالعادة :

— اعزف لنا شيئا من عندك يا ساشا ! . . .

وفجأة تقلصت شفتاه ، وارتعش القدح فى يده بشدة ، وقال وكأنه لا يصدق :

— أتدرين يا مدام ايفانوفا ؟ انهم يستدعوننى للخدمة . . للحرب .

فأشاحت مدام ايفانوفا بيديها :

— لا يمكن يا ساشا ! هل تمزح ؟

فهز ساشكا رأسه بكآبة واذعان :

— لا . لا أمزح .

— ولكنك تجاوزت السن يا ساشا ، اليس كذلك ؟ كم عمرك ؟

لم يهتم أحد قبل الآن بهذه المسألة . كان الجميع يعتقدون ان ساشكا من عمر جدران هذه الحانة ومركيزاتها وأوكرانييها وضفادعها بل

ومن عمر الملك جمبرينوس المطلى نفسه الذى يحرس مدخلها .

وفكر ساشا وقال :

— ستة وأربعون ، وربما تسعة وأربعون — وأضاف بغم — اننى يتيم .

— اذهب اذن واشرح ذلك للمسئولين .

— لقد ذهبت يا مدام ايفانوفا وشرحت .

— هه . . وماذا ؟

— قالوا لى : أيها اليهودى القذر ، ايها السحنة اليهودية ، لو تحدثت فى هذا ثانية فستساق الى الحجز . . . وناولونى هنا . . .

وفى المساء كانت جمبرينوس كلها على علم بالنبأ ، ومن باب العطف على ساشا أسكروه حتى الموت . وقد حاول ان يمزح ويقلب سحنته ويغمز بعينيه ، لكن الحزن والرعب أطلا من عينيه المستكينتين المضحكتين . وفجأة أعلن أحد العمال ، من صناع المراجل ، وكان هائل الجسم ، انه مستعد للذهاب الى الحرب بدلا من ساشا . وكانت حماقة هذا العرض واضحة للجميع ، ولكن ساشا تأثر به فدمعت

عيناه وعانق عامل المراجل — واهداه كمانه على الفور . وترك «بيلوتشكا» لعاملة البوفيه .

— اعتنى بالكلب يا مدام ايفانوفا ، فربما لم أعد ، وعندئذ يبقى كذكرى لساشا . بيلوتشكا يا كلبى العزيز ! انظرى ، انه يتلمظ . آه ايها المسكين . . . سأكتب لك بعض العناوين . فى جوميل لى ابن عم ، ولديه أسرة ، وفى جمبرينكا تعيش أرملة ابن اخى . اننى ارسل لهم كل شهر . . . نعم ، نحن اليهود هكذا . . . نحب الاقارب . . وانا يتيم ، وحيد . وداعا يا مدام ايفانوفا .

— وداعا يا ساشا ! دعنى أقبلك قبلة الوداع . أوه ، كم سنة . . . ولا تغضب فسأباركك بالصليب قبل الرحيل .

كان الحزن عميقا فى عينى ساشا ولكنه لم يتمالك نفسه من المزاح لآخر مرة فقال :

— ولكن يا مدام ايفانوفا ، ألن يقضى علىّ الصليب الروسى ؟

٦

أقفرت جمبرينوس وأوحشت وكأنما حل بها اليتم بعد غياب ساشكا وكمانه . وحاول صاحبها ، لكى يبقى على الزبائن ، أن يستأجر فرقة رباعية من عازفى المندولين الجوالين كان احد افرادها يؤدى المنولوجات الفكاهية من فوق المنصة ويأتى بحركات جسدية مشينة متنكرا فى زى رجل انجليزى مضحك ، ذى فودين أحمرين وأنف مستعار ، ويرتدى سروال كاروهات وياقة أعلى من اذنيه . ولكن الفرقة لم تحظ بأى نجاح ، على العكس ، كان افرادها يقابلون بالصفير ويقذفونهم ببقايا السجق ، وذات مرة ضرب الصيادون نجم الفرقة الفكاهى عندما عرّض بساشكا .

ومع ذلك كان يتردد على جمبرينوس بدافع العادة رجال البحر والموانئ من الذين لم تدفعهم الحرب الى الموت والآلام . وفى البداية كانوا يتذكرون ساشكا كل مساء :

— آه لو كان هنا ساشكا ! ترك وحشة فى القلب !

— نعم . . . ترى أين انت الآن يا صديقنا العزيز ؟

ويبدأ أحدهم فى غناء اغنية موسمية جديدة :

فى حقول منشوريا البعيدة . . .

ثم يصمت محرجا ، بينما يقول آخر فجأة :

— الجروح أنواع . . الجرح النافذ ، والطعنة ، والقطع ، وهناك التهتك . . .

بالنصر أهنئ نفسى
ولقطع ذراعك — مبروك . . .

— مهلا ، مهلا ، لاتعو . . يا مدام ايفانوفا ، هل هناك اخبار من ساشكا ؟ رسائل او بطاقات ؟

أصبحت مدام ايفانوفا الآن تقرأ الصحف طوال فترات المساء . وكانت تمسك بالصحيفة ممدودة امامها على طول الذراع ، وتلقى برأسها الى الوراء وتحرك شفتيها وهى تقرأ . وكان «بيلوتشكا» يستلقى على ركبتيها وهو يشخر فى اطمئنان . لم تعد عاملة البوفيه تشبه ذلك القبطان النشيط

اليقظ ، وأصبح رجال طاقمها يجولون فى
الحانة متراخين نعسانين .

وهزت رأسها ببطء ردا على السؤال عن
مصير ساشكا :

— لا أعرف شيئا . . . ليس هناك رسائل ،
والصحف لا تذكر شيئا .

ثم تخلع نظارتها ببطء وتضعها مع الجريدة
الى جوار «بيلوتشكا» الدافئ ، وتدير وجهها وتنتحب
بصوت خافت .

واحيانا كانت تميل على الكلب وتقول بصوت
شاك مؤثر :

— ماذا يا بيلوتشكا ؟ ماذا ايها الكلب
الصغير ؟ أين صديقنا ساشا ؟ هه ؟ أين صاحبك ؟

فيرفع بيلوتشكا وجهه اللطيف ، ويطرف
بعينيه السوداوين المبللتين ويعوى بلهجة عاملة
البوفيه الشاكية :

— عو-وو . . عوو . . عوو-و . . .

ولكن . . . ولكن الزمن يذيب ويمحو كل
شىء . فقد حل عازفو البلالايكا محل عازفى
المندولين ، ثم حلت محلهم جوقة روسية أوكرانية

تضم فتيات ، وأخيرا استقر فى جمبرينوس
لفترة أطول عازف الاوكورديون الشهير «ليوشكا»
الذى كان يحترف السرقة ، ولكنه قرر بعد ان
تزوج أن يسلك الطريق القويم . كانوا يعرفونه
منذ زمن بعيد فى الحانات الاخرى ، ولذلك
تحملوه هنا ، وقد كان عليهم ان يتحملوه
لأن أمور جمبرينوس كانت فى غاية السوء .

ومرت الشهور ، وانقضت سنة . ولم يعد
أحد يذكر ساشكا الا مدام ايفانوفا ، وحتى هى
لم تعد تنتحب عند ذكر اسمه . ومرت سنة
أخرى . ويبدو ان الكلب الابيض نفسه قد
نسى ساشكا .

ولكن خلافا لمخاوف ساشكا ، لم يقض
الصليب الروسى عليه ، بل لم يصب بجرح
واحد ، رغم اشتراكه فى ثلاث معارك كبيرة ،
بل واشتراكه ذات مرة فى هجوم سار فيه أمام
الكتيبة ضمن الفرقة الموسيقية التى عينوه فيها
عازفا على المزمار . وعند محطة «وفانغو» وقع فى
الاسر ، وبعد انتهاء الحرب أعيد على ظهر
سفينة ألمانية الى ذلك الميناء الذى كان يعمل

فيه اصدقاؤه ويعربدون .

وسرى نبأ عودته كالتيار الكهربائى فى جميع الخلجان والمرافئ والمراسى والورش . . وفى المساء غصت جمبرينوس بالرواد حتى اضطر عدد كبير منهم الى الوقوف ، وكانت أقداح البيرة تمر من يد الى يد فوق الرؤوس ، ورغم انصراف الكثيرين دون دفع الحساب ، فقد ربحت جمبرينوس كما لم تربح أبدا من قبل . وأحضر عامل المراجل كمان ساشكا ، وكان قد لفه بعناية فى منديل زوجته الذى باعه وسكر بثمنه على الفور . ومن مكان ما أحضروا آخر عازف بيانو كان يصاحب ساشكا . اما عازف الاكورديون ليوشكا الذى كان شخصا غيورا ومعتدا بنفسه فقد حاول أن يحتج غاضبا ، فأخذ يردد بعناد : «اننى أعمل باليومية ، ومعى عقد عمل» ولكنهم القوا به ببساطة الى الخارج ولولا تدخل ساشكا لضربوه .

وربما لم يلق بطل واحد من ابطال الحرب اليابانية الروس مثل هذا الاستقبال القلبى والعاصف الذى لقيه ساشكا ! لقد التقطته الايدى القوية

الغليظة وطوحت به عاليا وبقوة حتى كاد يتحطم مصطدما بالسقف . وأخذوا يصيحون بصوت يصم الآذان انطفأت بسببه السنة اللهب فى المصابيح الغازية ، ودخل الشرطى الحانة عدة مرات وهو يرجوهم ان «يهدأوا قليلا لأن ضجتهم فى الشارع كبيرة» .

فى ذلك المساء عزف ساشكا جميع اغانى ورقصات جمبرينوس المفضلة . وعزف ايضا اغانى يابانية حفظها فى الأسر ، ولكنها لم تعجب المستمعين . اما مدام ايفانوفا فقد استقرت بنشاط على جسرها القبطانى وكأنما بعثت من الموت ، بينما جلس «بيلوتشكا» على ركبتى ساشكا وهو يعوى من الفرحة . وفى بعض الأحيان ، عندما يتوقف ساشكا عن العزف ، كان صياد ما بسيط القلب يصيح فجأة بدهشة ساذجة فرحة ، وكأنما أدرك توا معجزة رجوع ساشكا :

— انه ساشكا يا جماعة !

فتمتلئ صالتا جمبرينوس بضحك غليظ كالصهيل وبالقفشات اللاذعة والشتائم المرحة ، ويمسكون بساشكا من جديد ويقذفون به الى السقف ،

ويصيحون ويشربون ويقرعون الاقداح ويسكبون البيرة على بعضهم .

وبدا ان ساشكا لم يتغير ابدا ولم يكبر خلال فترة غيابه ، فقد كان تأثير الزمن والمصائب عليه ضعيفا مثلما كان بالنسبة لجمبرينوس حامى الحانة وراعيها . ولكن مدام ايفانوفا لاحظت بفراسة المرأة الطيبة أن تعبير الفزع والحزن الذى رأته فى عينى ساشكا ساعة الوداع لم يختف ، بل أصبح أعمق وابرز . لقد ظل ساشكا يمزح ويغمز بعينيه ويجعد جبينه كما كان يفعل من قبل ، ولكن مدام ايفانوفا أحست أنه يتصنع .

٧

سار كل شيء حسب نظامه المعهود ، وكأنما لم تكن هناك حرب ، وكأنما لم يؤسر ساشكا فى نجازاكى . وكان الصيادون ذوو الاحذية الضخمة يحتفلون كسابق العهد بصيد البال والبورى الموفق ، وترقص عشيقات اللصوص كما كن

يفعلن ، ويعزف ساشكا كما فى السابق أغانى البحارة التى حملوها الى هنا من جميع موانىء العالم .

ولكن عصرا متقلبا ، مختلطا ، عاصفا كان قد اقترب . وذات مساء أزت المدينة واضطربت ، وكأنما ايقظها رنين الاجراس الداعية ، وامتلأت الشوارع فى ساعة غير مألوفة بالبشر . وتناقلت الايدى منشورات صغيرة بيضاء مع كلمة «الحرية» الرائعة ، التى كانت ترددها فى هذا المساء بلادنا الواسعة السريعة التصديق كلها .

حلت أيام مشرقة ، بهية ، مهللة ، فأضاءت بنورها حتى أقبية جمبرينوس . وكان يفد الى هنا الطلبة والعمال ، والفتيات الجميلات أيضا . وكان الناس يقفون على هذه البراميل التى شهدت الكثير . ويخطبون بأعين متقدة . ولم يكن كثير من تلك الكلمات مفهوما ، ولكن القلوب كانت تخفق وتتفتح للقائها بسبب ذلك الأيمان الملتهب والحب العظيم اللذين كانا يتدفقان منها .

— ساشكا ، اعزف المارسيليز ! المارسيليز

يا ساشكا !

كلا . . لم يكن اللحن يشبه ذلك المارسيليز الذى كان حاكم المدينة يصرح بعزفه كارها فى أسبوع الاعياد الروسية الفرنسية . وكانت المواكب تسير فى الشوارع بلا انقطاع ، رافعة الرايات الحمراء ومنشدة . ولمعت على صدور النساء ورؤوسهن الاشرطة والزهور الحمراء . وعندما كان يلتقى اناس لا يعرف بعضهم بعضا يبتسمون فجأة ابتسامة مشرقة ويشدون على أيدى بعضهم البعض . . .

ولكن هذه الفرحة اختفت كلها فجأة وكأنها غسلت كآثار اقدام اطفال صغار على رمال الشاطئ . وذات مرة اقتحم حانة جمبرينوس مساعد رئيس الشرطة المحلية ، وكان رجلا بدينا ، قصيرا ، مختنق الأنفاس ، ذا وجه أحمر قان مثل الطماطم الناضجة جدا ، وعينين جاحظتين . وصرخ بصوت مبحوح :

— ماذا ؟ أين صاحب الحانة ؟ هاتوه هنا !

ورأى ساشكا واقفا ومعه الكمان فصاح فيه :

— انت صاحب المحل ؟ اسكت !

ماذا ؟ تعزف أناشيد ؟ اياك ان أسمع هنا نشيدا !

فأجاب ساشكا بهدوء :

— لن نعزف أية أناشيد بعد يا صاحب السعادة .

واربد رجل الشرطة وقرب من أنف ساشكا سبابته المرفوعة الى اعلى وحركها يمينا ويسارا محذرا :

— ولا نشيد !

— حاضر يا صاحب السعادة ، ولا نشيد .

— سأريكم ما هى الثورة ، سأريكم !

وانطلق مساعد رئيس الشرطة من الحانة كالقذيفة ، وسيطرت الكآبة على الجميع .

وعلى المدينة بأسرها هبط الظلام . وانتشرت شائعات سوداء ، مزعجة رهيبة . وتحدث الناس بحذر ، وكانوا يخشون أن تفضحهم نظراتهم ويرتعبون من ظلالهم ويخافون من افكارهم الخاصة . ولأول مرة فكرت المدينة برعب فى تلك البالوعة التى كانت تتململ تحت اقدامها فى الاسفل ، عند البحر ، تلك البالوعة التى ظلت تقذف

فيها بمخلفاتها السامة طوال هذه السنين . وحصنت المدينة بالالواح واجهات محلاتها المرآوية الرائعة ، ووضعت الدوريات فى حماية تماثيلها الشامخة ، ووزعت المدافع فى أفنية قصورها البديعة لمواجهة اى احتمال .

أما فى الأسفل ، قرب البحر ، فى الشوارع التى تشبه الامعاء المظلمة اللزجة ، فقد كان يجرى تدبير خفى . وظلت أبواب الحانات والمقاهى والانزال مفتوحة على مصراعيها طوال الليل .

وفى الصباح بدأت المذبحة . نفس البشر الذين هزتهم ذات مرة الفرحة العامة النقية واشرقت نفوسهم بنور الأخوة المقبلة فساروا فى الشوارع منشدين تحت رايات الحرية المنتزعة ، نفس هؤلاء البشر قد مضوا الآن ليقتلوا ، لا لان أحدا أمرهم بذلك ، ولا لانهم يكنون العداوة لليهود الذين كثيرا ما عاشوا معهم فى وفاق وصداقة وثيقة ، ولا حتى بدافع المصلحة المشكوك فيها ، بل لان الشيطان القذر الخبيث المعشش فى صدر كل انسان همس فى آذانهم :

«هيا . كل شىء مباح : القتل المحرم ولذة العنف والتسلط على أرواح الآخرين» .

كان ساشكا فى أيام المذابح يتجول بحرية فى المدينة رغم سحنته اليهودية البحتة المضحكة التى تشبه سحنة القرد . لم يكن أحد يتعرض له . فقد كان يتحلى بتلك الشجاعة الروحية الراسخة ، وعدم **الخوف من الخوف** الذى يحمى الانسان الضعيف أفضل من أى مسدس . ولكنه ذات مرة ، وكان ساشكا ملتصقا بجدار منزل ابتعادا عن الجمع المتدفق بعرض الشارع كالاعصار ، رفع احد البنائين ، وكان فى قميص أحمر ومريلة بيضاء ، ازميلا فوق رأس ساشكا وزأر :

— يهودى ! اضرب اليهودى ! سيّح دمه !

ولكن شخصا ما امسك بيده من الخلف وصاح :

— قف ايها الملعون . . هذا ساشكا . . أيها الاحمق . .

وتوقف البنّاء . لقد كان مستعدا فى لحظة الجنون والنشوة والهذيان تلك ان يقتل اى انسان . . أباه أو اخته أو القسيس أو حتى السيد المسيح

نفسه ، ولكنه في نفس الوقت كان مستعدا ان ينصاع كطفل لأية ارادة قوية .

وكشر كالمعتوه وبصق ثم مسح انفه بيده . ولكن نظره وقع فجأة على كلب أبيض عصبي كان يرتعد ويتمسح بساشكا . وانحنى البناء بسرعة وامسك بالكلب من ساقيه الخلفيتين ورفعه عاليا وساشكا ينظر اليه فى صمت ، ودق رأسه على حجر الرصيف . ثم انطلق يركض مائلا بجسمه كله الى الامام ، مادا ذراعيه ، حاسر الرأس مفغور الفم ، بعينين واسعتين بيضاوين مجنونتين .

وتناثر مخ بيلوتشكا على حذاء ساشكا ، فمسح البقعة بالمنديل .

٨

ثم جاء زمن غريب ، يشبه نعاس رجل مشلول . ففى المساء لم يكن النور يلوح من اى نافذة فى المدينة ، ولكن يافطات المقاهى

ونوافذ الحانات كانت تتلألأ بالاضواء . كان المنتصرون يختبرون سلطتهم وهم بعد لم يشبعوا من الفوضى . وكانت جماعات جامحة يضع افرادها على رؤوسهم لبدات منشورية واشرطة اوسمة جيورجى فى عروات ستراتهم ، يطوفون بالمطاعم ، ويطلبون بالحاح وقح عزف السلام الوطنى ويعملون على ان يقف الجميع أثناء ذلك . وكانوا أيضا يقتحمون المساكن الخاصة ويفتشون فى الأسرة والدواليب ، ويطلبون الفودكا والنقود والسلام الوطنى ويملأون الهواء بتجشآت مخمورة .

وذات مرة جاء عشرة منهم الى جمبرينوس واحتلوا طاولتين . كانوا يتصرفون بتحد لا حدود له ، ويأمرون وينهون الخدم ، ويبصقون عبر رؤوس الجيران ، ويضعون اقدامهم على مقاعد الآخرين ، ويسكبون البيرة على الأرض بحجة أنها غير طازجة . ولم يمسهم أحد ، فقد كان الجميع يعلمون أنهم من المخبرين ، وكانوا ينظرون اليهم بذلك الرعب الخفى والفضول المتقزز الذى ينظر به بسطاء الناس الى الجلادين . وظهر من بينهم شخص بدا واضحا انه الزعيم .

كان يدعى موتكا الاخنف ، أحمر الشعر ، محطم الأنف ، ذا قوة بدنية هائلة كما يقال . وكان لصا سابقا وفتوة فى بيت دعارة ، ثم أصبح قوادا ومخبرا . وكان يهوديا اعتنق المسيحية .

وكان ساشكا يعزف «العاصفة الثلجية» . وفجأة اقترب منه الاخنف وأمسك بيده اليمنى بقوة ، واستدار الى الصالة وصاح :

— السلام ! السلام الوطنى ! يا جماعة ، السلام الوطنى تكريما للمليك المفدى . . هيا !

فزأر الاوغاد ذوو اللبدات :

— السلام ! السلام !

وصاح من بعيد صوت وحيد متردد :

— السلام !

ولكن ساشكا شد يده وقال بهدوء :

— ولا أى سلام .

فزأر الاخنف :

— ماذا ؟ أترفض ؟ ايها اليهودى النتن !

وانحنى ساشكا الى الامام حتى اقترب تماما من الاخنف ، وسأله وهو مقطب الوجه وممسكا بكمانه المنكس من طرفه :

— وأنت ؟

— ماذا أنا ؟

— أنا يهودى نتن . . حسنا ، وأنت ؟

— أنا مسيحى .

— مسيحى ؟ مقابل كم ؟

وضجت جمبرينوس كلها بالضحك ، أما الاخنف فقد التفت الى رفاقه وقد امتقع من شدة الحقد . وقال بصوت باك مرتعش كلمات محفوظة عن شخص آخر :

— يا جماعة ! يا جماعة ! الى متى سنظل صابرين على سخرية اليهود بالعرش والكنيسة المقدسة ؟ . . .

ولكن ساشكا وقف على منصته ، وبصوت واحد جعله يلتفت اليه . ولم يكن أحد من رواد جمبرينوس ليصدق ان ساشكا المضحك العابث يستطيع ان يتحدث بهذه اللجهة القوية المتسلطة .

صاح ساشكا :

— اسمع . . انت يا ابن الكلب ! أرنى وجهك أيها القاتل . انظر الىّ ! . . هيا !

وحدث كل شيء بسرعة خاطفة . فقد ارتفع كمان ساشكا عاليا وومض فى الجو ، ثم . . طراخ ! وترنح الرجل الطويل ذو اللبدة من الضربة التى تلقاها على صدغه . وتناثر الكمان المحطم ، ولم يبق فى يد ساشكا الا طرفه ، الذى رفعه بظفر فوق رؤوس الحشد .

وصرخ الاخنف :

— يا جماعة ! الحقونى !

ولكن الوقت للنجدة كان متأخرا . فقد احاط جدار قوى بساشكا واخفاه . وألقى نفس الجدار بذوى اللبدات الى الشارع .

ولكن بعد ساعة ، عندما أنهى ساشكا عمله ، وخرج من الحانة الى الرصيف ، هجم عليه عدة اشخاص . وضرب أحدهم ساشكا فى عينه وصفّر ، وقال للشرطى القادم ركضا :

— الى قسم البولفار . قضية سياسية . هذه شارتى .

٩

واعتبر ساشكا من جديد والى الأبد فى عداد الأموات . فقد رأى شخص ما الواقعة التى جرت على الرصيف بجوار الحانة ورواها للآخرين . وكان رواد جمبرينوس من المجربين الذين يعرفون جيدا ما هو قسم البولفار وما الذى يعنيه انتقام المخبرين .

ولكنهم فى هذه المرة لم يقلقوا كثيرا لمصير ساشكا ونسوه أسرع من المرة السابقة . وبعد شهرين احتل مكانه عازف كمان جديد (هو تلميذ ساشكا بالمناسبة) جاء به عازف البيانو .

وذات مرة ، بعد حوالى ثلاثة أشهر ، وفى مساء ربيعى هادئ ، عندما كان العازفان يعزفان فالس «الانتظار» صاح صوت رفيع بذعر :

— يا جماعة ، ساشكا !

واستدار الجميع ونهضوا من على البراميل . نعم ، كان ذلك ساشكا ، الذى بعث حيا مرتين ، ولكنه الآن كان هزيلا ، شاحبا ، ملتحيا . وانقضوا عليه واحاطوا به وهم يشدونه

ويعانقونه ويدفعون اليه بأقداح البيرة . ولكن ذلك الصوت صاح فجأة :

— يا جماعة ! انظروا يده ! . . .

وصمت * الجميع على الفور . كانت ذراع ساشكا اليسرى ملوية وكأنما جعدت ، والتوى مرفقه الى جنبه . ويبدو انها لم تكن تنبسط أو تنقبض ، بينما تصلبت اصابعه بجوار ذقنه الى الأبد .

وأخيرا سأل رئيس نوتية «الجمعية الروسية» ذو الشعر الغزير :

— ماذا جرى لك يا رفيق ؟

فأجاب ساشكا باستخفاف :

— لا شيء ، بسيطة . . يبدو انه عرق التوى أو شيء مثل ذلك . . .

— هكذا . . .

وصمت الجميع من جديد .

وسأل رئيس النوتية بعطف :

— اذن فقد انتهى «الراعى» ؟

فقال ساشكا :

— «الراعى» ؟ — ولمعت عيناه ، وأمر

العازف الذى كان يصاحبه بثقة مألوفة — اسمع يا هذا . . «الراعى» ! هيا . . آين ، تسفى ، درى ! . .

ودق عازف البيانو رقصة مرحة وهو يتلفت الى الخلف بشك . ولكن ساشكا اخرج من جيبه بيده السليمة آلة سوداء مستطيلة صغيرة بحجم الكف ، ولها وصلة ، ثم وضع هذه الوصلة فى فمه ، ومال بجسمه كله الى جنبه الأيسر بالقدر الذى سمحت له به ذراعه المشوهة المتصلبة ، وفجأة صفّر لحنا صادحا مرحا لأغنية «الراعى» .

وضج الحاضرون بضحك فرح .

وهتف رئيس النوتية :

— يا للشيطان !

ودون ان يتوقع حتى هو نفسه خطا الى الأمام بخفة وراح يقوم بحركات سريعة . وسرت عدواه الى الحاضرين فرقصوا رجالا ونساء . حتى الخدم مضوا يدقون بأقدامهم فى اماكنهم محاولين الاحتفاظ بمظهر الوقار . بل حتى مدام ايفانوفا . . . فقد نسيت مهام القبطان وأخذت تهز رأسها على

ايقاع الرقصة النارية وتطقطق بأصابعها قليلا . وربما كان جمبرينوس العجوز نفسه ، جمبرينوس المسامى الذى نخره الزمن ، ربما كان يحرك حاجبيه وهو يتطلع الى الشارع بمرح ، وبدا كأن الصفارة الساذجة فى يدى ساشكا المشوه المنطوى كانت تغنى بلغة غير مفهومة بعد للاسف لا لاصدقاء جمبرينوس ولا لساشكا نفسه وتقول :

— لا بأس ، قد يمكن تشويه الانسان ، أما الفن فيبقى وينتصر .

عام ١٩٠٧

زمرد

مهداة الى ذكرى «خولستومير» ،
العداء الأبلق الذى لا مثيل له

١

استيقظ «زمرد» ، الجواد ابن الاربع سنوات — وهو حصان سباق وافر الجسم ، كالجياد الامريكية ، ذو لون أشهب مستو بين الفضى والازرق — استيقظ كالعادة قرب منتصف الليل فى مربطه . وبالقرب منه ، عن يمينه وشماله ، وقبالته عبر الطرقة ، كانت الجياد تمضغ الدريس بانتظام وسرعة وكأنها تأكل جميعا على ايقاع واحد ، وهى تصر بأسنانها بصورة تثير الشهية ، وتنخر أحيانا بأنوفها طردا للغبار . وفى زاوية الاصطبل كان السائس المناوب يغط فى نومه فوق كومة من القش . وكان زمرد يعرف من تعاقب الايام ومن أصوات الشخير الخاصة ان هذا السائس هو فاسيلى ، الفتى اليافع ، الذى لم تكن الجياد

تحبه لانه كان يدخن فى الاصطبل تبغا كريه الرائحة وكثيرا ما يأتى الى المرابط وهو مخمور ويلكز الجياد فى بطونها بركبته ، ويهدد بقبضته ملوحا بها أمام أعينها ، ويشد الرسن بخشونة ، وكان دائما يصيح فى الخيول بصوت مبحوح متوعد غير طبيعى .

اقترب زمرد من قفص الباب . قبالته ، بابا لباب كانت الفرس الشابة الكحلاء «غندورة» التى لم تكتمل انوثتها بعد تقف فى مربطها . ولم يميز زمرد جسدها فى الظلام ، ولكن عندما كانت ترفع رأسها عن الدريس ، وتلتفت الى الوراء ، تومض عينها الكبيرة لعدة ثوان بنور بنفسجى جميل . ووسع زمرد منخاريه وظل يستنشق الهواء طويلا فشم رائحة جسدها التى لا تكاد تلحظ ، والقوية المثيرة مع ذلك ، فصهل صهيلا قصيرا . واستدارت الفرس بسرعة وردت بصهيل رفيع مرتعش رقيق لعوب .

وعلى الفور سمع زمرد على يمينه زفيرا غيورا غاضبا . كان ذاك مربط «أنيجين» ، الجواد العجوز ، الكميت الجامح ، الذى كان

لا يزال يشارك أحيانا فى السباق الفردى . كان يفصل بين الجوادين ساتر رقيق من ألواح الخشب ، فلم يكن أحدهما يرى الآخر ، ولكن زمرد ألصق منخاره بالطرف الأيمن لقفص الباب فشم بوضوح رائحة الدريس الممضوغ الدافئة المنبعثة من منخارى أنيجين ، وسمع زفيره يتردد بسرعة ... وهكذا ظل الجوادان يتشامان بعض الوقت فى الظلام ، وقد ألصقا آذانهما برأسيهما ومدا عنقيهما ، والغضب يتصاعد فيهما . وفجأة صهلا فى وقت واحد بحنق ، وصرخا وهما يدقان الأرض بحوافرهما .

وصاح السائس بنبرة تهديد مألوف ناعسة :

— هس ، يا بتاع الكلب !

وارتد الحصانان عن قفص الباب فى ترقب . كانا يكرهان بعضهما منذ أمد طويل ، أما الآن ، ومنذ ثلاثة أيام خلت ، عندما وضعوا فى هذا الاصطبل الفرس الكحلاء الرشيقة — الامر الذى لم يكن يحدث عادة ، ولكنهم اضطروا اليه لنقص الاماكن اثناء عجلة السباق — فلم يكن يوم يمر دون أن تنشب بينهما عدة

مشاجرات كبيرة . كانا يستفزان بعضهما للعراك هنا ، وفى حلبة السباق ، وعند المورد . ولكن زمرد كان يشعر فى قريرته بشىء من الخوف امام هذا الحصان الطويل القامة المعتد بنفسه ، ومن تلك الرائحة الحادة لحصان شرير ، ومن هذه الحنجرة البارزة كحنجرة الجمل ، ومن هاتين العينين الغائرتين العابستين ، وكان يشعر بالخوف خاصة أمام هيكله القوى وكأنه قُدّ من حجر ، والذى مرسته الاعوام وازداد قوة فى المسابقات والمشاجرات السابقة .

وتظاهر زمرد أمام نفسه بأنه لا يخاف على الاطلاق ، وان شيئا لم يحدث الآن فاستدار وأنزل رأسه فى المذود وراح يقلب الدريس بشفتيه اللينتين المرنتين المشدودتين . ومضى فى البداية يقضم بعض العيدان بنزق ، ولكن مذاق العشب الممضوغ فى فمه سرعان ما شده فانكب على الدريس بجدية . وفى الوقت نفسه راحت افكار بطيئة لامبالية تدور فى رأسه وهى تعلق بذكريات صور وروائح وأصوات ، وتضيع الى الابد فى تلك الهوة السوداء العميقة التى كانت تكمن أمام

وخلف اللحظة الحاضرة .

«الدريس» . . قال لنفسه وتذكر كبير السواس «نزار» الذى وضع له العلف أمس .

نزار عجوز طيب . تفوح منه دائما نكهة الخبز الاسود المريحة ورائحة الخمر الخفيفة ، وحركاته متأنية وناعمة ، ويبدو الشعير والدريس فى ايام نوبته ألذ ، وترتاح الاذن الى سماعه وهو يكلم الحصان اثناء تنظيفه بصوت خافت ونبرة تأنيب رقيق ويزجر باستمرار . ولكن ينقصه شىء ما أساسى ، شىء حصانى ، وتحس خلال اللجام اثناء التمرين ان يديه ليستا واثقتين ولا دقيقتين .

وفاسيلى ينقصه هذا أيضا ، ورغم انه يصرخ ويضرب ، الا ان الخيول كلها تعرف أنه جبان فلا تخشاه . كذلك فهو لا يجيد الركوب . . يجذب اللجام ويكثر من الحركة . أما السائس الثالث ، الاعور ، فأفضل منهما ، ولكنه لا يحب الخيول ، وهو قاس وفارغ الصبر ، ويداه جامدتان كأنما من خشب . والسائس الرابع أندرياشكا صبى صغير يلعب مع الخيول

كالمهر الرضيع ، ويقبل خلسة فى الشفة العليا وبين المنخارين . . وهذا شيء مضحك ومزعج بعض الشيء .

اما ذلك الطويل النحيف ، المقوس ، ذو الوجه الحليق والنظارة الذهبية . . . أوه ، انه شيء آخر تماما . انه مثل فرس غير عادية . فرس حكيمة قوية شجاعة . انه لا يغضب أبدا ، ولا يضرب بالسوط ابدا ، بل حتى لا يهدد به ، ولكنه عندما يجلس على العجلة الامريكية تحس بسعادة وفخار وخوف لذيذ وأنت تستجيب لكل اشارة من اصابعه القوية ، الذكية ، الخبيرة بكل شيء . هو وحده الذى يستطيع أن يبلغ بزمرد تلك الحالة من حالات الانسجام السعيد ، التى يركز فيها كل قواه فى سرعة العدو ، وكم يبدو ذلك ممتعا وبهيجا .

وعلى الفور رأى زمرد فى خياله الطريق القصير المؤدى الى ميدان السباق ، وكل منزل وكل نصبة فيه تقريبا ، ورأى رمل الميدان ومدرجاته والخيول الراكضة ، وخضرة العشب وصفرة الشريط الرملى . وتذكر ذلك الكميت الفاحم ، ابن

الثلاثة اعوام ، الذى التوت ساقه اثناء التدريب منذ عدة ايام فصار يعرج . وعندما فكر زمرد فيه حاول بخياله ان يعرج قليلا .

وتناول زمرد بفمه حزمة من الدريس ، فأحس لها بمذاق خاص لذيذ لا مثيل له . فأخذ يمضغها طويلا ، وبعد ان ابتلعها ظل بعض الوقت يحس فى فمه بنكهة عطرة مرهفة لازهار ما ذابلة وأعشاب جافة زكية الرائحة . ومرت فى خاطره ذكرى بعيدة غامضة مبهمة تماما . وكان ذلك يشبه ما يحدث احيانا لبعض المدخنين عندما يستنشقون نفثة دخان عابرة فى الشارع فتبعث فيهم فجأة وللحظة خاطفة صورة طرقة شبه مظلمة مكسوة بورق جدران قديم الطراز وشمعة وحيدة على البوفيه ، أو طريق ليلى بعيد ، وصليل أجراس رتيب ونعاس فاتر ، او غابة زرقاء فى الافق وثلوج تغشى البصر وصخب مطاردة صيد زاحفة ، وانتظار ممض يبعث الرعشة فى الساقين . . . الآن ستمر سراعا على النفس تلك المشاعر المنسية المثيرة والتى شفت الآن فلا تدرك ، ستمر فتحرك فى النفس اشجانا وحنينا ورقة . . .

وفى تلك الاثناء راحت الطاقة السوداء فوق المذاود ، والتى كانت الى الآن غير واضحة ، تتحول الى اللون الرمادى وتبرز ملامحها شاحبة فى الظلام . وكانت الخيول تمضغ الدريس بأبطأ من السابق ويزفر الواحد منها تلو الآخر زفرات ثقيلة ناعمة . وصاح ديك فى الفناء بصوت رنان نشيط حاد كصوت النفير . وظل صياح الديكة الأخرى ينداح طويلا وبعيدا فى مختلف الاماكن بلا انقطاع .

ودس زمرد رأسه فى المذود وهو يحاول ان يستعيد من جديد ويحتفظ فى فمه بتلك النكهة الغريبة التى ايقظت فيه ذلك الرجع المرهف ، والمجسد تقريبا لذكرى غير مفهومة . لكنه لم يفلح فى بعثه ، ودون ان يلحظ هو نفسه ، استغرق فى النعاس .

٢

كانت قوائمه وجسده بلا عيوب وكاملة التكوين ، ولذلك كان ينام دائما وهو واقف ،

يتمايل قليلا الى الامام والخلف . وأحيانا كان ينتفض ، وعندها يتحول سباته العميق الى نعاس مرهف لعدة ثوان ، بيد أن لحظات النوم القليلة كانت من العمق بحيث تتمكن جميع عضلاته واعصابه وجلده من أن تستجم خلالها وتنتعش .

وقبيل الفجر مباشرة رأى فى المنام صباحا ربيعيا مبكرا وضوءا أحمر فوق الافق ، ومرجا عبقا . كان العشب كثيفا ونضرا ، يفيض بخضرة خرافية ساحرة وقد كساه الفجر بلون وردى رقيق مثلما يبدو للبشر والوحوش فى الطفولة المبكرة فقط ، وكان الندى يتلألأ فى كل مكان بومضات مرتعشة . وفى الهواء الخفيف المخلخل تسرى شتى الروائح بوضوح مدهش . فتفوح خلال برودة الصباح رائحة الدخان الذى يتلوى شفافا أزرق فوق مدخنة فى القرية ، ويتضوع من كل زهرة فى المرج عبير خاص ، وعلى الطريق المبلل ، الذى تركت فيه العربات خطين غائرين ، اختلطت روائح عديدة : روائح البشر والقطران وروث الخيول والتراب واللبن البقرى الدافئ

من قطيع عابر ، ونكهة صمغية عطرة من ألواح السور الصنوبرية .

ويركض زمرد ، المهر القصير العرف ، ابن السبعة اشهر ، فى الحقل على غير هدى ، منكس الرأس وهو يرفس برجليه الخلفيتين . ويبدو كأنما صنع من مادة أثيرية ، فلا يحس لجسده وزنا . ومن تحت قدميه تفر زهور الاقحوان البيضاء العطرة الى الوراء بلا نهاية . يركض نحو الشمس مباشرة . ويضربه العشب المبلل على ارساغه وعلى ركبه فيبعث فيها البرودة ويجعل لونها داكنا . السماء الزرقاء ، والعشب الاخضر ، والشمس الذهبية ، والهواء البديع ، ونشوة الصبا السكرى والقوة وسرعة العدو !

ولكنه يسمع صهيلا قصيرا ، مضطربا ، رقيقا وداعيا ، صهيلا جد مألوف ، حتى انه يميزه عن بعد بين آلاف الاصوات الاخرى . فيتوقف فجأة وهو منطلق بأقصى سرعة ، ويصغى لحظة وقد رفع رأسه عاليا ، ويحرك أذنيه الرقيقتين وينشر كالمكنسة ذيله القصير المنفوش ، ثم يرد بصيحة طويلة متموجة يهتز لها بدنه

الرشيق النحيل كله بقوائمه الطويلة ، ويندفع نحو أمه .

أما هى — الفرس العجوز المعروقة الهادئة — فترفع عن العشب وجهها المبلل وتشم المهر بسرعة وعطف ، ثم تعود على الفور الى قضم العشب وكأنها تريد ان تفرغ بسرعة من عمل عاجل . ويحنى المهر عنقه المرن ويدسه تحت بطنها ويرفع وجهه الى أعلى ويدفع شفتيه بحركة مألوفة بين ساقيها الخلفيتين ، ويعثر على الحلمة الدافئة المشدودة المترعة بلبن حلو ، حامض قليلا يطرطش على فمه خيوطا رفيعة دافئة ، فيظل يرضع ويرضع وهو لا يستطيع ان يتوقف . وعندئذ تسحب الام مؤخرتها بنفسها وتتظاهر بأنها تريد ان تعض المهر فى خن وركه .

عم النور الاصطبل . واقترب التيس العجوز الملتحى الكريه الرائحة ، الذى كان يعيش هنا بين الخيول ، من الباب الموصد من الداخل بعرق خشب وثغا وهو يتلفت خلفه الى السائس . ونهض فاسيلى ومضى حافيا وهو يحك رأسه ليفتح له الباب . كان الصباح خريفيا أزرق

باردا . وعلى الفور التفت فتحة الباب المستطيلة ببخار دافئ اندفع من الاصطبل . وانتشرت فى المرابط رائحة الندى المتجمد والاوراق الذابلة .

كانت الخيول تعرف جيدا انهم سيقدمون لها الشعير الآن فراحت تحمحم بصوت خافت معبرة عن نفاد صبرها . وأخذ أنيجين الشره النزق يدق بحافره على الارضية الخشبية ويعض بأسنانه العليا — حسب عادته السيئة — على حافة المذود المكسوة بالحديد والمعلوكة ، ويمط عنقه ويعب الهواء ويتجشأ . وكان زمرد يحك وجهه فى قفص الباب .

ووصل السواس الآخرون — وكانوا اربعة — وراحوا يوزعون الشعير على المذاود بأقداح معدنية . وبينما كان نزار يصب الشعير الثقيل المصلصل فى مذود زمرد ، راح هذا يدس فمه فى العلف تارة من فوق كتف السائس العجوز ، وتارة من تحت يده ، ويرعش أنفه الدافئ . وكانت لهفة الجواد الوديع هذه تروق للسائس فتعمد البطء وراح يحجب المذود عنه بمرفقيه وهو يدمدم بسخط بشوش :

— أما حيوان دنى . . . حاسب . . . روح اياك ت . . . ابعد رأسك عنى . . . واللا اكسرها . . .

وامتد من الطاقة العلوية الى الاسفل عمود شمسى مستطيل مائل مرح ، وتراقصت فيه ملايين الذرات الذهبية التى فصلت بينها ظلال طويلة من قضبان الطاقة .

٣

كان زمرد قد فرغ لتوه من تناول الشعير عندما جاءوا ليسوقوه الى الفناء . صار الجو ادفأ فلانت الارض قليلا ، ولكن جدران الاصطبل كانت لا تزال بيضاء من طبقة الندى المتجمد التى كانت تغطيها . وتصاعد بخار كثيف من اكوام الروث التى نزحت لتوها من الاصطبل ، أما العصافير التى كانت تنقب فى الروث فصاحت بانفعال وكأنها تتعارك مع بعضها . ومد زمرد عنقه فى الباب وعبر العتبة بحذر ، وأخذ يعب الهواء العطر طويلا وبفرح ، ثم هز عنقه وجسده

كله وزفر . وقال نزار بجدية «يرحمك الله» . كان زمرد الآن لا يطيق الوقوف ، وأحس برغبة فى الانطلاق العنيف ودغدغة الهواء المندفع بسرعة الى العينين والمنخار ، ونبضات القلب الحارة والتنفس العميق . ولكنه كان مغلولا فراح يصهل ويرقص على قوائمه الخلفية ويدير عنقه الى جنبه وينظر شذرا الى الوراء ، الى تلك الفرس الكحلاء ، بعين سوداء كبيرة جاحظة تبدو العروق الحمراء فى بياضها .

وجاهد نزار وهو يكاد يختنق حتى رفع دلو ماء الى أعلى من رأسه وسكبه على ظهر الجواد من عرفه الى ذيله . وأحس زمرد بذلك الاحساس النشط المألوف اللطيف والذى يبعث الرهبة فى القلب لانه دائما مباغت . وأحضر نزار مزيدا من الماء وغسل له بطنه وصدره وسيقانه وذيله . وفى كل مرة كان نزار يمر براحته الخشنة بقوة فى اتجاه الشعر ويعتصر الماء منه . وكان زمرد يتطلع الى الوراء فرأى كفله العالى ، المنسدل قليلا ، وقد أصبح فجأة داكنا وبراقا تحت اشعة الشمس .

كان اليوم يوم السباق . وكان زمرد يعرف ذلك من العجلة والتوتر اللذين كانا يسيطران على السواس وهم يرعون الخيول ، فكانوا يبطنون بالجلد أرساغ بعض الخيول التى كان من عادتها ان تصطدم حدواتها بسبب قصر اجسادها ، ويلفون سيقان البعض الآخر حتى الركبة بأشرطة من الكتان ، او يعلقون فى صدرها خلف سيقانها الامامية بطانات واسعة موشاة بالفراء . ويخرجون من الحظائر المركبات الامريكية الخفيفة ذات العجلتين والمقعد العالى . وكانت اسلاك عجلاتها المعدنية تبرق بمرح اثناء الجرى ، وتلمع اطاراتها الحمراء واذرعتها الحمراء العريضة المقوسة المطلية بطلاء جديد .

كانوا قد جففوا زمرد تماما ونظفوه بالفرشات ومسحوه بالقفاز الصوفى عندما جاء كبير الجوكية ، الانجليزى . كان الجميع ، خيولا وبشرا على حد سواء ، يحترمون ويرهبون هذا الرجل الطويل القامة والذراعين ، النحيل ، المقوس قليلا . كان وجهه حليقا لوحته الشمس ، وشفتاه رقيقتين هابطتين الى اسفل كأنما ترسمان ابتسامة ساخرة .

وكان يرتدى نظارة مذهبة . ومن خلال زجاجها تطل عيناه الزرقاوان الصافيتان بنظرة حازمة عنيدة وادعة . كان يراقب عملية التنظيف وقد باعد بين ساقيه الطويلتين فى حذائهما العالى ، ودس يديه فى اعماق جيبى سرواله ، وهو يمضغ سيجاره فى هذه الزاوية من فمه تارة وفى الزاوية الثانية تارة أخرى . وكان يرتدى سترة رمادية ذات ياقة من الفراء ، وكابا أسود بحواف ضيقة ومقدمة طويلة مستقيمة مستطيلة الشكل . وكان يوجه احيانا بعض الملاحظات بنبرة مقتضبة لا مبالية فيلتفت نحوه جميع السواس والعمال على الفور ، وتدير الخيول آذانها نحوه فى ترقب .

كان يتابع باهتمام خاص تسريح زمرد ، ويتفحص جسد الحصان كله من قُصته الى حوافره ، وأحس زمرد على جسده بوقع هذه النظرة الفاحصة المهتمة فرفع رأسه بزهو ولوى عنقه المشدود قليلا ، ونصب اذنيه الرقيقتين الشفافتين . واختبر الجوكى بنفسه متانة الحزام وهو يدس اصابعه بينه وبين بطن الحصان . ثم البسوا الخيول ملاءات رمادية من الكتان ذات اهداب حمراء

ودوائر حمراء حول العيون وتطريز أحمر فى الاسفل عند السيقان الخلفية . وأمسك سائسان ، هما نزار والسائس الاعور ، بلجام زمرد من كلا الجانبين وساقوه الى ميدان السباق عبر الطريق المعروف جيدا ، بين صفين من المبانى الحجرية الكبيرة المتباعدة . ولم تكن المسافة الى دائرة السباق تبلغ ربع كيلومتر .

كان فناء ميدان السباق يضم كثيرا من الخيول الآن ، وكانوا يسحبونها فى دائرة السباق فى اتجاه واحد هو اتجاه السباق ، اى عكس دوران عقارب الساعة . وداخل الفناء سيقت خيول مسرجة صغيرة ، قوية السيقان ، ذات ذيول قصيرة مقصوصة . وعلى الفور عرف زمرد بينها ذلك المهر الابيض الذى كان دائما يركض الى جواره ، فصهل كلاهما بصوت خافت رقيق صهيل تحية .

٤

دق الناقوس فى ميدان السباق ، فخلع السواس الملاءة عن زمرد . وزر الانجليزى عينيه

تحت النظارة ليتقي وهج الشمس وكشف عن استان صفراء طويلة كأسنان الخيل واتجه الى زمرد وهو يزرر قفازه وممسكاً بالسوط تحت ابطه . ورفع أحد السواس ذيل زمرد المنفوش ، المسبل حتى ارساغه ووضعه بعناية على مقعد العربة الامريكية بحيث تدلى طرفه الاشقر الى الخلف . واهتز ذراعا العربة المرنتان من ثقل الجسم عليها ، فالتفت زمرد الى الخلف فرأى الجوكي الجالس لصق كفله تقريبا وساقاه ممدودتان الى الامام ومفتوحتان مع ذراعي العربة . وامسك الجوكي باللجام على مهل ، وصاح في السواس صيحة مقتضبة ، فرفعوا أيديهم عن العربة دفعة واحدة . وفرح زمرد للركض المنتظر فهمّ بالانطـــلاق ، ولكن اليدين القويتين كبحتاه ، فشب قليلا على ساقيه الخلفيتين وهز عنقه وتقدم بخبب واسع متباعد الخطوات عبر البوابة الى ميدان السباق .

بحذاء سور خشبي ، وعلى شكل بيضاوى محيطه كيلومتر امتد مجرى السباق الرملي العريض الاصفر الذى كان مبللا قليلا ومدكوكا ، ولذلك

كان يرتد كالنابض تحت الاقدام فيبعث شعورا بالراحة رادا الى الارجل قوة ضغطها . وكانت آثار حوافر الخيول الحادة والخطوط الطويلة المنتظمة المتخلفة عن الاطارات المطاطة تخدد مجرى السباق .

وبحذاء المجرى امتدت مدرجات النظارة ، مبنى خشبي عال طوله حوالي مائتي جسم حصان ، حيث كان يموج ويئز حشد بشري أسود كجبل يمتد من الارض الى السقف المنتصب على اعمدة رفيعة . وأدرك زمرد من اهتزاز اللجام الخفيف الذى لا يكاد يلحظ انه يستطيع زيادة السرعة فزفر بامتنان .

كان يركض بخبب منتظم واسع وظهره لا يهتز تقريبا ، وعنقه ممدود الى الامام ومنحن قليلا نحو ذراع العربة اليسرى ، ووجهه مرتفع باستقامة . وبفضل خطواته القليلة والطويلة بصورة غير مألوفة لم يكن ركضه يبدو من بعيد سريعا ، بل كان يخيل للناظر أن الجواد يقيس الطريق على مهل بقوائمه الامامية المستقيمة كالبرجل وهو لا يكاد يلمس الارض بحوافره . كانت

تلك طريقة الركض الامريكية الحقيقية التى كانت تتلخص فى تسهيل عملية التنفس على الحصان وتقليل مقاومة الهواء الى اقصى حد ، واستبعاد كل الحركات غير الضرورية للركض والتى تستنفد طاقة الجواد دون مردود ، والتضحية بجمال الحركات الخارجى من اجل النفس السهل الجاف الطويل . وتوفير الطاقة ، تلك الطريقة التى تجعل من الحصان آلة حية بلا عيوب .

والآن ، وفى فترة الاستراحة بين شوطين ، كان يجرى تسخين الجياد ، وهو ما يقومون به دائما لتعميق تنفسها . كانت جياد كثيرة تركض فى المحيط الخارجى فى اتجاه واحد مع زمرد ، اما فى المحيط الداخلى فركضت جياد فى الاتجاه المقابل . وسبق احدها زمرد . كان ذاك جوادا رماديا ببقع داكنة ، طويل القامة ابيض الوجه ، من سلالة «اربول» الاصيلة ، ذا عنق منحور مشدود وذيل مشرئب ، وكان يشبه أحصنة الاعياد . كان يهز صدره العريض السمين الذى أصبح داكنا من العرق وفخذيه المبللتين ، بينما يطوح بساقيه الاماميتين جانبا

عند مفصل الركبة ، وكان يصدر عن طحاله شهيق رنان مع كل خطوة من خطواته .

ثم اقتربت من الخلف فرس هجينة ، رشيقة ، طويلة الجسم ، كحلاء ، ذات عرف داكن قليل الشعر . وكانت مدربة جيدا بنفس الطريقة الامريكية مثل زمرد . وكان شعرها القصير المعتنى به يلمع متموجا مع حركة العضلات تحت الجلد . وبينما كان الجوكيان يتابدلان حديثا ما ركض الجوادان لبعض الوقت متجاورين . وتشمم زمرد الفرس وأراد ان يغازلها اثناء السير ، ولكن الانجليزى لم يسمح له ، فانصاع زمرد .

وركض نحوهما بخبب كامل كميت ضخم ، مغطى كله بالشرائط واغطية الركبة والبطانات . وكانت ذراع العربة اليسرى تمتد امامه اطول من اليمنى بنصف متر ، وعبر الحلقة المثبتة فوق رأسه مر لجام القضيب الرئيسى المعدنى الذى كان يطوق انف الحصان بقسوة من أعلى ومن كلا الجانبين . وتطلع زمرد والفرس اليه فى وقت واحد ، واستشفا فيه على الفور حصانا هائل القوة والسرعة والقدرة على التحمل ، ولكنه

حصان عنيد وشرير ومغرور وسريع الغضب الى أقصى حد . ومن وراء الكميت ركض حصان صغير الى درجة مضحكة ، رمادى فاتح اللون ، مزركش . ولربما خيل للناظر عن بعد انه يركض بسرعة فائقة ، فقد كان يضرب بسيقانه كثيرا ، ويرفعها عاليا عند مفصل الركبة وكان عنقه المشدود ذو الرأس الصغير الجميل يعبر عن تفان وجهد مخلص . ولكن زمرد القى عليه نظرة احتقار وطرف بأذنه نحوه .

وانتهى الجوكى الآخر من حديثه وقهقه عاليا وكأنه يصهل ، ودفع الفرس لتركض بخبب حر . ودون اى مجهود ، وبهدوء ، سبقت زمرد وكأن سرعتها لا علاقة لها بها ، ومضت الى الامام وظهرها المستوى اللامع يتهادى برفق وقد امتد بطوله سير جلدى داكن لا يكاد يرى .

ولكن فى تلك اللحظة مرق جواد أحمر نارى ، بغرة بيضاء كبيرة على جبهته فسبق زمرد والفرس وخلّفهما بعيدا وراءه . كان يركض بقفزات طويلة متلاحقة ، فتارة يتمدد ويقترب من الارض ، وتارة اخرى يكاد ينطوى على

نفسه فى الهواء وتلتقى ساقاه الخلفيتان بالاماميتين . وكان جوكيه مستلقيا الى الوراء بجسمه كله ، ممددا على المقعد وقد تعلق باللجام المشدود . واضطرب زمرد واندفع جانبا بشدة ، ولكن الانجليزى جذب اللجام بحركة لا تلحظ ، وفجأة اصبحت يداه المرنتان المرهفتان جامدتين كأنما من حديد . وعند المدرجات عاد الجواد الاحمر فسبق زمرد بعد ان دار دورة كاملة . كان لا يزال يرمح ، ولكن الرغوة كانت تغطى جسده واصبحت عيناه حمراوين كالدم وانفاسه متحشرجة . وكان الجوكى منحنيا الى الامام يضربه بالسوط بكل قوة على طول ظهره . وأخيرا تمكن السواس من سد الطريق عليه امام البوابة والامساك برسنه وشكيمته بالقرب من فمه . وسحبوه من ارض السباق مبللا ، متقطع الانفاس ، مرتعشا ، وقد هزل فى لحظة واحدة .

وقطع زمرد نصف دورة آخر بخبب كامل ، ثم انعطف فى الدرب الذى يلتقى مع ارض السباق بالعرض ، وعبر البوابة الى الفناء .

٥

دق الجرس عدة مرات فى ميدان السباق . وقبالة البوابة المفتوحة كانت الجياد الراكضة تمر كالبرق بين الحين والحين ، ويرتفع صراخ الجالسين فى المدرجات وتصفيقهم . وكان زمرد يسير الى جانب نزار مع الجياد الاخرى ، وهو يهز رأسه المنكس ويحرك اذنيه الموضوعتين فى كيسين من القماش . كان الدم يتدفق دافئا مرحا فى عروقه بعد التسخين ، وكلما برد جسمه وارتاح صار تنفسه أعمق وأسهل ، وبدا فى عضلاته كلها التحرق الى مزيد من الركض .

ومر حوالى نصف ساعة . ودق الجرس فى ميدان السباق من جديد . الآن جلس الجوكى فى العربة الامريكية دون قفاز . كانت يداه بيضاوين عريضتين ، ساحرتين ، تبعثان فى زمرد التعلق والخوف .

وقاد الانجليزى العربة على مهل الى ميدان السباق الذى كانت الخيول تغادره الواحد تلو الآخر بعد ان انتهت من التسخين . ولم يبق

فى دائرة السباق سوى زمرد وذلك الحصان الكميت الضخم الذى قابله اثناء التسخين . وكانت المدرجات كلها ، من اسفلها الى أعلاها غاصة بكتلة بشرية سوداء ، وفى هذه الكتلة السوداء لمعت ايد ورؤوس لا حصر لها فى فوضى ومرح ، واختلطت ألوان المظلات والقبعات ، وهفهفت أوراق البرنامج البيضاء . وأحس زمرد وهو يزيد من سرعته تدريجيا امام المدرجات أن ألف عين تتابعه باهتمام ، فأدرك بوضوح ان هذه الاعين تنتظر منه حركات سريعة وجهدا اقصى ودقات قلب عنيفة . . . وبعث هذا الادراك فى عضلاته خفة مرحة وتحفزا لعوبا . وعلى يمينه راح يركض برمح قصير ذلك الجواد الابيض المعروف وقد امتطى صهوته غلام .

ورسم زمرد منحنى حادا وهو يركض بخبب هادئ منتظم ، مائلا بجسمه قليلا الى اليسار واخذ يقترب من العمود ذى الدائرة الحمراء . ودق الجرس دقات قصيرة . واعتدل الانجليزى فى جلسته بشكل لا يكاد يلحظ ، وأصبحت يداه قويتين فجأة . «هيا تحرك» ، ولكن وفر

قواك . ما زال الوقت مبكرا» . . وفهم زمرد ، وكدليل على الفهم ادار اذنيه الدقيقتين المرهفتين الى الوراء للحظة واحدة ، ثم أعادهما كما كانتا مستقيمتين . وكان الجواد الابيض يركض الى يمينه بخطوات منتظمة وقد تخلف عنه قليلا . وأحس زمرد بأنفاسه المنتظمة المفعمة بالقوة قرب عرفه .

أصبح العمود الاحمر خلفه ، وها هو منعطف حاد آخر ، ثم يستقيم الطريق ، وتقترب المدرجات الثانية وتبدو من بعيد كتلتها السوداء المبرقشة الطنانة ، ويكبر حجمها بسرعة مع كل خطوة . ويرخي الجوكي العنان : «هيا ، اسرع قليلا ، اسرع» . وينفعل زمرد ويريد ان يضع كل قواه فى العدو مرة واحدة . ويتساءل : «هل هذا ممكن ؟» وتجيبه اليدان السحريتان وهما تهدئانه : «كلا ، الوقت مبكر ، لا تضطرب . انتظر» .

ويمر كلا الجوادين بعمودى السبق فى وقت واحد تماما ، ولكن من ناحيتين متقابلتين على محيط الدائرة التى تصل بين المدرجات فى

هذه الناحية والمدرجات المقابلة . ويشعر زمرد بمقاومة خفيفة من الخيط المشدود ، ثم بانقطاعه السريع فيهز اذنيه لحظة ، ولكنه ينسى ذلك على الفور وقد ركز انتباهه كله على اليدين الرائعتين .

«هيا ، اسرع قليلا ! لا تنفعل ! سر بانتظام !» — يأمره الفارس . وتمر المدرجات السوداء المرتعشة بجواره . وبعد بضع عشرات من الامتار يصبح اربعتهم — زمرد والجواد الابيض والانجليزى ، والغلام الواقف فى الركاب والمنحنى على عرف الجواد — جسدا واحدا ملتحما مندفعا ، تلهمه ارادة واحدة وجمال واحد فى الحركات القوية ، وايقاع واحد يتردد كالموسيقى . وتدق قوائم زمرد بانتظام واتساق : طط — طط — طط ! وتدق حوافر الجواد الابيض دقات مزدوجة قصيرة حادة : طربط — طربط ! ثم انعطاف آخر وتقترب المدرجات الثانية نحو زمرد راكضة ، فيسأل : «هل أزيد ؟» وتجيبه اليدان : «نعم . لكن بهدوء» .

وتندفع المدرجات الثانية الى الوراء بحذاء عينيه . والمتفرجون يصرخون بأشياء ما . ويبهج

هذا الصراخ زمرد فينفعل ، ويفقد احساسه باللجام ، ويخرج لحظة عن الايقاع العام المنتظم ، ويقفز بساقه اليمنى ، اربع قفزات نزقة . ولكن اللجام يصبح على الفور جامدا ، ويكاد يمزق فمه شادا عنقه الى اسفل ومديرا رأسه الى اليمين . ليس من السهل الآن ان يقفز على ساقه اليمنى . ويغضب زمرد وهو لا يريد أن يبدل خطوته ، ولكن الجوكى ، وقد اقتنص هذه اللحظة يعيد الجواد بقدرة وهدوء الى الركض الخبب . صارت المدرجات الآن بعيدا خلف ظهره ، وها هو زمرد يعود الى ايقاعه ، فتصبح اليدان من جديد لينتين ودودتين . ويحس زمرد بذنبه ويريد ان يضاعف الخبب . ولكن الجوكى يحذره بلطف : «كلا ، ليس الآن . ما زال بامكاننا ان نعوض ما فات . لا بأس» .

وهكذا يقطعان دورة أخرى ونصف دورة فى انسجام تام ودون اضطراب . ولكن الجواد الكميت هو أيضا اليوم فى حالة رائعة . فعندما خرج زمرد عن الايقاع تمكن هو من سبقه بطول ستة أجساد ، بيد ان زمرد أخذ يعوض ما فقده ،

وعندما بلغ العمود قبل الاخير كان يسبقه بثلاث ثوان وربع . ويأمره الراكب : «يمكنك الآن ، هيا !» . ويطوى زمرد اذنيه ويلقى نظرة سريعة واحدة الى الوراء . كان وجه الانجليزى يتوقد بتعبير حاد حازم مسدد ، وقد تغضنت شفتاه الحليقتان بتكشيرة متلهفة وكشفتا عن اسنان صفراء كبيرة مطبقة بشدة . ويأمر اللجام فى اليدين المرفوعتين عاليا : «هات كل ما عندك ! هيا ، هيا !» . وفجأة يصرخ الانجليزى بصوت عال مرتعش متصاعد كصوت السرينا :

— أوى — ى — ى !

ويصيح الغلام بصوت حاد رنان متسق مع ايقاع الركض :

— هى — هى — هى ! . . .

الآن يبلغ الاحساس بالسرعة أقصى درجات التوتر ويصبح معلقا بشعرة واهية على وشك أن تنقطع . وتنقر حوافر زمرد على الارض بانتظام : طط — طط — طط . ويتناهى من الامام وقع رمح الجواد الابيض طررر — طررر وهو يشد اليه زمرد . ويهتز ذراعا العربة المرنان فى تجاوب مع

ركض زمرد ، وفى تجاوب مع رمح الجواد يصعد الغلام ويهبط فى السرج ، وهو مستلق تماما على عنق الحصان .

ويصفر الهواء المقابل فى الاذنين ويدغدغ فتحتى المنخار اللتين يندفع منهما البخار بنفثات كبيرة متلاحقة . أصبح التنفس أصعب والجلد ساخنا . ويدور زمرد مع آخر منعطف وهو ينحنى بجسمه كله الى الداخل . وتنبثق المدرجات وتكبر ككائن حى ، ويطير منها نحوه زئير هادر يخيفه ويثيره ويبهجه . ولا يعود الركض الخبب يسعفه فيريد ان يرمح ، ولكن تلك اليدين المدهشتين خلفه تتضرعان اليه وتأمرانه وتهدئانه : «ارجوك يا عزيزى لا ترمح ! . . فقط لا ترمح ! . . نعم هكذا ، هكذا ، هكذا» . ويندفع زمرد كالسهم من جوار العمود فيقطع خيط النهاية حتى دون ان يلاحظ ذلك . وتتدفق الصيحات والضحكات والتصفيق من المدرجات كالشلال . وتدور أوراق الاعلانات البيضاء والمظلات والعصى والقبعات وتومض بين الوجوه والايدى المتحركة . ويلقى الانجليزى اللجام برفق ،

وتقول هذه الحركة لزمرد «خلاص . شكرا يا عزيزى !» ، فيكبح بصعوبة قوة اندفاعه ويتحول الى الخطو العادى . وفى تلك اللحظة فقط يبلغ الجواد الكميت عموده فى الناحية المقابلة متأخرا عن زمرد بسبع ثوان .

ويهبط الانجليزى متثاقلا من العربة وهو لا يكاد يقوى على رفع ساقيه المخدرتين ، ثم ينزع المقعد المخملى ويتجه به الى الميزان . ويهرع السواس ركضا الى زمرد ويلقون بالملاءة على ظهره الساخن ويسوقونه الى الفناء . ويشيعهم زئير الحشد البشرى وجرس طويل من غرفة الحكام . ويسقط زبد خفيف أصفر من فم الحصان على الارض وعلى أيدى السواس .

وبعد بضع دقائق يقودون زمرد من جديد الى المدرجات بعد ان نزعوا عنه عدته . وذلك الرجل الفارع ذو المعطف الطويل والقبعة الجديدة اللامعة والذى كثيرا ما كان زمرد يراه فى الاصطبل ، يربت الآن على رقبته ويدس قطعة سكر فى فمه . ويقف الانجليزى على مقربة ، وسط الحشد ، وهو يبتسم مغضنا وجهه وكاشفا عن

اسنانه الطويلة . وينزعون الملاءة عن زمرد ويثبتونه امام صندوق بثلاث أرجل مغطى بقطعة قماش سوداء يختفى تحتها رجل فى بدلة رمادية ويقوم بحركات ما .

ولكن الناس ينهالون من المدرجات كتلة سوداء متقاطرة . ويطبقون على الحصان من جميع الجهات وهم يصيحون ويلوحون بأيديهم ويميلون على بعضهم البعض بوجوه حمراء محتقنة وعيون براقة . ويبدون ساخطين على شيء ما ، ويخزون بأصابعهم سيقان زمرد وبطنه ورأسه ، وينكشون الشعر على الجانب الايسر من كفله حيث يوجد الختم ، ثم يصيحون من جديد دفعة واحدة . «حصان مزيف ، عدّاء مغشوش ، هذا نصب واحتيال ، ردوا نقودنا !» . . . يسمع زمرد هذه الكلمات ولا يفهمها فيطرف بأذنيه بقلق . ويفكر بدهشة : «ما بالهم ؟ ألم اركض جيدا ؟!» ويقع بصره للحظة على وجه الانجليزى . هذا الوجه الذى يبدو دائما هادئا وحازما وساخرا بعض الشيء ، اصبح الآن يتوقد غضبا . وفجأة يصرخ الانجليزى بنبرة حلقية عالية ، ويرفع

يده بسرعة ، ويمزق رنين صفعة جافة لغط الحشد .

٦

ساقوا زمرد الى الاصطبل ، وبعد ثلاث ساعات قدموا له الشعير ، وعندما سحبوه مساء الى البئر ليشرب رأى قمرا كبيرا أصفر يصعد من خلف السور ، فأوحى منظره اليه برعب مظلم .

ثم حلت أيام مملة .

لم يعد أحد يقوده الى التمرين او التسخين او السباق . ومع ذلك كان يأتى اناس غرباء كل يوم .. أناس كثيرون ، فكان السواس يخرجون زمرد الى الفناء حيث كان هؤلاء يتأملونه ويجسونه من جميع الاماكن ويدسون أيديهم فى فمه ، ويحكون شعره بحجر الخفّاف وكل منهم يصرخ فى الآخر .

ثم تذكر كيف اخرجوه من الاصطبل ذات مرة فى ساعة متأخرة من المساء ، وساروا به طويلا

عبر شوارع حجرية طويلة خاوية بحذاء منازل ونوافذ مضاءة . وبعد ذلك كانت المحطة ، فعربة الشحن المظلمة المهتزة ، فالتعب وارتعاش السيقان من الرحلة الطويلة ، وصفارات القاطرات وجلجلة القضبان ، ورائحة الدخان الخانقة ، والضوء الممل المنبعث من مصباح متأرجح . وفي احدى المحطات انزلوه من العربة ، وساقوه طويلا عبر طريق غير معروف وسط حقول خريفية مترامية جرداء ، بحذاء قرى ، حتى بلغوا اصطبلا غير معروف ، وحبسوه فيه وحده ، بعيدا عن الخيول الاخرى .

وفي البداية كان يتذكر السباق ، وفارسه الانجليزى ، وفاسيلي ونزار ، وأنيجين ، وكثيرا ما كان يراهم فى المنام ، ولكن بمرور الزمن نسي كل شيء . كانوا يخفونه عن عين ما ، فراح جسده الشاب الرائع يتعذب ويعانى ويترهل من البطالة . وكثيرا ما كان يأتى اناس جدد لا يعرفهم ، فيتزاحمون حوله من جديد ويجسونه ويشدونه وهم يتبادلون السباب بغضب .

وأحيانا كان زمرد يرى بالصدفة ، عبر

الباب المفتوح ، الخيول الاخرى ، التى كانت تسير وتمرح مطلقة السراح ، وعندئذ كان يصيح لها فى غضب وضراعة . ولكن الباب كان يغلق على الفور ، ومن جديد يمضى الزمن كئيبا موحشا .

كان الشخص الرئيسى فى هذا الاصطبل رجلا كبير الرأس ، ناعسا ، ذا عينين سوداوين صغيرتين ، وشارب دقيق أسود على وجه سمين . وبدا غير مبال على الاطلاق بزمرد ، ولكن الجواد كان يشعر نحوه برعب غير مفهوم .

وذات مرة ، فى الصباح الباكر ، عندما كان جميع السواس نائمين ، دخل هذا الشخص الى زمرد على اطراف اصابعه ، بهدوء ودون أدنى صوت ، ووضع له الشعير فى المذود بنفسه وانصرف . ودهش زمرد لذلك قليلا ، ولكنه مضى يأكل فى استسلام . كان الشعير حلوا ، ولكنه مر ولاذع قليلا . فقال زمرد فى نفسه : «غريب . . أنا لم أذق ابدا شعيرا كهذا» .

وفجأة احس بمغص خفيف فى بطنه . داهمه المغص ، ثم اختفى ، ثم عاد مرة

اخرى أقوى من ذى قبل ، وأخذ يشتد لحظة بعد اخرى . واخيرا اصبح الالم لا يطاق . وأن زمرد أنة مكتومة . ودارت أمام عينيه حلقات نارية ، وأصبح جسده كله من الضعف المفاجئ مبللا وخائرا ، وارتعشت سيقانه وتقوست ، فانهار الجواد على الارض . وحاول ان ينهض ، فلم يقو الا على الوقوف على ساقيه الاماميتين ثم سقط من جديد على جنبه . وانطلق فى رأسه اعصار طنان ، ومرت امام عينيه صورة الانجليزى وهو يكشر عن اسنان طويلة كأسنان الخيول . وركض انيجين بجواره ، مبرزا حنجرته الناتئة كحنجرة الجمل وهو يصهل بصوت عال . وكانت قوة ما تدفع زمرد دون رحمة وبسرعة هائلة الى حفرة باردة مظلمة عميقة هناك فى الاسفل . ولم يعد قادرا على الحركة .

وفجأة قلصت التشنجات سيقانه وعنقه وقوست ظهره . وارتعش جلده كله ارتعاشا خفيفا متلاحقا واكتسى برغوة حادة الرائحة .

وسقط ضوء المصباح الاصفر المتحرك على عينيه فوخزهما لحظة ، وانطفأ مع نورهما الغارب .

والتقطت اذنه زعقة بشرية فظة ، ولكنه لم يحس عندما ركله حذاء فى جنبه . وبعدها اختفى كل شيء . . الى الابد .

عام ١٩٠٧

سوار العقيق

L. van Beethoven. 2. Son. (op. 2, N° 2).
Largo Appassionato.

١

فى منتصف اغسطس ، وقبيل مولد الهلال الجديد ، ساد فجأة طقس مقرف من ذلك النوع المميز لسواحل البحر الاسود الشمالية . فتارة كان الضباب الكثيف يجثم أياما كاملة على الارض والبحر ، وعندها تزأر صفارة الفنار الضخمة ليل نهار كأنها ثور هائج . وتارة كان يهطل من الصباح الى الصباح مطر دقيق كالغبار المائى فيحيل الطرقات والدروب الطينية الى كتلة كثيفة من الوحل تنغرز فيها العربات والمركبات فتبقى طويلا . وتارة اخرى كان يهب اعصار ضار من الشمال الغربى ، من جهة السهوب ، فتتمايل له قمم الاشجار وهى تنحنى وتستقيم كأنها الأمواج ساعة العاصفة ، وتقرقع فى الليل اسطح المنازل الحديدية ، فيخيل اليك ان اشخاصا ما يركضون

فوقها بأحذية ذات حدوات حديدية . وكانت أطر النوافذ تختلج والابواب تصطفق ، وتعوى مداخن الافران عواء موحشا . وضلت عدة قوارب صيادين طريقها فى البحر ، وفقد منها اثنان الى الابد ، وبعد اسبوع القى البحر جثث الصيادين فى مختلف انحاء الشاطىء .

واسرع سكان المصيف الساحلى الصغير — ومعظمهم من اليونانيين واليهود ، من عشاق الحياة والوسواسين ككل أهل الجنوب — اسرعوا بالانتقال الى المدينة . وعلى الطريق الموحل امتدت بلا نهاية عربات الجر المحملة بشتى الحاجيات المنزلية : باللفائف والاراائك والصناديق والكراسى واحواض الغسيل وغلايات الشاى . وكان من المؤسف والمحزن والمقرف ان تنظر عبر غلالة المطر الغائمة الى سقط المتاع البائس هذا ، الذى بدا باليا وقذرا ومستهلكا بهذه الصورة ، والى الخادمات والطاهيات الجالسات فوق الاحمال على مشمع مبلل ، ممسكات بمكاو ما وعلب من الصفيح وسلال ، والى الخيول المنهكة العرقانة التى تتوقف من حين لآخر وركبها ترتعش ،

والبخار يتصاعد من اجنابها المتمايلة ، والى سائقى العربات الملتفين بقطع من الخيش اتقاء للمطر وهم يسبون بصوت مبحوح . وكان الاكثر اثارة للحزن ان تنظر الى المنازل الصيفية المهجورة وقد اصبحت فجأة فسيحة وخاوية وعارية ، بأحواض زهورها المشوهة وزجاج نوافذها المحطم ، وكلابها المتروكة ، وشتى انواع مخلفات البيوت : من اعقاب سجائر ووريقات وثقف وعلب صغيرة وقوارير صيدلية .

ولكن الطقس تغير فجأة وبصورة غير متوقعة ابدا فى بداية سبتمبر . وعلى الفور حلت أيام هادئة صحوة ، أيام صافية مشمسة ودافئة لم يكن لها مثيل حتى فى يوليو . وفى الحقول الجافة المحصودة وعلى صفحتها الكثة الصفراء لمعت خيوط العنكبوت الخريفية كلمعان البلق . وأخذت الاشجار المستكينة تلقى بأوراقها الصفراء دون صوت وفى استسلام .

لم تستطع الاميرة فيرا نيقولايفنا شيينا زوجة زعيم النبلاء ان تغادر المنزل الصيفى لان اعمال الترميم لم تنته فى منزلهم بالمدينة . وها هى

الآن قد فرحت للغاية بحلول هذه الأيام الساحرة ، وبالهدوء والعزلة والهواء النقى ، وبغناء السنونوات على أسلاك البرق وقد تجمعت فى اسراب لتهاجر ، وبالريح الرقيقة المالحة التى تهب بوهن من جهة البحر .

٢

وعلاوة على ذلك كان اليوم—السابع عشر من سبتمبر—عيد ميلادها . كانت تحب دائما هذا اليوم من ذكريات الطفولة العذبة البعيدة ، وكانت دائما تنتظر منه شيئا ما سعيدا رائعا . وكان زوجها الذى سافر صباحا لأمور عاجلة فى المدينة ، قد وضع لها ليلا على طاولة النوم علبة بها قرط رائع من اللؤلؤ الكمثرى الشكل ، فزادت هذه الهدية من بهجتها .

كانت وحدها فى المنزل كله . فقد سافر أخوها الاعزب نيقولاى وكيل النائب العام ، الذى كان يسكن فى العادة معهم ، الى المدينة

هو الآخر . ووعد زوجها بأن يأتى معه الى الغداء بعدد قليل من المعارف ومن المقربين فقط . وكان جميلا ان يتفق عيد ميلادها مع موسم الاصطياف . فلو كانوا فى المدينة لاضطروا الى الانفاق على مائدة عيد كبيرة بل وربما الى اقامة حفل ، اما هنا فى المنزل الريفى فكان من الممكن الاكتفاء بأقل النفقات . فقد كان الامير شيين ، رغم مركزه المرموق فى المجتمع ، بل ربما بفضله ، لايكاد يدبر أموره المالية الا بصعوبة . لقد بدد أسلافه تقريبا ضيعة الأسرة الضخمة . وكان عليه أن يعيش فى مستوى أعلى من دخله ، فيقيم الحفلات ويتبرع للاغراض الخيرية ويرتدى الملابس الجيدة ويقتنى الخيول . . الخ . وكانت الاميرة فيرا التى تحول حبها السابق العارم لزوجها منذ امد بعيد الى شعور بالصداقة الراسخة المخلصة الحقة ، تحاول بكل قواها أن تحمى الأمير من الافلاس التام . فكانت تحرم نفسها من اشياء كثيرة — دون ان تجعله يلاحظ ذلك — وتقتصد ما أمكن ذلك فى نفقات المنزل .

راحت الآن تتجول فى الحديقة وتقطف بالمقص فى حذر زهورا لمائدة الغداء . كانت احواض الزهور قد اقفرت وأصبح منظرها مضطربا . وأزهرت اخريات الزنابق المزدوجة المتعددة الالوان ، وكذلك ازهار المنثور التى كان نصفها ازهارا ونصفها الآخر قرونا دقيقة خضراء تفوح منها رائحة الكرنب ، اما خمائل الورد فقد برعمت وأوردت لثالث مرة فى هذا الصيف ، وان كانت ورودها أصبحت صغيرة مبعثرة كأنها آخر العنقود . وفى المقابل ازهرت الداليا وزهور الصليب والاسطر بعنفوان وفى جمالها البارد المتكبر وهى تنشر فى الهواء المرهف شذى خريفيا عشبيا حزينا . اما بقية الزهور ، فقد أخذت بعد حبها المترف وأمومتها الصيفية الوفيرة الفياضة تنثر على الأرض فى هدوء ما لا حصر له من بذور الحياة القادمة .

وتناهت من الطريق القريب زمارة السيارة الثلاثية النغم المألوفة ، منبئة عن مقدم آنا نيقولايفنا فريسى ، أخت الاميرة فيرا ، التى وعدت تليفونيا فى الصباح بالمجئ لمساعدة اختها فى استقبال الضيوف وأمور المنزل .

ولم يخدع فيرا سمعها المرهف ، فمضت لملاقاة شقيقتها . وبعد بضع دقائق توقفت سيارة انيقة مكشوفة أمام بوابة البيت ، وقفز السائق من مقعده بمهارة وفتح باب السيارة .

تبادلت الشقيقتان القبلات بفرح . لقد كانت تربطهما منذ طفولتهما المبكرة صداقة دافئة حانية . ولم يكن بينهما اى وجه للشبه فى مظهرهما الخارجى الى حد يبعث على العجب . فقد كانت الشقيقة الكبرى فيرا تشبه امها ، تلك الحسناء الانجليزية ، بقوامها الفارع المرن ، ووجهها الرقيق وان كان باردا أبيا ، وذراعيها الرائعتين وان كانتا كبيرتين الى حد ما ، وتلك الاستدارة الساحرة للكتفين التى يمكن ان تراها فى المنمنمات القديمة . اما الاخت الصغرى آنا فقد ورثت ، على العكس ، دماء أبيها المنغولية ، ذلك الامير التترى الذى لم يعتنق جده المسيحية الا فى بداية القرن التاسع عشر ، والذى كان نسبه العريق يمتد الى تيمور لنك نفسه ، او لنج–تيمير ، كما كان أبوها يدعو بالتترية ذلك السفاح العظيم . وكانت أقصر من

شقيقتها بنصف هامة ، عريضة الكتفين قليلا ، حية ، مستهترة وساخرة . كان وجهها منغولى الملامح بشدة ، بارز الوجنتين بشكل واضح ، وعيناها ضيقتين زاد من ضيقهما انها كانت تزرهما لضعف بصرها ، وارتسم على فمها الصغير الشهوانى تعبير متكبر ، وخاصة فى الشفة السفلى الممتلئة والبارزة قليلا الى الامام . ورغم ذلك فقد كان هذا الوجه ذا سحر آسر غير مفهوم ولاملموس .. سحر ربما تجلى فى الابتسامة ، او ربما فى الانوثة الدفينة فى جميع ملامحه ، او ربما فى تعابيره المنمقة العابثة المتدللة . كان قبحها الرشيق يثير اهتمام الرجال ويجذبهم باكثر وأقوى من جمال شقيقتها الارستقراطى .

كانت متزوجة من رجل غنى جدا وغبى جدا ، لم يكن يفعل شيئا مطلقا ، لكنه كان موظفا فى مؤسسة خيرية ما ويحمل لقب وصيف المخدع . ولم تكن آنا تطيق زوجها ، لكنها انجبت له طفلين ، ولدا وبنتا ، وقررت بعدها الا تنجب فلم تنجب . أما فيرا فكانت تتحرق الى ان يكون لها اولاد ، بل وخيل اليها انه

كلما كانوا اكثر كان ذلك أفضل ، لكنه لسبب ما لم يولد لها أحد ، فكانت تعبد بحرارة وألم طفلى اختها الصغرى الجميلين الممتقعين ، المؤدبين المطيعين دائما ، بوجهيهما الابيضين الشاحبين وشعرهما المجعد الكتانى كشعر الدمى .

كان كيان آنا كله مكونا من عدم الاكتراث المرح والتناقضات اللطيفة ، الغريبة أحيانا . فكانت تنساق بترحاب وراء اخطر المغامرات الغرامية فى جميع عواصم أوروبا ومصايفها ، لكنها لم تخن زوجها ابدا ، رغم انها كانت مع ذلك تسخر منه باحتقار أمامه وفى غيابه ، وكانت مسرفة ، تعشق بجنون العاب القمار والرقص والانطباعات القوية والمشاهد الاخاذة ، وتزور فى الخارج المقاهى المشبوهة ، لكنها تميزت فى الوقت نفسه بالطيبة المغدقة والتدين العميق المخلص الذى دفعها حتى الى اعتناق الكاثوليكية سرا . وكان ظهرها وصدرها وكتفاها ذات جمال نادر . وعندما كانت تقصد الحفلات الكبيرة ، كانت تتعرى أكثر بكثير مما تسمح به حدود اللياقة والموضة ، لكنه قيل ان

قميصا من الوبر الخشن كان يطل دائما من فتحة الديكولتيه الواسعة .

أما فيرا فكانت صارمة فى بساطتها ، تعامل الجميع ببرود ولطف متعال قليلا ، وكانت متحررة وهادئة كالملكات .

٣

— يا الهى ، ما أجمل المكان هنا ! ما أجمله ! . . . — قالت آنا وهى تسير الى جوار شقيقتها على الدرب بخطوات قصار سريعة — لنجلس هنا قليلا اذا امكن على الاريكة فوق الجرف . لم أر البحر منذ زمن طويل . يا له من هواء بديع . . . يرقص القلب عندما تتنفسين . لقد توصلت الى اكتشاف مذهل فى ميسخورى بالقرم ، فى الصيف الماضى . اتدرين ما رائحة ماء البحر اثناء تكسر الامواج على الشاطئ ؟ تصورى : خزامى .

فضحكت فيرا برقة وقالت :

— أنت واسعة الخيال .

— كلا ، كلا . اننى اذكر كيف ضحك الجميع منى ذات مرة عندما قلت ان ضوء القمر فيه لون وردى . ومنذ أيام وافقنى المصور بوريتسكى على هذا . . ذلك المصور الذى يرسم صورة لى . قال اننى كنت على حق ، وأن المصورين يعرفون ذلك منذ أمد بعيد .

— وهل هذا المصور غرامك الجديد ؟

فضحكت آنا وقالت :

— أنت دائما تختلقين !

واقتربت بسرعة من حافة الجرف الذى ينحدر كالجدار القائم ويغوص عميقا فى البحر ، ونظرت الى اسفل ، واذا بها تصرخ فجأة فى فزع وترتد الى الوراء شاحبة الوجه .

وغمغمت بصوت ضعيف متهدج :

— أوه ، ما أعلاه ! عندما انظر من مثل هذا الارتفاع اشعر دائما بشىء ما حلو ومقزز يدغدغنى فى صدرى . . وتؤلمنى اصابع قدمى . . ومع ذلك أجد نفسى انجذب وانجذب الى القاع . .

وارادت ان تنحنى مرة ثانية فوق الجرف ولكن شقيقتها منعتها :

— آنا يا عزيزتى ، لا داعى ارجوك ! ان رأسى يدور عندما أراك تفعلين ذلك . ارجوك اجلسى .

— حسنا ، حسنا ، ها قد جلست . . . لكن هلا نظرت حولك الى هذا الجمال ، هذا الفرح . . العين لا تشبع منه ، آه لو تعلمين كم أنا ممتنة لله على جميع هذه العجائب التى خلقها لنا !

واستغرقتا كلتاهما فى التفكير لحظة . كان البحر يستكن عميقا تحت اقدامهما . ولم يكن الشاطئ يرى من على الاريكة ، ومن ثم ازداد الاحساس بلا نهائية البحر وعظمته . كانت المياه هادئة فى رقة ، ومرحة الزرقة ، تلوح فاتحة فقط عند خطوط التيارات المائلة المصقولة ، ثم تتحول الى زرقة كثيفة عميقة عند الافق .

وغير بعيد عن الشاطئ هجعت قوارب الصيادين بلا حراك على صفحة البحر الملساء فلم تكد العين تميزها لشدة ما بدت صغيرة . وعلى البعد

لاحت سفينة ذات ثلاثة صوار ، وبدت كأنها معلقة فى الجو دون ان تتقدم ، ومغلفة من اعلاها الى اسفلها بأشرعة رتيبة ممشوقة بيضاء قد نفختها الريح .

وقالت الاخت الكبرى شاردة :

— انني افهمك ، ولكني لا احس كما تحسين . فعندما أرى البحر اول مرة بعد زمن طويل يثيرني ويفرحني ويذهلني . كأني ارى لاول مرة معجزة ضخمة مهيبة . ولكن فيما بعد ، عندما اعتاده يبدأ يجثم على صدري بفراغه المستوى . . انني اضجر وانا انظر اليه ، ولذا أحاول الا اتطلع اليه بعد ذلك . . . انه يبعث على الملل .

وابتسمت آنا ، فسألتها اختها :

— لِمَ تبتسمين ؟

فقالت آنا بمكر :

— فى الصيف الماضى رحلنا من يالطا فى ركب كبير على ظهور الخيل الى أوتشكوش . انها هناك ، وراء الغابة ، أعلى الشلال . وفى البداية دخلنا فى سحابة ، فكان الجو حولنا

رطبا والرؤية سيئة ، لكننا واصلنا الصعود على درب شديد الانحدار بين اشجار الصنوبر — واذا بالغابة تنتهى فجأة ، وخرجنا من الضباب . تصورى : فسحة ضيقة فوق صخرة ، والهوة تحت أقدامنا . وكانت القرى فى الاسفل لا تزيد عن حجم علب الكبريت ، أما الاشجار والبساتين فكالاعشاب الصغيرة . وكانت الناحية كلها تنحدر نحو البحر كأنها خريطة جغرافية . وبعد ذلك البحر ! يمتد الى خمسين . الى مائة كيلومتر . وخيل الى أننى معلقة فى الهواء وسأطير بعد لحظة . يا للجمال ، يا للخفة ! التفت خلفى وقلت لدليلنا باعجاب : «ماذا يا سعيد أوغلى ؟ جميل ؟» . فطقطق بلسانه وقال : «ايه يا سيدتى ، لكم سئمت كل هذا . . كل يوم نراه» .

فضحكت فيرا وقالت :

— شكرا على المقارنة . كلا ، انني اعتقد اننا ، نحن الشماليين ، لن نفهم ابدا سحر البحر . انني أحب الغابة . اتذكرين الغابة عندنا فى يجوروفسكويه ؟ . . . هل يمكن فى

يوم ما ان تمليها ؟ والصنوبر ! . . . والطحلب ! . . وما اجمل فطر «صياد الذباب» ! كأنه من الحرير الاطلس الاحمر المطرز بخرز أبيض . ويا للهدوء . . والبرودة . .

فقالت آنا :

ـــ بالنسبة لى سيان ، اننى احب كل شيء . وأحب اكثر الكل اختى ، فيراى الحكيمة ، السنا اثنتين فقط فى العالم كله !

وعانقت اختها الكبرى ولاذت بها ملصقة خدها الى خدها . وأفاقت فجأة .

ـــ يالى من حمقاء ! كأننا فى رواية ، نجلس ونتحدث عن الطبيعة ، ونسيت تماما هديتى لك . انظرى . . فقط اخشى الا تعجبك .

وأخرجت من حافظتها اليدوية مفكرة صغيرة فى غلاف مدهش : فعلى مخمل قديم ناحل حال لونه الازرق بفعل الزمن فأصبح رماديا تعرجت أسلاك تطريز من الذهب الكابى المخرم فى تشابك نادر التعقيد والدقة والجمال . . يبدو أنه من صنع فنان ماهر صبور عاشق لفنه . وكانت المفكرة مثبتة فى سلسلة ذهبية دقيقة كالخيط

وقد نزعت أوراقها ووضعت بدلا منها رقائق من العاج .

وقالت فيرا وهى تقبل اختها :

ـــ يا للروعة ! يا للجمال ! شكرا لك . أين حصلت على هذا الكنز ؟

ـــ فى أحد متاجر العاديات . انك تعرفين ميلى الى التنقيب فى المخلفات البالية . وهكذا عثرت على كتيب الصلوات هذا . انظرى ، اترين كيف ترسم الزخرفة هنا صورة الصليب . صحيح انى لم اعثر الا على الغلاف فقط ، أما الاشياء الاخرى فقد ابتكرتها . الأوراق والمشابك والقلم . ولكن مولليني لم يستطع ان يفهمنى مهما شرحت له . كان لا بد من صنع المشابك بنفس أسلوب التطريز كله . كابية ، من الذهب القديم والحفر الدقيق ، ولكن الله وحده يعلم ما هذا الذى صنعه . أما السلسلة فحقيقية ، من البندقية ، قديمة جدا .

ومسحت فيرا برقة على الغلاف البديع وقالت :

ـــ يا له من ماض سحيق ! . . . ـــ ثم سألت ـــ ترى كم عمر هذه المفكرة ؟

— لا استطيع ان احدد بالدقة . . نهاية القرن السابع عشر او منتصف الثامن عشر تقريبا . . .

فقالت فيرا بابتسامة شاردة :

— يا للغرابة . . . ها انا أمسك فى يدى بشىء ربما داعبته يد المركيزة بومبادور ، أو الملكة انطوانيت نفسها . . اتعلمين يا آنا . . انت الوحيدة التى يمكن ان تطرأ على ذهنها هذه الفكرة الطائشة . . ان تحول كتيب الصلوات الى carnet * حريمى . لكن دعينا نذهب لنرى ماذا يدور عندنا فى المنزل .

ودخلتا الى المنزل عبر شرفة حجرية كبيرة مغطاة من جميع النواحى بغصون كرم «ازابللا» الكثيفة . وكانت العناقيد السوداء الوفيرة التى تفوح منها رائحة ضعيفة كرائحة التوت البرى تتدلى ثقيلة بين الاوراق الخضراء الداكنة التى ذهبتها الشمس فى بعض الأماكن . وساد الشرفة كلها ضوء اخضر خافت ، شحب منه وجها المرأتين على الفور .

* مفكرة (فى الاصل بالفرنسية) .

وسألت آنا :

— هل ستأمرين بمد المائدة هنا ؟

— نعم ، فكرت فى ذلك فى البداية . . ولكن الاماسى هنا باردة . من الافضل ان نجلس فى غرفة الطعام . وليخرج الرجال الى هنا اذا ارادوا ان يدخنوا .

— هل سيكون بينهم شخص طريف ؟

— لا اعرف بعد . اعرف فقط ان جدنا سيحضر . فصاحت آنا مشيحة بذراعيها :

— آه يا جدى الرقيق ! يا لها من فرحة ! يخيل الى اننى لم أره منذ مائة عام .

— وستأتى اخت فاسيا ، والبروفيسور سبيشنيكوف على ما اظن . آه يا آنا ، بالامس كدت أجن . انك تعرفين ان كليهما ، جدنا والبروفيسور ، يحبان الاكل . ولكن لا يمكن الحصول على شىء لا هنا ولا فى المدينة ولو بأى مبلغ . وقد حصل لوقا على سمان فى مكان ما–كان قد اوصى عليه الصياد–وهو الآن يتفنن فى صنع شىء ما منه . وحصلنا على روزبيف لا بأس به ، ولكن أو . . انه الروزبيف الخالد .

ويوجد كذلك سرطان ممتاز .

— حسنا ، ليس سيئا الى هذا الحد . لا تقلقى . وعموما ، بينى وبينك ، انت نفسك ضعيفة أمام الطعام الشهى .

— ولكن سيكون هناك شيء نادر . لقد احضر الصياد اليوم ديك بحر . رأيته بعينى . شيء خرافى . مرعب فعلا .

وعلى الفور طلبت آنا التى كانت شديدة الفضول فى كل ما يخصها ولا يخصها ان يحضروا لها ديك البحر لتراه .

وجاء الطباخ لوقا ، الطويل ، الحليق ، الاصفر الوجه بوعاء كبير ابيض مستطيل ، كان يحمله بحذر وصعوبة من اذنيه ، وهو يخشى ان ينسكب منه الماء على الارضية الباركيه .

وقال بفخر الطهاة الخاص :

— اثنا عشر رطلا ونصف يا صاحبة السعادة . . وزناه منذ قريب .

كانت السمكة اكبر من ان يتسع لها هذا الوعاء ، فاستلقت على قاعه وقد طوت ذيلها . وكانت قشورها تتلألأ بلون ذهبى وزعانفها حمراء

قانية ، وامتد من جانبى وجهها المتوحش الضخ
جناحان طويلان مطويان كالمروحة ، بلون ازرق
ناعم . وكان ديك البحر لا يزال حيا فأخ
يحرك خياشيمه بنشاط .

ولمست الشقيقة الصغرى باصبعها الخنص
فى حذر رأس السمكة . ولكن الديك خف
بذيله فجأة فجذبت آنا يدها صارخة .

وقال الطاهى وقد ادرك ، فيما يبدو قلق
آنا :

— لا تقلقى يا صاحبة السعادة ، ك
شيء سيكون على خير ما يرام . لقد أحض
البلغارى الآن شمامتين . . من النوع الاناناسى .
مثل القاوون ، ولكن رائحتهما اذكى بكثير
واسمحى لى يا صاحبة السعادة ان أسألك ع
نوع الصلصة التى تفضلين تقديمها مع الديك
صلصة ترتر أم بولندى ، أم مجرد بقسما
محمر ؟

فقالت الاميرة آمرة :

— افعل ما تراه . . انصرف !

21-608

٤

بدأ الضيوف يتوافدون بعد الساعة الخامسة . وجاء الامير فاسيلي لفوفتش معه بأخته الارملة ، لودميلا لفوفنا التي تحمل اسم عائلة زوجها دوراسوفا ، وهي امرأة ممتلئة بشوش ، وصموت الى درجة غير عادية ، وبالشاب الارستقراطي الغني المدلل والماجن فاسوتشوك ، الذي كانت المدينة كلها تعرفه بهذا الاسم الدارج ، والذي كان محبوبا في المجتمعات لاجادته الغناء والالقاء وكذلك تقديم الصور الحية والمسرحيات واقامة الاسواق الخيرية ؛ وجاء الامير فاسيلي لفوفتش ايضا بعازفة البيانو الشهيرة جيني ريتر ، صديقة الاميرة فيرا من ايام الدراسة في معهد سمولني ، وبشقيق زوجته نيقولاى نيقولايفتش . ووصل بعدهم زوج آنا بالسيارة في صحبة البروفيسور سبيشنكوف الحليق السمين ، الضخم الى درجة مزرية ونائب المحافظ المحلي فون زك . وجاء آخر الكل الجنرال أنوسوف في عربة لاندو جميلة مستأجرة وبصحبة اثنين من الضباط : العقيد بونماريوف النحيل ،

الصفراوي المزاج الذي هرم قبل الاوان وارهقه العمل الاداري الثقيل ، وملازم الحرس الخيّال باختينسكي الذي كان مشهورا في بطرسبرج كأفضل راقص وكمنظم حفلات لا يجارى .

وهبط الجنرال انوسوف ، ذلك العجوز الفضي البدين الطويل من سلم العربة بصعوبة معتمدا باحدى يديه على حاجز مقعد الحوذي ، وباليد الأخرى على مؤخرة العربة . وكان يحمل في يده اليسرى بوق سماعة ، وفي يده اليمنى عصا ذات طرف من المطاط . كان وجهه ضخما أحمر ، خشنا ، بأنف لحيم ، وعينين مزورتين كنصفي دائرة منتفختين مغضنتين يطل منهما تعبير بشوش مهيب ، يقترن بشيء من الاحتقار ، الامر الذي يميز الشخصيات البسيطة الشجاعة ، التي كثيرا ما رأت الموت والخطر عن قرب . وعندما عرفته الشقيقتان عن بعد ، هرعتا الى العربة في الوقت المناسب لتأخذاه من يديه وتسنداه بشيء من الهزل والجد .

وقال الجنرال بصوت غليظ مبحوح رقيق :

— كأني . . أسقف ! . . .

وقالت فيرا بنبرة عتاب خفيف :

— يا جدى العزيز الحبيب ! كل يوم ننتظرك ، وانت لا تلقى علينا ولو نظرة .

وضحكت آنا قائلة :

— جدنا أضاع فى الجنوب ضميره تماما . اعتقد انه كان بوسعك ان تتذكر ابنتك فى العماد . ولكنك تصول مثل دون جوان ، يا عديم الحياء ، ونسيت تماما أننا هنا . . .

وعرى الجنرال رأسه المهيب ولثم يدى الشقيقتين بالدور ، ثم قبلهما فى خديهما ، وعاد فقبل يديهما .

وقال وهو يطلق زفرة بين كل كلمة واخرى بسبب ضيق التنفس القديم :

— يا بناتى . . مهلا . . لا تسبانى . . اقسم لكما . . الاطباء الملاعين . . . طول الصيف وضعوا روماتزمى . . فى بلوطة قذرة . . رائحتها فظيعة . . ولم يطلقوا سراحى . . انتم . . اول من ازورهم . . أنا سعيد جدا . . ان اراكم . . كيف الحال ؟ . . انت يا فيرا . . . سيدة كاملة . . . اصبحت تشبهين . . المرحومة امك تماما . . .

متى ستدعوننى للعماد ؟

— اخشى يا جدى الا يحدث ذلك ابدا . . .

— لا تيأسى . . كل شىء سيأتى . . صلى لله . . وانت يا آنيا . . لم تتغيرى ابدا . . حتى فى الستين من عمرك . . ستظلين كالجرادة النطاطة . . لكن مهلا . دعونى اقدم لكم السادة الضباط .

فقال العقيد بونماريوف وهو ينحنى :

— تشرفت بذلك منذ زمن بعيد .

وقال الخيّال مكملا :

— لقد قدمت الى الاميرة فى بطرسبرج .

— حسنا ، لاقدم لك يا آنيا الملازم باختينسكى . راقص وعربيد ، ولكنه فارس جيد . هات يا عزيزى باختينسكى من العربة ذلك الـ . . . هيا يا بنات . . ماذا ستقدمين لنا يا فيرا ؟ . . ان شهيتى . . بعد نظام المصحة . . مثل شهية الملازم . . الخريج .

كان الجنرال انوسوف زميل كفاح وصديقا مخلصا للمرحوم الامير ميرزا — بولاط — توجانوفسكى . وبعد وفاة الامير نقل كل حبه وصداقته الحانية الى ابنتيه ، وكان يعرفهما وهما بعد صغيرتان

تماما ، بل انه عمد الاخت الصغرى آنا . وفي ذلك العهد ــ وحتى الآن ــ كان قائدا لحصن كبير في مدينة «ك» ولكنه حصن ملغى تقريبا ، وكان يتردد كل يوم على دار آل توجانوفسكي . وكان الأولاد يعشقونه للهوه معهم ولهداياه وللمقاعد المحجوزة في السيرك والمسرح ، ولانه لم يكن هناك من يلعب معهم بمثل هذا الامتاع كأنوسوف . ولكن اكثر ما سحرهم وبقي مطبوعا في ذاكرتهم قصصه عن الحملات والمعارك الحربية والمخيمات والانتصارات والتقهقر ، وعن الموت والجراح والصقيع الرهيب . تلك القصص الملحمية الهادئة المتأنية المفعمة بالصدق ، والتي كان يرويها في الفترة ما بين شاي المساء وتلك الساعة الكئيبة التي يدعون الاطفال فيها للنوم .

كانت هذه القطعة من الماضي تعتبر حسب الاخلاقيات الحالية شخصية هرقلية وبديعة الى درجة غير عادية . فقد اجتمعت له تلك الملامح البسيطة والعميقة المؤثرة ، التي كانت حتى في أيامه تميز الجنود العاديين اكثر مما تميز الضباط ، تلك الملامح الروسية الخالصة ، ملامح «الفلاح»

التي تشكل اذا ما اتحدت صورة سامية ، لا تجعل من جندينا احيانا مجرد محارب لا يقهر فحسب ، بل ترفعه الى مصاف الشهداء العظام ، بل والقديسين تقريبا . تلك الملامح التي تتألف من الايمان الساذج البسيط ، والنظرة الصافية البشوش المرحة الى الحياة ، والبسالة العملية الهادئة ، والاذعان للموت ، والشفقة على المهزومين ، والصبر الذي لا يعرف حدودا ، وقوة التحمل البدنية والروحية المذهلة .

وكان انوسوف قد شارك منذ الحرب البولندية في جميع الحملات ما عدا الحملة اليابانية . ولقد كان على استعداد للذهاب الى تلك الحرب دون ادنى تردد ، ولكنهم لم يستدعوه ، اما هو فكان يسير على قاعدة عظيمة من حيث تواضعها : «لا تلق بنفسك الى الموت طالما لم يدعوك» . وطوال فترة خدمته لم يجلد بل ولم يضرب جنديا واحدا . واثناء الانتفاضة البولندية رفض ذات مرة اعدام الاسرى بالرغم من الامر الخاص الذي صدر له من قائد الفوج . وقال : «انني مستعد لان اعدم جاسوسا ، بل

اقتله بيدى اذا أمرتنى . ولكن هؤلاء أسرى ، انا لا استطيع» . قال ذلك ببساطة واحترام ، دون ادنى ظل من التحدى أو الخيلاء ، وهو ينظر مباشرة فى عينى قائده بعينيه الصافيتين الحازمتين ، حتى انهم بدلا من ان يعدموه هو الآخر تركوه فى سلام .

وفى حرب ١٨٧٧ — ١٨٧٩ ترقى بسرعة الى رتبة عقيد ، رغم حظه القليل من التعليم ، او كما كان هو نفسه يقول انه لم يتخرج الا من «اكاديمية الدبية» . وشارك فى عبور نهر الدانوب ، واجتاز البلقان ، وقبع فى قلعـه «شيبكا» ، وشارك فى الهجوم الاخير على «بليفنا» . واصيب اصابة بالغة واربع اصابات خفيفة ، وفوق ذلك فقد اصيب بصدمة فى الرأس من شظية قنبلة يدوية . وكان راديتسكى وسكوبليف يعرفانه معرفة شخصية ويكنان له احتراما بالغا . وهو الذى قال عنه سكوبليف ذات مرة : «اننى اعرف ضابطا اشجع منى بكثير . انه الرائد انوسوف» .

وعاد من الحرب أصم تقريبا بسبب شظية

القنبلة اليدوية ، وبساق مريضة بترت منها ثلاثة أصابع تجمدت اثناء عبور البلقان ، وبروماتزم قاس اصابه فى «شيبكا» . وارادوا أن يحيلوه الى التقاعد بعد مرور سنتين من الخدمة فى وقت السلم لكن أنوسوف قاوم بعناد . وهنا ساعده نفوذ قائد الناحية الذى كان شاهد عيان على شجاعته الهادئة عند عبور الدانوب . ولذلك قرروا فى بطرسبرج ألا يحزنوا العقيد الجدير فأعطوه وظيفة قومندان مدى الحياة فى مدينة «ك» ، وهى وظيفة فخرية اكثر منها ضرورية لاغراض الدفاع عن الدولة .

كان جميع اهل المدينة صغارا وكبارا يعرفونه ويسخرون بطيبة من نقاط ضعفه وعاداته وطريقته فى اللبس . وكان دائما يسير دون سلاح ، فى حلة قديمة الطراز وفى عمرة ذات جوانب عريضة ومقدمة مستطيلة ضخمة ، ويمسك فى يده اليمنى بعصا وفى اليسرى ببوق سماعة ، ولا بد فى صحبة كلبين سمينين ، كسولين مبحوحين ، كان طرفا لسانيهما معضوضين دائما ومتدليين . فاذا ما صادف اثناء نزهته الصباحية

احدا من معارفه ، كان المارة على بعد عدة شوارع يسمعون صياح القومندان ونباح كلبيه المتجاوب فى اثره .

وككثير من الصم ، كان من عشاق الاوبرا المتيمين ، وكان صوته «الباص» الحازم يدوى احيانا فى المسرح كله اثناء احد الادوار الثنائية العاطفية : «يا للشيطان ، لقد أدى «دو» جيدا ! كأنما فرقش بندقة» . وينداح فى المسرح ضحك مكتوم ، ولكن الجنرال لم يكن حتى يحدس بذلك ، اذ كان يظن بسذاجته أنه قد عبر لجاره همسا عن انطباعه الآنى .

وكانت واجبات القومندان تجعله يتردد كثيرا فى صحبة كلبيه المبحوحين على السجن الحربى الرئيسى ، حيث كان الضباط السجناء ينعمون بالراحة من عناء الخدمة العسكرية ويشربون الشاى ويلعبون الورق ويتبادلون النكات . وكان يسأل كلا منهم باهتمام : «ما اسمك ؟ من سجنك ؟ ما المدة ؟ وما السبب ؟» وكان احيانا ، وبشكل غير متوقع ابدا ، يمتدح أحد الضباط على عمل شجاع قام به وان كان منافيا للقانون ، او كان

احيانا ينهال بالسباب وهو يصرخ حتى يسمع صوته من الشارع . ولكنه ، وبعد ان يصرخ حتى الشبع كان يسأل دون أى تمهيد أو توقف من أين يحصل الضابط على غدائه وكم يدفع لقاءه . وكان يحدث أحيانا أن يعترف له أحد الملازمين الضالين المرسلين الى هنا لمدة حبس طويلة من مكان ناء ليس فيه حتى سجن ، بأنه يكتفى بطعام الجنود لانه لا يملك مالا . فكان انوسوف يأمر على الفور بأن يحضروا للمسكين غداءه من دار القومندان التى لم تكن تبعد عن السجن الحربى اكثر من مائتى خطوة .

وفى مدينة «ك» توثقت صلته بآل توجانوفسكى وربطته بالاطفال أواصر قوية ، حتى اصبح من احتياجاته الروحية ان يراهم كل مساء . فاذا حدث ان سافرت الآنسات الى مكان ما أو اضطرت الخدمة الجنرال الى التغيب ، كان يشعر بوحشة حقيقية وتضيق به غرف دار القومندان الواسعة . وكان يأخذ اجازته كل صيف ، فيقضى شهرا كاملا فى ضيعة آل توجانوفسكى المسماة يجوروفسكويه ، والواقعة على بعد خمسين كيلومترا من «ك» .

لقد اضفى كل رقة روحه المكنونة والحاجة الى حب قلبـي على هؤلاء الاطفال ، وخاصة على الفتاتين . وكان هو نفسه فى وقت ما متزوجا ، ولكن ذلك كان منذ امد بعيد ، حتى انه نسى ذلك . فقد هربت منه زوجته قبل الحرب مع ممثل زائر ، أسرتها سترته المخملية ذات الاساور الدانتلا . وظل الجنرال يرسل لها معاشا حتى وفاتها ، ولكنه لم يسمح لها بالعودة الى المنزل رغم كل مشاهد الندم ورسائلها الضارعة . ولم يكن لديهما اطفال .

٥

كان المساء هادئا ودافئا على غير المتوقع حتى ان لهيب الشموع فى غرفة الطعام والشرفة اشتعل دون حراك . وخلال الغداء اضحك الامير فاسيلى لفوفتش الجميع . كان يتمتع بقدرة غير عادية ومتميزة جدا على رواية القصص . وكان يقيم قصته على مشهد واقعى يكون بطله الرئيسى احد الحاضرين او احد المعارف ،

ولكنه كان يضفى على القصة ألوانا صارخة وقد اكتسى وجهه ملامح الجد ، ويتخذ صوته نبرة عملية الى حد يجعل السامعين يموتون ضحكا . وكان اليوم يروى قصة زواج نيقولاى نيقولايفتش الفاشل من سيدة جميلة وغنية . ولم يكن هناك من اساس حقيقى للقصة سوى ان زوج السيدة لم يوافق على طلاقها . ولكن الحقيقة كانت تختلط لدى الأمير بالاختلاق فى صورة رائعة . فقد جعل نيقولاى نيقولايفتش الجاد المتكبر دائما بعض الشىء يركض ليلا فى الشارع فى جواربه فقط ، واضعا حذاءه تحت ابطيه . وقبض الشرطى فى احدى الزوايا على الشاب ، ولم يتمكن نيقولاى من اثبات انه وكيل النائب العام وليس لص ليل الا بعد شرح طويل عاصف . وكاد الزفاف يتم ، حسب قصة الراوى ، ولكن فى اللحظة الحرجة أضربت عن العمل فجأة عصابة من الشهود المزيفين ، المشتركين فى القضية ، مطالبين بزيادة الاجر . ولما كان نيقولاى بخيلا (وبالفعل كان بخيلا بعض الشىء) وخصما مبدئيا للاضرابات والمظاهرات ، فقد

رفض رفضا قاطعا ان يدفع أكثر ، مشيرا الى احدى مواد القانون المدعمة بفتوى محكمة النقض والابرام . وعندئذ اجاب الشهود المزيفون الغاضبون على السؤال المعروف : «هل يعرف احد من الحاضرين اية اسباب تمنع عقد الزواج ؟» اجابوا فى صوت واحد : «نعم نعرف . ان كل اقوالنا امام المحكمة كانت محض اختلاق أرغمنا عليه السيد النائب بالتهديد والاكراه . أما زوج هذه السيدة ، فبصفتنا مطلعين على الامور نستطيع ان نقول أنه اكبر رجل محترم فى العالم ، وأنه عفيف كيوسف وطيب كملاك» .

واذ التقط الامير فاسيلى خيط قصص الزواج لم يرحم ايضا جوستاف ايفانوفتش فريسى ، زوج آنا ، فروى انه فى اليوم التالى للزفاف حضر مع الشرطة ليطالب بنفى عروسه من بيت والديها باعتبارها لا تحمل بطاقة شخصية منفردة ، وترحيلها الى مقر اقامة زوجها الشرعى . ولم يكن فى هذه المزحة من جوانب الحقيقة سوى ان آنا فى الايام الاولى لحياتها الزوجية كانت مضطرة الى البقاء باستمرار الى جانب امها المريضة ،

لان فيرا رحلت الى الجنوب على عجل ، فاصبح جوستاف ايفانوفتش المسكين فريسة للكآبة واليأس .

وضحك الجميع ، وابتسمت آنا بعينيها المزرورتين . وقهقه جوستاف ايفانوفتش عاليا وباعجاب ، فأصبح وجهه النحيل بجلده الناعم اللامع المشدود ، وشعره الخفيف الاشقر المدهون ، ومحجرى العينين الغائرين ، يشبه جمجمة كشفت فى ضحكها عن أسنان شائهة . لقد ظل يهيم حبا بآنا كما كان فى أول ايام الزواج ، ويحاول دائما ان يكون مجلسه بجوارها ، ويداعبها بيده خفية ، وكان يغازلها بحب ورضى الى حد يبعث على الرثاء عليه والحرج له .

وقبل ان تنهض فيرا نيقولايفنا عن المائدة أحصت الضيوف بشكل آلى . واتضح انهم ثلاثة عشر . ولما كانت ممن يؤمنون بالخرافات فقد قالت لنفسها : «هذا سيئ ! كيف لم افطن من قبل الى عدهم ؟ وفاسيا أيضا مذنب ، لم يقل شيئا بالتليفون» .

وعندما كان المعارف المقربون يجتمعون عند آل شيين او فريسى ، كانوا بعد الغداء عادة

يلعبون البوكر لان كلتا الشقيقتين كانتا مغرمتين بألعاب القمار الى درجة تثير الضحك . بل لقد وضعت قواعد خاصة بهذا الشأن فى منزلى الاسرتين ، اذ كان يوزع على جميع اللاعبين بالتساوى اقراص من العظم ذات قيمة معينة ، ويستمر اللعب الى أن تنتقل جميع القطع الى ملكية لاعب واحد ، عندئذ ينتهى اللعب فى هذا المساء مهما أصر اللاعبون على مواصلته . وكان من المحظور نهائيا سحب اقراص جديدة من الخزنة . وقد وضعت هذه القواعد الصارمة بناء على الخبرة ، وذلك لكبح جماح الاميرة فيرا وآنا اللتين لم تكونا تعرفان فى القمار أية حدود . وبذلك لم يكن مجمل الخسارة يبلغ مائة او مائتى روبل الا نادرا .

وفى هذه المرة ايضا جلسوا يلعبون البوكر . وارادت فيرا ، التى لم تكن تشارك فى اللعب ، ان تخرج الى الشرفة حيث كانوا يجهزون مائدة الشاى ، ولكن وصيفتها نادتها فجأة خارج غرفة الجلوس وبطريقة بها بعض الغموض .

وسألت الاميرة فيرا بعدم ارتياح وهى تدخل

غرفة مكتبها الصغيرة بجوار غرفة النوم :

— ما هذا يا داشا ؟ وما هذا المنظر الاحمق الذى تبدين به ؟ ما الذى تقلبينه فى يديك ؟

ووضعت داشا على الطاولة شيئا صغيرا مربعا ، ملفوفا بعناية فى ورقة بيضاء ومربوطا باحكام بشريط وردى .

وقالت متلعثمة وقد تضرجت لاحساسها بالاهانة :

— أقسم لك يا صاحبة السعادة لا ذنب لى . . لقد جاء وقال . . .

— من هو ؟

— ذو القبعة الحمراء يا صاحبة السعادة . . رسول .

— وماذا ؟

— جاء الى المطبخ فوضع هذا على الطاولة ، وقال «سلميه لسيدتك ، لها شخصيا» فسألته : ممن ؟ فقال : «كل شىء هنا موضح» . ثم انصرف على عجل .

— اذهبى والحقى به .

— لا يمكن يا صاحبة السعادة ، فقد جاء اثناء الغداء ، ولكنى لم اجرؤ على ازعاجك يا صاحبة السعادة . كان ذلك من حوالى نصف ساعة .

— حسنا ، اذهبى .

وقصت الشريط بالمقص والقت به فى السلة مع الورقة التى كان مكتوبا عليها عنوانها . ووجدت تحت الورقة علبة مجوهرات صغيرة من القطيفة الحمراء ، يبدو انها ابتيعت توا من المتجر . ورفعت فيرا غطاءها المبطن بحرير سماوى شاحب ، فرأت سوارا ذهبيا بيضاويا محشورا فى القطيفة السوداء ، وفى داخله وضع بحرص خطاب مطوى على شكل ثمانى أضلاع جميل . وفضت ورقة الخطاب بسرعة . وبدا لها الخط مألوفا ، ولكنها نحتها جانبا على الفور كأى امرأة لكى تتفحص السوار .

كان من الذهب الرخيص ، سميكا للغاية ولكنه مفرغ ، ومرصع من الجانب الخارجى بفصوص عقيق صغيرة قديمة غير مشطوفة جيدا . ولكن فى وسطه برزت خمسة احجار عقيق مصقولة

رائعة تحيط بحجر غريب صغير أخضر ، وكان كل واحد منها بحجم حبة البازلاء . وعندما ادارت فيرا السوار بحركة عفوية موفقة امام ضوء المصباح الكهربائى ، التهبت فجأة اضواء حمراء قاتمة حية رائعة ، بعيدا تحت سطح تلك الاحجار الأملس البيضاوى .

وقالت فيرا لنفسها «كأنها دم !» واعتراها قلق مفاجىء .

ثم تذكرت الرسالة ففضتها . وقرأت الكلمات التالية المكتوبة بخط دقيق رائع كخط النساخين .

«صاحبة السعادة ، الاميرة

فيرا نيقولايفنا المبجلة !

اننى اذ اهنئكم بكل احترام بعيد ميلادكم السعيد المشرق ، لأتجاسر على رفع هديتى المتواضعة المخلصة لكم» .

فقالت فيرا لنفسها بعدم ارتياح : «آه . . انه هو !» ولكنها مع ذلك واصلت قراءة الرسالة . . .

«اننى ما كنت لاسمح لنفسى ابدا بأن اقدم لكم شيئا اخترته بنفسى ، فلست أملك

الحق فى ذلك ، ولا الذوق الرفيع ، بـل — وأصارحكم — ولا النقود . وعموما فاننى اعتقد انه ليس هناك فى العالم كله كنز جدير أن يزينكم .

ولكن هذا السوار كان ملكا لام جدتى ، وكان آخر من حمله المرحومة والدتى . وستجدون وسط الاحجار الكبيرة حجر اخضر . انه نوع نادر للغاية من العقيق . . عقيق اخضر . وحسب الاعتقاد القديم الذى بقى فى عائلتنا ، فهذا الحجر يستطيع ان يهب المرأة التى تحمله القدرة على معرفة الغيب ، ويبعد عنها الافكار المرهقة ، اما الرجال فيحميهم من الموت غير الطبيعى .

وقد نقلت جميع الاحجار من السوار الفضى القديم الى هنا بكل دقة ، ولهذا فبوسعكم ان تكونوا على ثقة من أن احدا قبلكم لم يحمل هذا السوار .

وبامكانكم ان تلقوا على الفور بهذه اللعبة المضحكة ، أو تهدوها الى اى شخص آخر ، ولكنى سأكون سعيدا لمجرد أن يديكم قد داعبتها .

اننى اتوسل اليكم ألا تغضبوا علىّ ، فاننى احمر خجلا عندما اتذكر كيف تجاسرت منذ سبعة اعوام على أن اوجه اليكم ، انتم الآنسة النبيلة ، رسائل حمقاء فظيعة ، بل وان انتظر ردا عليها . ولكن لم يبق فى نفسى الآن سوى التبجيل والعبادة الخالدة والولاء الذليل .

وليس بوسعى الآن الا ان اتمنى لكم السعادة كل لحظة ، وأن افرح اذا كنتم سعداء . اننى اركع فى خيالى حتى الامس الارض للاثاث الذى تجلسون عليه ، وللارض التى تسيرون عليها ، وللاشجار التى تلمسونها عرضا ، وللخادم التى تتحدثون اليها . ولم يعد لدىّ حتى حسد للناس او الاشياء .

استسمحكم العفو مرة اخرى لازعاجى لكم بهذه الرسالة الطويلة التى لاداعى لها .

عبدكم المطيع حتى الموت وما بعد الموت

ج . س . ج .»

«هل أُطْلع فاسيا عليها ام لا ؟ واذا اطلعته . . فمتى ؟ الآن ، أم بعد انصراف الضيوف ؟ كلا ، من الافضل فيما بعد . فلو

عرضتها الآن فلن يكون هذا المسكين هو وحده المضحك ، بل سأكون معه فى نفس الوضع » .

هكذا فكرت الاميرة فيرا وهى لا تستطيع ان تحول عينيها عن الاضواء الخمسة الحمراء الدامية ، المرتعشة داخل احجار العقيق الخمسة .

٦

لم يتمكنوا الا بعد لأى من جعل العقيد بونماريوف يجلس الى مائدة البوكر . وأخذ يقول أنه لا يعرف هذه اللعبة ، وانه عموما لا يعترف بالقمار حتى ولو لمجرد التسلية ، وانه يحب «الفنت» فقط ويلعبه جيدا الى حد ما . لكنه لم يصمد أمام التوسلات ، وجلس اخيرا .

وفى البداية اضطروا الى تعليمه وتصويبه ، لكنه سرعان ما استوعب قواعد البوكر ، فلم يمر نصف ساعة الا وكانت جميع القطع أمامه .

وقالت آنا بغضب كوميدى :

— هذا لا يصح ! على الاقل دعنا نفعل قليلا .

وكان هناك ثلاثة من الضيوف ، هم

سبيشنيكوف والعقيد ، ونائب المحافظ ، ذلك الألمانى المحدود والممل والمهذب ، كانوا من النوع الذى لم تعرف فيرا ابدا كيف تسليهم أو ما الذى تفعله معهم ، ولذلك رتبت لهم لعبة الفنت واجلست رابعهم جوستاف ايفانوفتش . وأسبلت آنا جفنيها من بعيد ، علامة الامتنان لها ، ففهمت شقيقتها اشارتها على الفور . كان الجميع يعرفون انه اذا لم يجلسوا جوستاف ايفانوفتش الى مائدة اللعب فسيظل طوال المساء يحوم حول زوجته كأنه مربوط بها ، ويكشر كاشفا عن أسنان نخرة على وجه كالجمجمة مفسدا على زوجته مزاجها .

أما الآن فقد سارت السهرة بانتظام ، دون كلفة وفى جو من المرح . وغنى فاسوتشوك بصوت خافت وبمصاحبة جينى ريتر أغانى ايطالية شعبية واغانى شرقية لروبنشتين . وكان صوته ضعيفا ولكنه سلس وصادق وذو نبرة رقيقة . ورغم ان جينى ريتر كانت عازفة متشددة للغاية ، الا انها كانت تصاحبه دائما عن طيب خاطر . وعموما فقد قيل ان فاسوتشوك يغازلها .

وعلى اريكة فى الزاوية كانت آنا منهمكة فى مغازلة الفارس . واقتربت فيرا وأخذت تنصت وهى تبتسم .

وقالت آنا بمرح وهى ترد عينيها التتريتين الرقيقتين الماكرتين ناظرة الى الضابط :

ـــ كلا ، كلا ، ارجوك لا تضحك . انت طبعا تعتقد أنك اذا ركضت غير عابىء بشىء فى مقدمة الفرسان وتخطيت الموانع فى السباق ، فهذا هو العمل . لكن هلا نظرت الى عملنا . لقد انتهينا لتونا من يانصيب ذى سحب فورى . اتظن ان ذلك كان سهلا ؟ ابدا ! زحام ، وجو خانق بالدخان ، بوابون وحوذية ، لا أعرف لهم اسماء . . . والجميع يحاصرونك بشكاواهم ، وبمشاكل ما . . . وتقف طول النهار على قدميك ، طول النهار . ثم هناك بعد ذلك حفلة لصالح العاملات الذهنيات ذوات الدخل المحدود ، ثم حفلة راقصة . . .

فقاطعها باختينسكى :

ـــ آمل الا تحرمينى فيها من رقصة مازوركا معك ؟

وانحنى قليلا ودق بمهمازيه تحت الكرسى .

ـــ اشكرك . . . لكن اكثر نقطة ضعف عندى هى ملجأنا . اتفهم ، ملجأ للاطفال ذوى السلوك السيىء . . .

ـــ أوه . . . افهم جيدا . لا بد ان ذلك مضحك جدا ، اليس كذلك ؟

ـــ كفى ، كيف لا تخجل من الضحك على اشياء كهذه . فهل تدرك أين مأساتنا ؟ اننا نريد ان نأوى هؤلاء الاطفال المساكين ، ذوى النفوس المليئة بالعيوب الموروثة والامثلة السيئة ، نريد أن نحيطهم بالدفء ، والحنان . . .

ـــ هم ! . . .

ـــ . . . وان نسمو بأخلاقهم ، ونوقظ فى نفوسهم الاحساس بالواجب . . هل تفهمنى ؟ واذا بنا نتلقى كل يوم مئات ، بل آلاف الاطفال ، ولكن ليس بينهم طفل واحد سيىء السلوك ! واذا سألت الوالدين : اليس طفلكم سيىء السلوك ، فانهم يغضبون ، تصور ! وها هو الملجأ مفتوح ، ومضاء ، وكل شىء جاهز ، وليس فيه ربيب واحد أو ربيبة ! لم

يبق الا ان نعلن عن جائزة لكل من يأتى بطفل سيىء السلوك .

فقاطعها الفارس بنبرة جدية متسللة :

— يا آنا نيقولايفنا . . لماذا جائزة ؟ خذينى دون مقابل . اقسم لك ، انك لن تجدى طفلا اسوأ منى سلوكا فى اى مكان .

— كفى ! لا يمكن الكلام معك فى امر جدى . — وقهقهت وهى تستلقى على ظهر الاريكة ، بينما لمعت عيناها .

كان الامير فاسيلى لفوفتش جالسا الى مائدة مستديرة يعرض على اخته وعلى أنوسوف وزوج اخته ألبوما عائليا فكاهيا برسوم رسمها بنفسه . وضحك الاربعة من قلوبهم ، فجذب هذا اليهم شيئا فشيئا الضيوف الذين لم يكونوا مشغولين باللعب .

كان الالبوم بمثابة اضافة ، او رسوم مصاحبة لقصص الامير فاسيلى . فكان يعرض بهدوئه التليد مثلا «قصة المغامرات العاطفية للجنرال الشجاع أنوسوف فى تركيا وبلغاريا ، وغيرهما من البلدان» و«مغامرات الامير الغندور نيقولا بولاط

توجانوفسكى فى مونت كارلو» وغيرها . .

وقال وهو يوجه نظرة ساخرة سريعة الى اخته :

— سترون الآن يا سادة وصفا قصيرا لحياة شقيقتنا المحبوبة لودميلا لفوفنا . القسم الاول : الطفولة . «شب الصغير ، وكان يدعى ليما» .

وظهرت على ورقة الألبوم هيئة فتاة صغيرة مرسومة على طريقة الاطفال عن عمد ، بزاوية البروفيل ولكن بعينين ، وبخطين متكسرين بارزين من تحت الجونلة بدلا من الساقين ، وبأصابع نافرة من يدين ممدودتين .

وضحكت لودميلا لفوفنا وقالت :

— لم يدعنى أحد «ليما» ابدا .

— القسم الثانى : الحب الأول . الخيّال اليونكر يقدم للآنسة ليما اشعارا من صنعه وهو يجثو على ركبتيه . وفى هذه الاشعار أبيات هى حقا فى روعة حبات اللؤلؤ :

ساقك الرائعة البهاء
تجسيد رغبة ليس لها مثيل .

وها هى الصورة الحقيقية لتلك الساق .

اما هنا فنجد اليونكر يحرض ليما البريئة على الهرب من بيت والديها . وهنا عملية الهرب ذاتها . أما هذا فموقف حرج ، اذ يلحق الاب الثائر بالهاربين . ويلقى اليونكر الجبان بالتبعة كلها على ليما المسكينة :

ضيعت ساعة على التزويق والتبرج
حتى ادركتنا المطاردة الرهيبة
فلتتصدى اذن لها وحدك
أما أنا فهربا أفر .

وبعد قصة الآنسة ليما جاءت رواية اخرى هى «الاميرة فيرا وعامل التليغراف العاشق» .

وقال فاسيلى لفوفتش موضحا بجدية :

— ان هذه القصيدة المؤثرة لم تسطر الا بالريشة والاقلام الملونة فقط . أما النص فيجرى اعداده .

وقال انوسوف :

— هذا شىء جديد ، لم أره من قبل .

— اخر طبعة . حدث جديد فى سوق الكتب .

ولمست فيرا كتفه برقة وقالت :

— من الافضل لاداعى .

ولكن فاسيلى لفوفتش اما لم يسمع ما قالته او انه لم يعره اهتماما .

— تعود بداية القصة الى عصور ما قبل التاريخ . ففى يوم رائع من ايام مايو تسلمت فتاة تدعى فيرا بالبريد رسالة تحمل صورة زوج حمام يتبادل القبل . وها هى الرسالة ، وها هو الحمام .

وتحتوى الرسالة على اعتراف حار بالحب ، مكتوب ضد جميع قواعد الاملاء . وتبدأ الرسالة هكذا : «يا رائعتى الشقراء . . انت التى . . . بحر عاصف من اللهيب يتأجج فى صدرى . ونظرتك قد أنشبت اسنانها فى صدرى الممزق كأفعى سامة» الخ . الخ . . وفى النهاية توقيع متواضع : «من حيث الخدمة تحت السلاح انا عامل تليغراف فقير ، ولكن مشاعرى جديرة بالميلورد جيورج . اننى لا اجرؤ على البوح باسمى كاملا ، لانه اسم بذئ جدا . ولذلك اوقع بالاحرف الاولى فقط : ب . ب . ج . ارجو ارسال الرد على شباك البريد» . وهنا تستطيعون

يا سادة ان تروا صورة ذلك العامل ، المرسومة بالاقلام الملونة بشكل موفق .

وقلب فيرا مصاب (ها هو القلب وها هو السهم) . ولما كانت فتاة نبيلة الخلق ومهذبة فقد عرضت الرسالة على والديها الموقرين ، وكذلك على صديق طفولتها وخطيبها الشاب الجميل فاسيا شيين . وها هو الرسم . وبالطبع ، بمرور الوقت ، سنضع هنا توضيحات شعرية للرسوم .

ويرد فاسيا شيين دبلة الخطوبة لفيرا وهو ينتحب قائلا : «لست اجرؤ على تعكير صفو سعادتك ، لكنى اتوسل اليك ألا تتخذى الخطوة الحاسمة على الفور . فكرى وتمعنى ، واختبرى صدق شعورك وشعوره . انك لا تعرفين الحياة يا طفلى ، وتحلقين كالفراشة المتهالكة على النار الوهاجة . اما أنا . فيا للحسرة ! اننى اعرف ما هو المجتمع البارد المنافق . فلتعلمى ان عمال التليغراف جذابون لكنهم ماكرون . فهم يجدون لذة غير مفهومة فى ان يخدعوا بجمالهم الابى ومشاعرهم المزيفة ضحية غرة ويسخروا منها بقسوة» .

ويمر نصف عام . وتنسى فيرا فى خضم فالس الحياة عاشقها وتتزوج من الشاب الجميل فاسيا ، ولكن عامل التليغراف لا ينساها . وها هو يتنكر فى زى منظف المداخن ، ويلوث نفسه بالسناج ويتسلل الى مخدع الاميرة فيرا . وها انتم ترون آثار اصابعه الخمسة وشفتيه فى كل مكان : على الابسطة ، والوسائد ، على ورق الجدران ، وحتى على الباركيه .

وها هو يرتدى زى امرأة قروية ويلتحق بمطبخنا لغسل الاطباق . ولكن تودد الطاهى لوقا المبالغ فيه يجعله يركن الى القرار .

وها هو فى مستشفى المجانين . وها هو قد ترهبن . ولكنه يواظب كل يوم على ارسال الخطابات العاطفية الملتهبة الى فيرا . وفى تلك المواضع التى تسقط فيها دموعه على الورق ، يسيح الحبر فيصبح بقعا .

وها هو اخيرا يموت ، ولكنه يوصى لفيرا قبل وفاته بزرين من أزرار حلته الرسمية وبقارورة عطر مملوءة بدموعه . . .

— من يريد شايا يا سادة ؟ — سألت فيرا نيقولايفنا الضيوف .

٧

كان الغسق الخريفى الطويل يرسل آخر اضوائه . وانطفأ آخر خيط أحمر رفيع كالشق كان يتوهج فى أقصى اطراف الافق بين سحابة زرقاء والارض . ولم تعد تبين لا الارض ولا الاشجار ولا السماء . وتراقصت فوق الرأس رموش نجوم كبيرة فى ظلمة الليل ، بينما ارتفع شعاع ازرق من الفنار كعمود رفيع الى أعلى مباشرة وانسكب على قبة السماء دائرة رقيقة ضبابية مضيئة . وتهافتت فراشات الليل على اغطية الشموع الزجاجية . ومن الظلام والبرودة تضوع شذى زهور الطباق الابيض النجمية أكثر حدة .

وكان سبيشنيكوف ونائب المحافظ وبونماريوف قد رحلوا منذ فترة طويلة ، بعد ان وعدوا باعادة الخيول من محطة الترام لتحمل القومندان . وجلس

بقية الضيوف فى الشرفة . وأجبرت الشقيقتان الجنرال انوسوف ، رغم احتجاجه ، على ارتداء المعطف ، ودثرتا ساقيه ببطانية ثقيلة . وكانت امامه زجاجة نبيذه الاحمر المفضل Pommard ، بينما جلست فيرا وآنا عن يمينه وشماله ، تحيطان الجنرال برعايتهما ، وتملآن كأسه الرقيقة بالنبيذ الغليظ الثقيل ، وتقربان منه الكبريت ، وتقطعان الجبن وما الى ذلك . واسبل القومندان العجوز جفنيه من شدة المتعة .

وقال العجوز وهو يتطلع الى لهب الشموع ويهز رأسه فى شرود :

— نعم . . . الخريف ، الخريـــف ، الخريف . . ها قد آن الاوان لارحل انا ايضا . كم اسف لذلك ! الآن فقط حلت أجمل الايام ، فما أجمل ان تعيش هنا على شاطىء البحر وتستمتع بالهدوء والسكينة . . .

فقالت فيرا :

— فلتبق معنا يا جدى .

— لا استطيع يا عزيزتى ، لا استطيع . . الخدمة . . الاجازة انتهت . طبعا كان اجمل

لو بقيت . انظري الى الورود كيف تتضوع . . اننى اشم رائحتها من هنا . اما فى الصيف ، فى الحر فلم تنتشر رائحة زهرة واحدة . . اللهم الا الاكاسيا البيضاء . . وحتى هذه كانت رائحتها كرائحة الحلوى .

واخرجت فيرا من المزهرية وردتين صغيرتين ، واحدة وردية والاخرى كارمن ، ووضعتهما فى عروة معطف الجنرال .

وقال انوسوف :

— شكرا يا فيرا .

وامال رأسه الى ياقة المعطف وشم الوردتين ، وفجأة ابتسم ابتسامة عجوز رائعة .

— اذكر عندما وصلنا الى بوخارست وتوزعنا على الشقق . وذات مرة كنت اسير فى الشارع ، وفجأة غمرتنى رائحة ورد نفاذة فتوقفت ، فرأيت قارورة رائعة من الكريستال بها زيت ورد ، موضوعة بين جنديين . وكان الجنديان يدهنان به حذائيهما وترابيس بندقيتيهما . فسألتهما : «ماذا معكما ؟» فأجابا : «زيت ما يا صاحب السمو ، وضعناه على العصيدة فلم ينفع ، طعمه مر ، ولكن

رائحته طيبة» . ومنحتهما روبلا فأعطيانى القارورة بكل سرور . كان ما تبقى فيها من زيت لا يزيد على النصف ، ولكن نظرا لارتفاع سعره فقد كان يساوى ما لا يقل عن مائتى روبل . ولكن الجنديين كانا مسرورين فقالا : «وها هو يا صاحب السمو فول تركى ، غليناه فى الماء كثيرا ، ولكنه لم ينضج ، هذا الملعون» . وكانت تلك حبوب البن ، فقلت لهما : «انه مفيد للاتراك فقط ، اما الجنود فلا ينفعهم» . ولحسن الحظ انهم لم يلتهموا الافيون ، فقد رأيت فى بعض الاماكن اقراصه وقد ديست فى الوحل .

وقالت آنا :

— خبرنى يا جدى بصراحة . . هل شعرت بالخوف اثناء المعارك ؟ هل كنت تخاف ؟

— يا له من سؤال غريب يا آنا . طبعا خفت . اياك ان تصدقى من يزعم لك انه لم يخف ، وأن صفير الرصاص كان بالنسبة له كالموسيقى العذبة . فهو اما معتوه واما مفاخر . الجميع يخافون بنفس الدرجة . لكن بعضهم

ينهار بسبب الخوف ، بينما يسيطر الآخرون على اعصابهم . وهكذا فالخوف يبقى دائما هو الخوف ، ولكن القدرة على ضبط النفس تزداد بالخبرة . ومن هنا يظهر الابطال والشجعان . هكذا . ولكنى خفت ذات مرة لدرجة الموت .

فصاحت الشقيقتان بصوت واحد :

— احك لنا يا جدى .

كانتا الى الآن تصغيان الى روايات انوسوف بنفس الاعجاب الذى كانتا تصغيان به فى طفولتهما المبكرة . حتى ان آنا وضعت مرفقيها لا اراديا ، وبشكل طفولى ، على الطاولة ، واسندت ذقنها على ظهر راحتيها المعقودتين . كان فى روايته الساذجة المتأنية نوع من السحر المريح . واتسمت تركيبات جمله التى كان يروى بها ذكرياته الحربية بطابع غريب غير متقن ، أميل قليلا الى طابع الجمل المكتوبة ، وان كان ذلك عن غير قصد ، كأنما كان يروى وفق نمط قديم لطيف .

وقال انوسوف :

— القصة قصيرة جدا . كان ذلك فى

«شيبكا» ، فى الشتاء ، بعد أن اصبت بصدمة فى رأسى . كنا أربعة نسكن فى ملجأ . وهناك وقعت تلك الحادثة الرهيبة . فحينما استيقظت من الفراش ذات صباح ، خيل الى اننى لست ياكوف ، بل نيقولاى ، ولم استطع أبدا أن ابدد من نفسى هذا الاعتقاد . وعندما لاحظت اننى افقد عقلى صرخت طالبا ان يحملوا لى ماء ، فبللت رأسى ، وعاد الىّ عقلى .

وقالت عازفة البيانو جينى ريتر :

— اننى اتصور يا ياكوف ميخائيلوفتش كم من الانتصارات احرزت على النساء هناك . فلا بد أنك كنت جميلا جدا فى صباك .

فصاحت آنا :

— أوه . . جدنا الآن أيضا فاتن !

فقال انوسوف وهو يبتسم بهدوء :

— لم اكن فاتنا ، ولكنى لم اكن مهجورا . ففى بوخارست اياها وقعت حادثة مؤثرة . فعندما دخلنا المدينة قابلنا سكانها فى الميدان بطلقات المدافع ، مما حطم كثيرا من النوافذ . ولكن تلك النوافذ التى كانت موضوعة عليها اكواب

بها ماء لم تتحطم . أما كيف عرفت ذلك ، فاليكم السبب . فعندما دخلت الشقة المخصصة لى رأيت قفصا صغيرا منخفضا موضوعا على النافذة ، وفوقه زجاجة من البلور كبيرة الحجم بها ماء شفاف ، وكانت تسبح فيها اسماك ذهبية ، وبينها جلس عصفور كنار على نتوء صغير . كنار فى الماء ! ادهشنى ذلك ، ولكنى عندما تفحصت الزجاجة وجدت قاعها عريضا وناتئا فى وسطه ، فكان بوسع الكنار ان يطير الى هناك ويجلس بسهولة . وبعد ذلك صارحت نفسى بأننى لست نبيه الخاطر ابدا .

دخلت الدار فرأيت امرأة بلغارية جميلة جدا ، فاطلعتها على التصريح بالاقامة ، وسألتها بالمناسبة عن سر بقاء نوافذهم سليمة بعد قصف المدفعية ، فأوضحت لى ان ذلك بسبب الماء . كذلك اوضحت لى سر الكنار ، أوه كم كنت بليدا ! . . . واثناء الحديث التقت نظراتنا ، فسرت بيننا شرارة ، كالشرارة الكهربائية ، فشعرت أننى وقعت فى حبها فورا ، بعنف وبلا رجعة .

وصمت العجوز ، واحتسى قطرات من النبيذ الاسود بحذر .

فسألته عازفة البيانو :

— ولكنك بحت لها بحبك فيما بعد ؟

— هم . . . بالطبع تصارحنا . . لكن دون كلمات . وقد حدث ذلك على النحو التالى . . .

فقاطعته آنا وهى تضحك بخبث :

— أرجو يا جدى الا تجعلنا تحمر خجلا ؟

— كلا ، كلا ، كانت قصة حب مؤدبة جدا . اتدرين ، حيثما مكثنا للاقامة كان سكان المدن يعاملوننا احيانا بخفة وبصرامة احيانا اخرى ، اما فى بوخارست فقد كان السكان يعاملوننا ببساطة ، لدرجة انه عندما أخذت اعزف على الكمان ذات مرة ، ارتدت الفتيات ثيابهن الجميلة على الفور وجئن ليرقصن ، ثم أصبح ذلك شيئا مألوفا كل يوم .

وذات مساء ، اثناء الرقص على ضوء القمر ، دلفت الى المدخل الذى كانت تختبىء فيه حسنائى البلغارية . وعندما رأتنى تظاهرت بأنها تنقى اوراق الورد الجافة ، التى ، بالمناسبة ،

يجمعها السكان هناك اكياسا كاملة . ولكنى عانقتها وضممتها الى قلبى ، وقبلتها عدة مرات .

ومنذ ذلك التاريخ كنت اسرع الى محبوبتى عندما يظهر القمر مع النجوم فى السماء ، فأنسى معها مؤقتا كل مشاغل النهار . وعندما حان وقت رحيلنا عن تلك البقعة ، تبادلنا القسم بأن نظل على حبنا الخالد ، وافترقنا الى الابد .

وسألت لودميلا لفوفنا بخيبة امل :

— وهذا كل ما هنالك ؟

فقال القومندان معارضا :

— وماذا تريدين أكثر ؟

— كلا يا ياكوف ميخائيلوفتش ، عفوا ، فليس هذا حبا ، بل مغامرة ضابط جيش عابرة .

— لست أدرى يا عزيزتى ، اى والله لا ادرى ، أكان ذلك حبا أم شعورا آخر . . .

— كلا . . خبرنى . . أحقا لم تجرب الحب الحقيقى ابدا ؟ اتدرى ، ذلك الحب الذى . . . اقصد . . الذى . . يعنى . . الحب المقدس ، الطاهر ، الخالد . . الحب السامى . . احقا لم تحب ؟

فاضطرب العجوز وقال وهو ينهض من كرسيه :

— لن استطيع فى الحقيقة أن ارد عليك . يبدو أننى لم أحب . فى البداية لم يكن لدىّ وقت : فالشباب ، والحفلات والورق ، والحرب . . . بدا لى لن تكون هناك نهاية للحياة والشباب والصحة . ثم حينما نظرت حولى أكتشفت اننى أصبحت طللا . . . حسنا ، والآن لا تبقينى اكثر من ذلك يا فيرا . . سأودع . . — والتفت الى باختينسكى — يا خيّال ، الليلة دافئة ، فلنمش لملاقاة العربة .

فقالت فيرا :

— وانا ايضا سأذهب معك يا جدى .

واسرعت آنا تقول :

— وانا .

وقبل ان تذهب اقتربت من زوجها وقالت له بصوت خافت :

— اذهب وانظر . . هناك فى درج طاولتى علبة حمراء وفيها رسالة . اقرأها .

٨

سارت آنا وباختينسكى فى المقدمة ، وتبعهما القومندان ، على بعد حوالى عشرين خطوة ، متأبطا ذراع فيرا . كان الليل حالكا ، حتى انه فى الدقائق الاولى ، وقبل ان تتعود العيون على الظلمة بعد النور ، اضطروا الى تلمس الطريق بالاقدام . وكان على انوسوف ، الذى احتفظ رغم اعوامه بحدة بصر مدهشة ، ان يساعد رفيقته . وكان بين حين وآخر يمسح براحته الباردة الكبيرة برقة على ذراع فيرا المستلقية خفيفة على ثنية كمه .

وفجأة قال الجنرال كأنما يواصل بصوت مسموع حبل افكاره :

— يا لها من مضحكة لودميلا لفوفنا هذه . كم لاحظت فى حياتى مثل ذلك : ما ان تبلغ المرأة سن الخمسين ، خاصة اذا كانت أرملة او عانسا ، حتى تتوق الى اللف والدوران حول حب الآخرين . فهى اما تتجسس وتتشفى وتردد الاقاويل ، واما تقحم نفسها لتدبير سعادة

الغير ، وأما تلوك صمغا كلاميا عن الحب السامى . ولكنى اريد ان أقول أن الناس فى زماننا لم يعودوا قادرين على الحب . اننى لا أرى حبا حقيقيا . وحتى فى زمانى لم أره !

فقالت فيرا معارضة بلطف وهى تضغط قليلا على ذراعه :

— كيف ذلك يا جدى ؟ لماذا الافتراء ؟ انت نفسك كنت متزوجا . الا يعنى هذا أنك احببت فعلا ؟

— لا يعنى شيئا على الاطلاق يا فيرا العزيزة . اتدرين كيف تزوجت ؟ نظرت فاذا بجوارى فتاة نضرة . كانت تتنفس فيعلو صدرها ويهبط تحت البلوزة . وتسدل رموشها ، التى كانت طويلة جدا ، فتتضرج بالحمرة . وكانت بشرة خديها رقيقة ناعمة ، وعنقها أبيض كله براءة ، وذراعاها لينتين دافئتين . يا للشيطان ! ومن حولك يروح والداها ويجيئان ، ويتنصتان وراء الابواب ، ويتطلعان اليك بعيون حزينة مستكينة كعيون الكلاب . وعندما تنصرف تتبادل قبلات سريعة وراء الباب . . . واثناء تناول الشاى

تمسك ساق تحت المائدة كأنما عفوا . . . وانتهى كل شيء . «يا عزيزى نيكيتا انطونيتش ، لقد جئتكم طالبا يد ابنتكم . صدقنى انها ملاك طاهر . . .» . وتدمع عينا أبيها ، وينهال عليك بالقبلات . . . «يا عزيزى ! كنت ارى ذلك منذ بعيد . . . فليهبكم الله . . . فلترع هذا الكنز . . .» . ثم بعد ثلاثة أشهر يسير هذا الكنز المقدس فى رداء رث وفى حذاء دون جورب ، وشعرها مشعث ، خفيف ، مملوء بمشابك تجعيد الشعر ، وتتعارك مع الخدم كالطاهية ، وتتغنج مع الضباط الشبان وتتلوى وتتقصع وتقلب عينيها . ولسبب ما تدعو زوجها امام الناس بـ«جاك» . . اتدرين ، تقولها من الانف ، ممطوطة . امرأة مبتذلة ، ممثلة ، رثة ، بخيلة . وعيونها تطفح بالزيف . . . لقد مر كل ذلك الآن ، وهدأت النفس واستقرت . بل اننى ممتن فى قرارة نفسى لذلك الممثل . . . احمد الله ان لم يكن لدينا اطفال . . .

— هل غفرت لهما يا جدى ؟

— ليس الغفران هو الكلمة المناسبة

هنا يا فيرا . فى البداية كنت كالمجنون . ولو رأيتهما آنذاك لقتلتهما معا بلا شك . ثم هدأت نفسى بالتدريج ، ولم يبق فيها شيء سوى الاحتقار. وهذا حسن . فقد خلصنى الله من اراقة الدم عبثا . وفوق ذلك فقد نجوت من المصير العام لمعظم الازواج . ترى ماذا كنت الآن لولا تلك الصدفة المزرية ؟ جملا محملا بالاثقال ، متساهلا مشينا ، متسترا ، بقرة حلوب ، ستارا ، قطعة اثاث منزلية ضرورية . . . لا ، لا يا فيرا ، الخير فيما حدث .

— ابدا ، ابدا يا جدى ، اعذرنى ولكن الذى يتكلم فيك الآن هو صوت الاساءة السابقة . . انك تعمم تجربتك التعيسة على البشرية كلها . خذنى ، مثلا ، انا وفاسيا . هل يمكن اعتبار زواجنا غير سعيد ؟

صمت انوسوف طويلا ، ثم قال متباطئا وعلى مضض :

— حسنا . . لنقل ان ذلك استثناء . . . ولكن فى معظم الاحوال . . لماذا يتزوج الناس ؟ لنأخذ على سبيل المثال المرأة . انه الخجل

من أن تبقى عانسا ، وخاصة اذا كانت رفيقاتها قد تزوجن . من الصعب ان تبقى عالة على الاسرة . وهو الامل بأن تصبح ربة البيت والمتصرفة فيه ، ان تصبح سيدة . . مستقلة . . . وفوق ذلك فهناك الحاجة ، الحاجة الجسدية المباشرة الى الامومة ، والى البدء فى بناء عش خاص . اما الرجال فلديهم دوافع اخرى . هناك اولا التعب من حياة العزوبية ، ومن الفوضى فى غرف البيت ، ومن طعام الحانات ، من القذارة واعقاب السجائر ، من الملابس الممزقة والمبعثرة ، من الديون ، من الاصدقاء القليلى الذوق . . الخ . . . وثانيا الاحساس بأن الحياة العائلية أجدى وأكثر صحة وتوفيرا . وثالثا التفكير بأنك ستموت ، ولكن اولادك سيكونون هم الجزء الذى يبقى منك مع ذلك فى الدنيا . . . شىء اشبه بوهم الخلود . ورابعا هناك اغراء البراءة ، كما فى حالتى . وفوق ذلك ، فهناك احيانا فكرة الحصول على الصداق . فأين الحب اذن ؟ الحب المنزه ، المتفانى الذى لا يطمع فى مكافأة ؟ ذلك الحب الذى يقولون عنه «اقوى

من الموت» ؟ اتعلمين ، ان ذلك الحب الذى يجعلك مستعدا للقيام بأية بطولة فى سبيله ، الى التضحية بحياتك ، الى تحمل العذاب . هذا الحب ليس مشقة بل سعادة . مهلا ، مهلا ، يا فيرا ، اتريدين ثانية ان تستشهدى بزوجك فاسيا ؟ اؤكد لك اننى احبه . انه شاب طيب . ومن يدرى ، ربما اظهر المستقبل حبه فى ضوء من الجمال الباهر . لكن حاولى ان تفهمى عن اى حب اتحدث . الحب يجب ان يكون مأساة . أعظم اسرار الكون ! ولا يجب ان تمسه اية راحة من راحات الحياة ولا أية حسابات او مساومات .

فسألت فيرا بهمس :

— هل رأيت حبا كهذا يا جدى ؟

فأجاب العجوز بحزم :

— كلا . صحيح اننى أعرف حالتين مشابهتين . ولكن واحدة منهما أملتها الحماقة . . أما الثانية فـ . هكذا . . تبعث على الرثاء . . . اذا أردت رويتها لك . . انها حكاية قصيرة .

— ارجوك يا جدى .

— حسنا . فى احد افواج فرقتنا (ليس فوجنا على اى حال) كانت هناك زوجة قائد الفوج . آه . يا فيرا ، يا لها من سحنة شائهة . امرأة معروقة ، حمراء ، طويلة ، نحيلة ، واسعة الفم . . . كان الطلاء يتساقط منها كما يتساقط من منزل قديم فى موسكو . كانت فى الفوج مثل مسالينا * : المزاج الحاد ، التسلط ، احتقار الآخرين ، الولع بالتغيير . وفوق كل ذلك كانت مدمنة مورفين .

وذات مرة ، فى الخريف ، ارسلوا الى الفوج ضابطا جديدا ، مثل عصفور فرخ ، فقد كان متخرجا من الكلية الحربية لتوه . وبعد شهر استولت هذه البغلة العجوز عليه تماما . اصبح لها الوصيف والخادم والعبد ومراقصها الدائم فى الحفلات ، وحامل مروحتها ومنديلها ، ويخرج الى الصقيع بالسترة فقط ليستدعى عربتها . يا

* فاليريا مسالينا — زوجة الامبراطور الرومانى كلاوديوس (القرن الاول بعد الميلاد) اشتهرت بالقسوة والفجور . اعدمت عام ٤٨ م . — المترجم .

له من شىء فظيع ان يضع صبى يانع طاهر حبه الاول تحت قدمى فاجرة عجوز مجربة ومتسلطة . واذا خرج من هذه المحنة سليما ساعتها ، فاعتبريه مع ذلك فى عداد الهالكين ، فتلك وصمة تبقى طول العمر .

وبحلول عيد الميلاد كانت قد ملته ، فعادت الى احد معشوقيها القدامى المجربين . أما هو ، الشاب ، فلم يطق هجرها . كان يتبعها كالشبح . وهزل وأصفر وارهقه العذاب . وبتعبير البلغاء «ألقى الموت بظله على جبينه العريض» . كان يغار عليها بشكل فظيع . وقالوا انه كان يقف ليالى بأكملها تحت نوافذها .

وذات مرة ، فى الربيع ، اقاموا فى الفوج نزهة خلوية . وكنت اعرفه واعرفها شخصيا ، ولكنى لم اشهد تلك الواقعة . وكما هى العادة فى تلك الاحوال شربوا كثيرا . وفى الليل عادوا سيرا على الاقدام فوق الخط الحديدى . وفجأة رأوا قطار بضائع قادما من الجهة المقابلة . كان يسير ببطء شديد وهو يصعد مطلعا حادا ويطلق الصفير . وعندما حاذتهم انوار القاطرة همست

فجأة فى اذن الضابط : «انك تردد دائما انك تحبنى . ولكنى لو امرتك ان تلقى بنفسك تحت القطار فلن تفعل على ما اظن» ، واذا به ينطلق ، دون ان يتفوه بكلمة ، ويلقى بنفسه تحت القطار . ويقال انه قدّر ان يلقى بنفسه بين العجلات الامامية والخلفية ، لكى يشطره القطار نصفين . ولكن احد الحمقى قرر ان يمسك به ويدفعه بعيدا . فلم يستطع . كان الضابط قد تشبث بالقضيب ، فبتر القطار ساعديه .

فصاحت فيرا :

— أوه ، يا للفظاعة !

— واضطر الضابط الى ترك الخدمة . وجمع له رفاقه بعض النقود لنفقات السفر . كان من المحرج له ان يبقى فى المدينة ، اذ كان تأنيبا حيا لها وللفوج كله . وهكذا ضاع هذا الانسان . . على أخس صورة . . أصبح متسولا . . ومات من البرد فى احدى زوايا المرفأ فى بطرسبرج .

اما الحالة الثانية فكانت بائسة تماما . والمرأة كانت ايضا مثل الاولى تماما ، ولكنها

شابة وجميلة . كان سلوكها مشينا ، مشينا جدا . ورغم نظرتنا اللامبالية الى قصص الغرام المنزلية هذه فقد ازعجتنا . اما زوجها فلم يكترث . كان يعرف ويرى كل شيء ولا يهتم . كان اصدقاؤه يلمحون له ، لكنه يشيح بيديه : «دعونى ، دعونى . . لا دخل لى ، لا دخل لى . . المهم ان تكون لينا سعيدة ! . . .» هذا التيس !

واخيرا توطدت علاقتها بالملازم فيشنياكوف من سريتهم . وهكذا عاش ثلاثتهم فى رابطة زواج بزوجين ، وكأنما ذلك أكثر انواع الزواج شرعية . ثم صدرت الاوامر لفوجنا بالتحرك الى الجبهة . وودعتنا نساؤنا ، وكانت هى معهن . وفى الحقيقة كان النظر اليها مخجلا . لو أنها القت نظرة واحدة الى زوجها . كلا ، تعلقت برقبة الملازم كما يتعلق الشيطان على غصن صفصافة جاف ولم تتركه . وساعة الرحيل ، عندما جلسنا فى عربات القطار وتحرك بنا ، صاحت ، الفاجرة ، بزوجها : «تذكر ، حافظ على فولوديا ! لو حدث له شيء فسأترك المنزل

ولن اعود ابدا . والاولاد سآخذهم ! » .

اتظنين ان ذلك النقيب كان بلا ارادة ؟ كان ضعيف الشخصية ؟ بلا عزيمة ؟ ابدا . لقد كان جنديا شجاعا . قاد سريته عند الجبال الخضراء ست مرات نحو الاستحكامات التركية ، ولم يبق من رجاله المائتين سوى اربعة عشر . وجرح مرتين ، ولكنه رفض الذهاب الى المركز الطبى . هكذا كان . والجنود كانوا يصلون لله من اجله .

اما **هى** فقد أمرته . . . زوجته لينا أمرته !

فاخذ يرعى ذلك الجبان التنبل فيشنياكوف ، ذلك اليعسوب الاجدب . . يرعاه كالمربية ، كالام . وعندما يضطرون الى النوم تحت المطر وفى الوحل كان يغطيه بمعطفه . وكان يذهب بدلا منه لاعمال الهندسة ، اما ذاك فكان يرقد فى الملجأ او يلعب الــورق . وفــى الليل كان يفتش بدلا منه على مراكز الحراسة . ولاحظى يا عزيزتى فيرا ان هذا حدث فى الوقت الذى كان البشبيزوق الاتراك يقطعون فيه رؤوس حراسنا بنفس البساطة التى كانت تجتث بها

فلاحة من «ياروسلافل» رؤوس الكرنب فى حديقة منزلها . واقسم لك — وان كان من الحرام ان اذكر ذلك — ان الجميع فرحو اعندما علموا ان فيشنياكوف مات فى المستشفى من التيفوس . . .

— ولكن الم تقابل يا جدى نساء محبات ؟

— اوه ، طبعا يا فيرا . بل اقول لك اكثر من ذلك : ان كل امرأة تقريبا قادرة فى حبها على ضرب اسمى آيات البطولة . اعلمى يا فيرا ان المرأة وهى تقبل وتعانق وتسلم نفسها . . انما هى قد اصبحت أماً بالفعل . والحب بالنسبة لها ، اذا كانت تحب ، يلخص كل معنى الحياة ، والكون كله ! وليس الذنب ذنبها ابدا فى ان الحب اتخذ عند الناس تلك الصور المبتذلة وانحط الى مجرد راحة من راحات الحياة ، الى متعة صغيرة . الرجال هم المذنبون ، الرجال الشبعى فى سن العشرين ، باجساد الفراخ وأرواح الارانب ، غير القادرين على الرغبات القوية والاعمال البطولية وعلى الرقة والتعبد امام الحب . يقال ان كل ذلك كان موجودا فى الماضى . وحتى لو لم يكن موجودا ، الم تحلم بذلك

وتحن اليه افضل عقول البشرية ونفوسها : الشعراء والكتاب والموسيقيون والفنانون ؟ لقد قرأت منذ أيام قصة مانون ليسكو والفارس دى جرييــى . . اتصدقين اننى بكيت حتى سالت دموعى . . . قولى لى يا عزيزتى ، بكل صدق ، الا تحلم كل امرأة فى اعماق نفسها بمثل هذا الحب الوحيد ، الذى يغفر كل شىء ، المستعد لكل شىء ، الحب المتواضع والمتفانى ؟

— أوه ، طبعا يا جدى ، طبعا . . .

— ولما كان هذا الحب غير موجود فالنساء ينتقمن . بعد ثلاثين عاما . . لن أرى ذلك ، اما أنت يا فيرا فربما رأيته . تذكرى ما أقول . بعد ثلاثين عاما ستتبوأ النساء فى العالم مكانة لم يسبق لها مثيل . وسوف يتزين كما تتزين الاصنام الهندية . وسوف يدسننا ، نحن الرجال ، كالعبيد المهانين المحتقرين . وستصبح رغباتهن الطائشة ونزواتهن قوانين معذبة لنا . وكل ذلك لاننا لم نستطع طوال اجيال أن نعبد الحب ونبتهل له . سيكون ذلك انتقاما . اتعرفين القانون القائل : لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار. . .

وصمت قليلا ثم سأل فجأة :

— خبرينى يا فيرا ، اذا لم يكن ذلك محرجا لك ، ما هى قصة عامل التليغراف هذا الذى تحدث عنه الامير فاسيلى اليوم ؟ اين الحقيقة فيها وأين الاختلاق ، كما تعود ان يفعل ؟

— وهل هذا يهمك يا جدى ؟

— كما تشائين يا فيرا ، كما تشائين . . اذا كان هذا يضايقك لسبب ما . . .

— ابدا يا جدى . سأرويها لك بكل سرور .

وحكت للقومندان بالتفصيل عن شخص مجنون بدأ يطاردها بحبه قبل زواجها بعامين . لم تره ابدا ولا تعرف اسمه . كان يكتب لها فقط ويوقع رسائله بأحرف : ج . س . ج . وذات مرة ذكر انه موظف صغير فى احدى الدوائر الحكومية ، ولم يذكر عن التليغراف شيئا . ويبدو انه كان يراقبها على الدوام ، لانه كان يذكر فى رسائله بكل دقة اماكن الحفلات التى كانت ترتادها والجو المحيط بها وما الذى

كانت ترتديه . وكانت رسائله فى البداية قليلة الذوق وتحمل طابع الحماس المضحك ، رغم انها كانت وقورة تماما . ولكن فيرا طلبت منه ذات مرة كتابةً (وبالمناسبة لا تذكر عن ذلك شيئا يا جدى لاحد من منزلنا فهم لا يعرفون شيئا) ألا يضايقها بعد ذلك باعترافاته الغرامية . ومن وقتها كف عن حديث الحب ولم يعد يكتب اليها الا نادرا . . فى عيد الفصح ورأس السنة وعيد ميلادها . وحكت الاميرة فيرا ايضا عن هدية اليوم ، بل ونقلت له بالحرف تقريبا محتويات الرسالة الغريبة لعاشقها الغامض . . .

واخيرا قال الجنرال ببطء :

— نعم . . ربما كان شابا غير طبيعى . . مهووس ، ولكن من يدرى ؟ ربما يكون ذلك الحب الذى تحلم به النساء والذى لم يعد الرجال قادرين عليه بعد هو الذى عبر درب حياتك يا فيرا . مهلا . . اترين الاضواء المتحركة هناك امامنا ؟ لا بد انها مركبتى .

وفى نفس اللحظة ترددت خلفهما زمجرة عالية لمحرك سيارة ، ولمع الطريق الملئ بحفر

العجلات بضوء غاز الاسيتلين الابيض . واقترب جوستاف ايفانوفتش وقال :

— لقد أخذت معى اشياءك يا آنا . . اجلسى . اتسمحوا لى يا صاحب السعادة ان اوصلكم ؟

فقال الجنرال :

— كلا ، شكرا يا عزيزى . اننى لا احب هذه السيارات ، فليس فيها ما يسر ، فقط ترتعش وتطلق رائحة كريهة . حسنا ، وداعا يا فيرا . . — وقال وهو يلثم جبين فيرا ويدها : سوف اكثر من زياراتى منذ الآن .

وودعوا بعضهم بعضا . وأوصل فريسى الاميرة فيرا نيقولايفنا الى بوابة المنزل ، ثم دار بسرعة واختفى فى الظلام بسيارتـه المزمـجرة المتحشرجة .

٩

صعدت الاميرة فيرا الى الشرفة ودخلت المنزل باحساس مزعج . وكانت قد سمعت من

بعيد صوت اخيها نيقولاى العالى ورأت قامته الطويلة الجافة وهى تتنقل بسرعة من ركن الى ركن . وكان فاسيلى لفوفتش جالسا الى طاولة اللعب وقد أحنى بشدة رأسه الكبير الاشقر المقصوص الشعر وهو يخطط بالطباشير على الجوخ الاخضر .

وقال نيقولاى بعصبية وحرك يده اليمنى وكأنه يلقى على الارض بثقل غير مرئى :

— من زمان وانا اصر على ذلك ! من زمان وانا اصر على ايقاف هذه الرسائل الحمقاء . كنت اؤكد حتى قبل زواجك بفيرا ، انكما تتسليان بها كالاطفال ولا تريان فيها الا ما يضحك . . هذه هى فيرا بالمناسبة . . اننى اتحدث يا فيرا مع فاسيلى لفوفتش عن مجنونك هذا ، عن صاحبك ب . ب . ج . اننى اعتبر هذه المراسلة وقحة وسافلة .

فرده شيين ببرود :

— لم تكن هناك أية مراسلات . هو وحده الذى كان يكتب . . .

واحمرت فيرا لدى سماعها هذه العبارة

وجلست على الاريكة فى ظل شجرة لطانيا كبيرة .

وقال نيقولاى نيقولايفتش :

— آسف على هذا التعبير . .

والقى على الارض بثقل كبير غير مرئى وكأنه انتزعه من فوق صدره .

واضافت فيرا وقد اسعدها تأييد زوجها :

— وانا لا أفهم لماذا تسميه صاحبى . . ان لى فيه مثل مالك . . . .

— حسنا ، آسف مرة اخرى . باختصار اريد ان اقول انه لا بد من وضع حد لسخافاته . ففى رأيى ان المسألة تجاوزت حدود الضحك ورسم الرسوم المسلية . . . صدقونى ، ان كل ما يهمنى هنا وما يشغلنى هو سمعتك يا فيرا وانت يا فاسيلى لفوفتش . . .

فقال شيين معترضا :

— لا ، يبدو انك تغالى كثيرا يا نيقولاى . . .

— ربما ، ربما . ولكنكما تخاطران بالوقوع فى مهزلة . . .

فقال الامير :

— لا أرى ما يبرر ذلك .

— تصور ان هذا السوار الاحمق . . . —

ورفع نيقولاى العلبة الحمراء من على الطاولة والقى بها على الفور متقززا . — تصور ان هذا الشيء الكنسى الفظيع بقى لدينا ، او اننا القينا به ، او اهديناه الى داشا . عندئذ سيكون فى وسع ب . ب . ج . ان يتباهى امام معارفه او رفاقه بأن الاميرة فيرا نيقولايفنا شيئا تتقبل منه الهدايا . هذا أولا . وثانيا ، فان النجاح الاول سيشجعه على مواصلة مآثره . سيبعث غدا بخاتم من الماس ، وبعد غد بعقد من الجوهر ، ثم اذا به فى قفص الاتهام بتهمة التبـديـد او الاختلاس ، واذا بالاميرة والامير شيين مدعوان كشهود . ياله من موقف ظريف ! . . .

فصاح فاسيلى لفوفتش :

— كلا ، كلا ، لا بد من رد السوار !

وقالت فيرا موافقة :

— هذا رأيى ايضا . وبأسرع ما يمكن . ولكن كيف نرده ؟ اننا لا نعرف لا اسمه ولا اسم عائلته ولا عنوانه .

فقال نيقولاى نيقولايفتش باستهانة :

— أوه ، هذا شيء تافه . اننا نعرف الحروف الاولى من اسم هذا الـ ب . ب . ج . . ما هى يا فيرا ؟

— ج . س . ج .

— عظيم . وفوق ذلك نعرف انه يخدم فى دائرة ما . هذا كاف تماما . غدا سآخذ دليل المدينة وابحث عن موظف او مستخدم يتطابق اسمه مع هذه الاحرف . واذا لم اجده لسبب من الاسباب فسأستدعى ببساطة مخبر بوليس وآمره بالبحث عنه . واذا كان ذلك صعبا فسأحتفظ بهذه الورقة بخطه . وباختصار ، غدا فى الساعة الثانية بعد الظهر سأكون قد عرفت بالدقة عنوان واسم هذا الشاطر ، بل وحتى مواعيد وجوده فى المنزل . فاذا عرفت ذلك فلن نرد اليه غدا كنزه فحسب ، بل وسنتخذ الاجراءات الكفيلة بألا يذكرنا بوجوده بعد ذلك ابدا .

فسأل الامير فاسيلى :

— ماذا تنوى ان تفعل ؟

ـــ ماذا ؟ سأذهب الى المحافظ واطلب منه ان . .

ـــ كلا ، الا المحافظ . انت تعرف علاقاتنا . . هنا خطر مباشر ان نقع فى مهزلة .

ـــ سيان . سأذهب الى عقيد الشرطة . انه زميلى فى النادى . فليستدع هذا الروميو وليهدده بوضع اصبعه تحت انفه . أتعرف كيف يفعل ذلك ؟ يضع اصبعه تحت أنف الشخص تماما وتبقى يده ثابتة ولا يتحرك الا اصبعه ، ويصيح : «اننى يا حضرة لن اسمح بذلك !»

فقالت فيرا ممتعضة :

ـــ أف ، عن طريق الشرطة !

فأمن الامير :

ـــ معك حق يا فيرا . يستحسن الا يدخل احد غريب فى هذه المسألة ، اذ ستظهر الشائعات والاقاويل . . . نحن نعرف مدينتنا جيدا . كأن الجميع يعيشون فى قوارير زجاجية . . . من الافضل ان اذهب انا الى هذا الـ . . . الشاب ، رغم انه ، من يدرى ، ربما كان فى الستين . . واسلمه السوار ، والقى عليه درسا جيدا صارما .

فقاطعه نيقولاى نيقولايفتش بسرعة :

ـــ اذن سأذهب معك . انت لين . . دعنى انا اتحدث معه . . . والآن يا أصدقائى ـــ واخرج ساعة الجيب ونظر اليها ـــ اعذرونى اذا انصرفت للحظة . لا اكاد أقوى على الوقوف وما زال امامى قضيتان يجب ان اراجعهما .

وقالت فيرا بتردد :

ـــ لست ادرى لماذا بدأت أرثى لهذا المسكين . فرد نيقولاى بحدة مستديرا عند الباب :

ـــ ليس هناك ما يوجب الرثاء . لو أن الذى اقدم على ارسال السوار والرسالة شخص من مستوانا لاستدعاه الامير فاسيلى للمبارزة . ولو لم يفعل ذلك لفعلته انا . ولو كان ذلك فى الماضى لامرت بسحبه الى الاصطبل وجلده هناك . انتظرنى غدا يا فاسيلى لفوفتش فى مكتبك وسأخابرك بالتليفون .

١٠

تناهت من الدرج الملوث بالبصاق روائح

الفئران والقطط والكيروسين والغسيل . وتوقف الامير فاسيلى قبل الطابق السادس وقال لصهره :

— انتظر قليلا . دعنى استرد انفاسى . آه يا كولا ، ما كان ينبغى ان نفعل ذلك . . .

وصعدا دورتين على الدرج . كان الظلام حالكا فى بسطة الدرج حتى ان نيقولاى نيقولايفتش اضطر الى اشعال الكبريت مرتين ليتبين رقم الشقة .

ودق الجرس ففتحت الباب امرأة بدينة شائبة الشعر رمادية العينين ، ترتدى نظارة ، وقامتها محنية قليلا الى الامام ، ربما بسبب مرض ما .

وسأل نيقولاى نيقولايفتش :

— السيد جلتكوف موجود ؟

ونقلت المرأة نظرتها القلقة من عينى احدهما الى عينى الآخر ثم بالعكس . ويبدو ان هيئتهما المحترمة طمأنتها فقالت وهى تفتح الباب :

— موجود ، تفضلا . الباب الاول على اليسار .

ودق بولاط — توجانوفسكى ثلاث دقات

قصيرة حازمة . وتناهى من الداخل حفيف ما . ودق مرة اخرى .

فأجاب صوت واه : — ادخل .

كانت الغرفة منخفضة السقف جدا ، ولكنها واسعة وطويلة للغاية ، مربعة تقريبا . وكان الضوء المتسلل من نافذتين مستديرتين كنوافذ السفن يضيؤها بالكاد . وعموما فقد كانت تشبه صالون الاستراحة فى سفينة شحن . وبجوار احد الحائطين انتصب سرير ضيق ، وبجوار الحائط الآخر اريكة ضخمة عريضة مغطاة ببساط تركمانى رائع متهرئ ، وفى وسط الغرفة طاولة بمفرش اوكرانى مورّد .

لم يكن وجه صاحب الغرفة ظاهرا فى البداية ، اذ كان موليا ظهره للضوء وهو يفرك يديه مضطربا . كان طويل القامة ، نحيلا ، بشعر طويل زغبى ناعم .

وسأل نيقولاى نيقولايفتش بتعال :

— اذا لم اكن مخطئا فأنت السيد جلتـ—كوف ؟

— جلتكوف . اهلا وسهلا . اسمحوا

لى بتقديم نفسى .

وخطا خطوتين نحو توجانوفسكى مادا يده . ولكن نيقولاى نيقولايفتش فى نفس اللحظة ، وكأنما لم يلاحظ تحيته ، استدار بكل جسده نحو شيين .

— ألم اقل لك اننا لم نخطىء .

وصعدت أصابع جلتكوف المعروقة العصبية وهبطت على ازرار السترة البنية القصيرة وهى تزررها وتفكها . وأخيرا قال بعد جهد مشيرا الى الاريكة وهو ينحنى متعثرا :

— ارجو ان تتفضلوا بالجلوس .

أصبح مرئيا كله الآن : وجه شاحب جدا ورقيق مثل وجه الفتيات ، وعينان زرقاوان وذقن طفولى عنيد بغمازة فى وسطه . ويبدو انه كان فى حوالى الثلاثين او الخامسة والثلاثين .

فقال الامير شيين ببساطة وهو يتفحصه بامعان :

— اشكرك .

— Merci — قال نيقولاى نيقولايفتش باقتضاب . وبقى كلاهما واقفين — لقد جئناك

لبضع دقائق فقط . هذا هو الامير فاسيلى لفوفتش شيين زعيم النبلاء المحليين . اما انا فميرزا — بولاط — توجانوفسكى ، وكيل النائب العام . والمسألة التى نتشرف بالحديث فيها معك تمس الامير وتمسنى بنفس الدرجة ، او بالاحرى زوجة الامير أى أختى .

وفجأة انهار جلتكوف المرتبك تماما على الاريكة ودمدم بشفتين ميتتين : «تفضلوا يا سادة بالجلوس» . ولكنه فيما يبدو تذكر انه عرض عليهما نفس الشىء من قبل دون طائل ، فهب واقفا وركض الى النافذة وهو يفرك شعره وعاد الى مكانه السابق . واخذت اصابعه المرتعشة من جديد تتراقص وهى تهصر الازرار وتشد شاربه المائل الى الحمرة وتتحسس وجهه دون داع .

وقال بصوت أجش وهو يتطلع الى فاسيلى لفوفتش بعينين ضارعتين :

— انا فى خدمتكم يا صاحب السمو .

ولكن شيين لزم الصمت . وكان المتحدث نيقولاى نيقولايفتش :

— أولا ، اسمح لى برد هديتك — واخرج من جيبه العلبة الحمراء ووضعها على الطاولة بعناية — انها بالطبع لمما يشرف ذوقك ، ولكننا نرجوك الا تتكرر بعد مثل هذه المفاجآت .

فهمس جلتكوف وهو ينظر الى الارض محمرا :

— عفوا . . . انا اعرف اننى مذنب جدا . . أتسمحون بكوب من الشاى ؟

ولكن نيقولاى نيقولايفتش مضى يقول وكأنه لم يسمع عبارة جلتكوف الاخيرة :

— الحقيقة يا سيد جلتكوف . اننى مسرور اذ وجدتك شخصا مهذبا ، جنتلمان ، قادرا على الفهم بمجرد الاشارة . واعتقد اننا سنتفق على الفور . اذا لم اكن مخطئا فأنت تطارد الاميرة فيرا نيقولايفنا منذ حوالى ٧ — ٨ سنوات ؟

فقال جلتكوف بصوت خافت :

— نعم .

وارخى رموشه فى خشوع .

— ولم نتخذ حتى الآن أية اجراءات ضدك ، مع ان ذلك — ولتوافقنى — لم يكن

ممكنا فحسب ، بل **وضروريا** ايضا . اليس كذلك ؟

— بلى .

— نعم . ولكنك بتصرفك الاخير ، اى بارسالك هذا السوار العقيق ، قد تخطيت الحدود التى ينتهى عندها صبرنا ، اتفهم ؟ ينتهى . ولا اخفى عليك ان اول شىء راودنا هو اللجوء الى السلطات ، ولكنا لم نفعل ذلك ، وانى لسعيد باننا لم نفعل لاننى ، واكرر ، قد خمنت انك انسان شريف .

وفجأة سأل جلتكوف باهتمام :

— عفوا ، ماذا قلت ؟ — وانفجر ضاحكا — اردت اللجوء الى السلطات ؟ هل هذا ما قلته بالضبط ؟

ودس يديه فى جيبيه ، واستراح فى جلسته عند طرف الاريكة ، وتناول علبة السجائر والكبريت واشعل سيجارة .

— وهكذا فقد قلت انكم اردتم اللجوء الى السلطات ؟ . . — وقال مخاطبا الامير — اعذرنى ياامير على جلوسى — حسنا ، وماذا بعد ؟

وقرب الامير كرسيه من الطاولة وجلس . كان يحدق بذهول وفضول نهم وجاد فى وجه هذا الانسان الغريب .

ومضى نيقولاى نيقولايفتش يقول بوقاحة خفيفة :

— فى الواقع يا عزيزى فان هذا الاجراء ممكن اتخاذه ضدك فى اى وقت . فان تحشر نفسك فى أسرة غريبة عنك . . .

— آسف ، ولكنى سأقاطعك .

فقال النائب وهو يكاد يصرخ :

— كلا ، آسف ، بل انا الذى سأقاطعك . . .

— كما تشاء . تفضل . انى مصغ ، ولكن عندى بضع كلمات للامير فاسيلى لفوفتش .

ودون أن يعير توجانوفسكى انتباها قال للامير :

— لقد حلت الآن اصعب لحظة فى حياتى . وينبغى يا امير ان اتحدث اليك بدون اية قيود او مجاملات . . هل ستسمعنى ؟

فقال شيين :

— اننى مصغ — ولاحظ حركة احتجاج

غاضب من توجانوفسكى فقال له — هلا صمت انت يا كولا . تفضل .

وظل جلتكوف لعدة ثوان يلقف الهواء بشفتيه وكأنه يختنق ، ثم انطلق مندفعا كأنما هوى من جرف . كان يتحدث بفكيه فقط ، فقد كانت شفتاه بيضاوين لا تتحركان كشفتى ميت .

— من الصعب ان اتفوه بعبارة . . كهذه . . اننى احب زوجتك . ولكن سبع سنوات من الحب اليائس الموقر تعطينى الحق فى ذلك . اننى موافق على اننى فى البداية ، وفيرا نيقولايفنا بعد آنسة ، كتبت لها رسائل حمقاء ، بل وتوقعت منها ردا . وانى موافق على ان تصرفى الاخير ، اى ارسال السوار ، كان حماقة اكبر . ولكن . . . ها أنذا انظر فى عينيك صراحة واحس أنك ستفهمنى . انا اعرف اننى لست قادرا على نسيانها ابدا . . . خبرنى يا امير . لنفرض ان ذلك يضايقك . . خبرنى ، ما الذى كنت تفعله لقتل هذا الاحساس ؟ أكنت تنقلنى الى مدينة أخرى كما قال نيقولاى نيقولايفتش ؟ ولكنى مع ذلك سأظل هناك أحب فيرا نيقولايفنا

كما احبها هنا . اكنت تضعنى فى السجن ؟ وهناك ايضا كنت سأجد وسيلة لاخبارها بوجودى . لا يبقى غير شيء واحد : الموت . . . اذا اردت فانى مستعد لتلقيه فى اى صورة . .

وقال نيقولاى نيقولايفش وهو يرتدى القبعة :

— بدلا من ان نعمل عملا فاننا نمارس ثرثرة ما . المسألة باختصار شديد ، اننا نعرض عليك واحدة من اثنتين : اما ان تكف تماما عن ملاحقة الاميرة فيرا نيقولايفنا ، واما اذا رفضت ذلك ، فاننا سنتخذ الاجراءات التى يسمح لنا بها وضعنا وعلاقاتنا وما الى ذلك .

ولكن جلتكوف حتى لم ينظر اليه ، رغم انه سمع ما قاله . فقال مخاطبا الامير فاسيلى لفوفتش :

— هل تأذن لى بالتغيب عشر دقائق ؟ لن أخفى عليك اننى سأذهب لمخابرة الاميرة فيرا نيقولايفنا بالتليفون . وأؤكد لك اننى سأنقل لك كل ما يمكن نقله من الحديث .

فقال شيين :

— اذهب .

وعندما بقى فاسيلى لفوفتش وتوجانوفسكى على حدة انقض نيقولاى نيقولايفتش على صهره صارخا ، وهو يشيح بيده اليمنى كأنما يلقى بشيء ثقيل غير مرئى من فوق صدره على الارض .

— لا يمكن هكذا . . لا يمكن هكذا ابدا . لقد سبق ان نبهتك الى ان الجزء العملى كله من الحديث سأتكفل انا به . ولكنك ضعفت وسمحت له بالاسهاب فى التعبير عن مشاعره . كنت سأنهى الامر فى كلمتين .

فقال الامير فاسيلى لفوفتش :

— مهلا . سيتضح الآن كل شيء . المهم اننى أرى وجهه ، وأحس ان هذا الانسان غير قادر على الكذب والخداع المتعمد . وبالفعل يا كولا ، هل هو مذنب فى الحب ، وهل يمكن التحكم فى عاطفة كالحب ، عاطفة لم تجد حتى الآن من يفسرها — وفكر الامير قليلا ثم اضاف : اننى أرثى لهذا الشخص . ولست ارثى له فقط ، بل احس اننى اشهد مأساة روحية ضخمة ، ولا استطيع هنا ان أهرج .

فقال نيقولاى نيقولايفتش :

ـــ هذه مبوعة .

وعاد جلتكوف بعد عشر دقائق . كانت عيناه تلمعان وغائرتين كأنهما مملوءتان بدموع لم تنسكب . وبدا انه نسى تماما قواعد السلوك فى المجتمعات وفى اى مكان من ينبغى ان يجلس ، ولم يعد يتصرف كجنتلمان . ومن جديد ادرك الامير شبين ذلك بفراسة كبيــرة متوترة .

وقال جلتكوف :

ـــ اننى مستعد . لن تسمعوا عنى شيئا غدا . كأنى قد مت بالنسبة لكم . عندى فقط شرط واحد ـــ اننى اقول هذه لك يا امير فاسيلى لفوفتش . الحقيقة اننى بددت اموالا اميرية ، وعلى اى حال سيكون علىّ ان اهرب من هذه المدينة . هل تسمح لى بأن اكتب رسالة اخيرة الى الاميرة فيرا نيقولايفنا ؟

فصرخ نيقولاى نيقولايفتش :

ـــ لا . انتهينا يعنى انتهينا . لا رسائل .

وقال شبين :

ـــ حسنا ، اكتب .

وهمس جلتكوف وهو يبتسم بتكبر :

ـــ هذا كل ما هنالك . لن تسمعوا عنى شيئا بعد الآن ، وبالطبع لن ترونى بعد . الاميرة فيرا نيقولايفنا لم ترد ان تتحدث معى مطلقا . وعندما سألتها هل يمكننى البقاء فى المدينة لكى اراها ولو نادرا ، بالطبع دون ان يقع بصرها علىّ ، اجابت : «آه لو تعلم كم مللت هذه الحكاية كلها . أرجوك ، انته منها بأسرع ما يمكن» . وها أنذا أنهى هذه الحكاية كلها . يبدو اننى فعلت كل ما فى وسعى ؟

وعندما وصل فاسيــلى لفوفتش الى الدار فى المساء روى لزوجته كل تفاصيل لقائه بجلتكوف بدقة بالغة . وكأنما احس بأن عليه ان يفعل ذلك .

ورغم ان فيرا كانت منفعلة الا انها لم تدهش او تضطرب . وعندما جاء زوجها الى فراشها ليلا ، قالت له فجأة وهى توليه ظهرها :

ـــ دعنى . اننى اعرف ان هذا الشخص سيقتل نفسه .

١١

لم تكن الاميرة فيرا نيقولايفنا تقرأ الصحف ابدا ، اولا لانها كانت تلوث يديها ، وثانيا لانها لم تستطع ابدا ان تفهم اللغة التى يكتبون بها الآن .

ولكن القدر جعلها تفتح تلك الصفحة بالذات وتقع عينها على العمود الذى كان مكتوبا فيه :

«وفاة غامضة . فى حوالى الساعة السابعة من مساء الامس انتحر المدعو ج . س . جلتكوف الموظف بغرفة الرقابة . وتدل نتيجة التحقيق على ان سبب انتحار المرحوم هو تبديد اموال اميرية . وهذا على الاقل ما اشار اليه المنتحر فى خطابه . ونظرا لان شهادة الشهود قد اثبتت اقدامه الاختيارى على هذا العمل فقد تقرر عدم ارسال الجثة الى المشرحة» .

وقالت فيرا لنفسها :

«لماذا حدثت ذلك ؟ هذه النهاية التراجيدية بالذات ؟ وترى أكان ذلك حبا ام جنونا ؟»

وظلت طوال النهار تتجول بين احواض

الزهور وفى البستان . وكأنما لم يمكنها القلق الذى كان يتزايد داخلها كل لحظة من البقاء فى مكان واحد . وكانت كل افكارها معلقة بذلك الرجل الذى لم تره ابدا والذى من المستبعد ان تراه بعد الآن . . بذلك الـ ب . ب . ج . المضحك .

وتذكرت كلمات انوسوف : «ربما عبر درب حياتك حب حقيقى متفان صادق» .

وفى الساعة السادسة جاء ساعى البريد .

وفى هذه المرة عرفت فيرا نيقولايفنا خط جلتكوف ، ففضت الرسالة بحنان لم تتوقعه من نفسها .

كتب جلتكوف يقول :

«لست مذنبا يا فيرا نيقولايفنا فى ان ارادة الله شاءت ان تبعث الىّ بحبى لك كسعادة ضخمة . وقد اتفق اننى لم اهتم بشىء فى الحياة ، لا بالسياسة ولا بالعلم ولا بالفلسفة ولا بالتفكير فى سعادة الاجيال القادمة . . كانت الحياة كلها بالنسبة لى تنحصر فيك وحدك . والآن أحس أننى حُشرت فى حياتك اسفينا مزعجا . اغفرى لى ذلك ان استطعت . فاليوم

سأرحل ولن اعود ابدا ، ولن يذكرك بى شيء .
انني مدين لك بعرفان لا حدود له على مجرد وجودك . وقد تحققت من مشاعرى . . ليس هذا مرضا او فكرة جنونية . . انه الحب الذى شاء الله ان يكافئنى به على شيء لا ادريه .

لا بأس ان كنت مضحكا فى نظرك وفى نظر أخيك نيقولاى نيقولايفتش . اننى اقول باعجاب وانا امضى : **«فليتقدس اسمك»** .

لقد رأيتك منذ ثمانى سنوات فى مقصورة بالسيرك ، فقلت لنفسى أنذاك ومنذ اول ثانية : اننى احبها لانه ليس فى الدنيا مثلها ولا اجمل منها ، ليس هناك وحش او نبات او نجمة او انسان اروع منك وارق . كأنما كل جمال الارض قد تركز فيك . . .

فما الذى كان علىّ ان افعله ؟ أأهرب الى مدينة اخرى ؟ سيان ، فقد كان قلبى دائما الى جوارك ، وتحت قدميك ، وكل لحظة من ايامى كانت مليئة بك وبالتفكير فيك والحلم بك . . . بالهذيان العذب . اننى اتضرج خجلا

بينى وبين نفسى على سوارى الاحمق ، فما العمل ؟ كانت غلطة . اننى اتخيل ما اثاره فى نفوس ضيوفك من انطباع .

بعد عشر دقائق سأرحل ، سأتمكن فقط من لصق الطابع ووضع الرسالة فى صندوق البريد حتى لا أكلف بذلك اى شخص آخر . اما انت فلتحرقى هذه الرسالة . فها انذا قد اشعلت المدفأة واحرق فيها الآن كل ما كان عزيزا علىّ فى حياتى : منديلك ، الذى اعترف لك بأننى سرقته . لقد نسيته على الكرسى فى حفلة راقصة فى نادى النبلاء . ورسالتك القصيرة — أوه ، كم قبلتها — والتى منعتنى بها من الكتابة اليك . وبرنامج المعرض الفنى الذى امسكتِ به ذات مرة ثم نسيته على المقعد عند خروجك . . . انتهى كل شيء . لقد مزقت الخيوط ، ومع ذلك اعتقد ، بل اننى موقن من انك ستتذكريننى . فاذا تذكرتنى فأرجو . . . اننى اعرف انك من عشاق الموسيقى ، فقد كنت اراك أكثر شيء فى حفلات بتهوفن . . اذا تذكرتنى فلتعزفى او اطلبى ان يعزفوا سوناتا D-dur N 2”, op. 2

اننى لا اعرف كيف اختم هذه الرسالة . من اعماق قلبى اشكرك على انك كنت بهجتى الوحيدة فى الدنيا ، وعزائى الوحيد وافكارى الوحيدة . فليهبك الله السعادة ، ولا يعكرن صفو روحك الرائعة أى شىء زائل من توافه الحياة . اقبل يديك .

ج . س . ج .»

جاءت الى زوجها بعينين محمرتين من البكاء وبشفتين متورمتين ، وأرته الرسالة قائلة :

— لا اريد أن اخفى عنك شيئا ، ولكنى أحس ان شيئا فظيعا قد دخل حياتنا . يبدو انك ونيقولاى نيقولايفتش قد تصرفتما ليس كما ينبغى .

وقرأ الامير شيين الرسالة باهتمام ، ثم طواها بعناية ، وصمت طويلا ثم قال :

— اننى لا اشك فى اخلاص هذا الرجل ، بل اننى حتى لا اجرؤ على مناقشة مشاعره نحوك .

وسألت فيرا :

— هل مات ؟

— نعم مات . استطيع ان اقول انه

كان يحبك ، ولم يكن قط مجنونا . اننى لم احول عنه عينى ، وتابعت كل حركة من حركاته وكل تحول كان يطرأ على وجهه . وبالنسبة له لم يكن للحياة وجود بدونك . وخيل الىّ اننى أشهد عذابا هائلا ، ذلك العذاب الذى يفضى بالناس الى الموت . بل اننى ادركت تقريبا ان امامى انسانا ميتا . اتعلمين يا فيرا ، لم اكن ادرى كيف اتصرف ولا ماذا افعل . . .

وقاطعته فيرا نيقولايفنا :

— اسمع يا فاسيا ، هل يؤلمك اذا ذهبت الى المدينة والقيت عليه نظرة ؟

— كلا ، كلا يا فيرا ، تفضلى ، ارجوك . كان بودى لو ذهبت ايضا ، ولكن نيقولاى افسد علىّ كل شىء . أخشى ان احس بالتكلف .

١٢

غادرت فيرا نيقولايفنا مركبتها قبل بلوغ لوثرانسكايا بشارعين . وعثرت على شقة جلتكوف

دون مجهود كبير . فتحت لها الباب امرأة رمادية العينين ، بدينة جدا ، ترتدى نظارة فضية ، وسألت كما بالامس :

ـــ من تريدين ؟

فقالت الاميرة :

ـــ السيد جلتكوف .

ويبدو ان زيها ـــ القبعة والقفاز ـــ ونبرة صوتها الآمرة قليلا قد تركت فى نفس ربة المنزل اثرا كبيرا ، فخرجت عن تحفظها :

ـــ تفضلى ، تفضلى ، الباب الاول على اليسار ثم . . حالا . . آه ، لقد رحل عنا بسرعة . لنفرض أنه بدد الاموال . حسنا ، اما كان يخبرنى . انك تعرفين أية ثروة لدينا عندما تؤجر الشقق للعزاب . ومع ذلك كان بوسعى أن اجمع له ستمائة او سبعمائة روبل وادفعها عنه . آه لو تعلمين يا سيدتى أى رجل رائع كان . ثمانى سنوات وهو يسكن عندى ، وكان لا يبدو لى نزيلا ، بل ابنا .

وكان فى المدخل كرسى فجلست فيرا عليه . وقالت وهى تنتقى كل كلمة :

ـــ اننى صديقة نزيلك المرحوم . احكى لى شيئا عن آخر لحظات حياته ، ما الذى فعله وقاله .

ـــ لقد جاءنا يا سيدتى رجلان وتحدثا معه طويلا . وبعدها قال لى انهما عرضا عليه وظيفة وكيل أعمال . ثم ركض السيد «يجى» ليتلفن وعاد فى غاية المرح . وانصرف السيدان ، اما هو فجلس يكتب رسالة . ثم خرج ووضع الرسالة فى صندوق البريد . وبعد ذلك سمعنا طلقة كأنها من مسدس اطفال ، فلم نلتفت الى ذلك ، وكان يتناول الشاى فى السابعة دائما . وجاءت لوكيريا ـــ الخادمة ـــ ودقت الباب فلم يرد ، ودقت مرة اخرى واخرى . واضطررنا الى كسر الباب ، فاذا به ميت .

وقالت فيرا نيقولايفنا آمرة :

ـــ احكى لى شيئا عن السوار .

ـــ آه ، السوار ، لقد نسيت . ومن أين عرفت ؟ لقد جاءنى قبل ان يكتب الرسالة وسألنى : «هل انت كاثوليكية ؟» فأجبته : «كاثوليكية» . فقال لى : «لديكم عادة جميلة ـــ

هكذا قال : عادة جميلة — ان تعلقوا على صورة العذراء العقود والاساور والخواتم والقلائد والهدايا . ارجو ان تحققى رغبتى .. هل تستطيعين تعليق هذا السوار على الايقونة ؟» فوعدته ان أفعل .

فسألتها فيرا :

— هلا أريتنيه ؟

— تفضلى ، تفضلى يا سيدتى . ها هو بابه ، الاول على اليسار . لقد ارادوا اليوم ان ينقلوه الى المشرحة ، ولكن لديه شقيقا رجاهم ان يدفن حسب الاصول المسيحية . تفضلى ، تفضلى .

واستجمعت فيرا قواها وفتحت الباب . كانت رائحة البخور تنبعث فى الغرفة وتشتعل فيها ثلاث شمعات . وكان جلتكوف ممددا بزاوية . كان رأسه مدلى الى الوراء بشدة ، وكأنما عن عمد دسوا تحته ، وهو الجثة التى لم تعد تأبه بشىء ، هذه الوسادة اللينة الصغيرة جدا . وكان فى عينيه المغمضتين اهمية عميقة ، وافترت شفتاه عن ابتسامة رضى واطمئنان ، كأنما ادرك قبل مفارقته

للحياة سرا مكنونا عذبا فسر كل الغاز حياته فى هذه الدنيا . وتذكرت أنها رأت من قبل هذا التعبير المطمئن على اقنعة المعذبين العظيمين : بوشكين ونابليون .

وسألت المرأة العجوز ولاح فى صوتها شىء حميم للغاية :

— هل تريدين يا سيدتى ان اخرج ؟

فقالت فيرا :

— نعم ، وسأناديك فيما بعد .

واخرجت من جيب سترتها الجانبى الصغير على الفور وردة حمراء كبيرة ، ورفعت بيدها اليسرى رأس الميت قليلا ووضعت بيدها اليمنى الوردة تحت رقبته . وفى تلك الثانية ادركت ان ذلك الحب الكبير الذى تحلم به كل امرأة قد مر بجوارها . وتذكرت كلمات الجنرال انوسوف عن الحب الخالد الفائق . . تلك الكلمات التى كانت كالنبوءة تقريبا . وفرقت الشعر على جبهة الميت وضغطت بيديها على صدغيه بقوة وقبلته فى جبينه البارد الرطب قبلة اخوية طويلة .

وعندما توجهت للخروج خاطبتها صاحبة المنزل

بنبرة بولندية متزلفة :

— سيدتى ، اننى ارى انـك لسـت كالاخريات ، لم تأتى بدافع الفضول فقط . لقد قال لى المرحوم جلتكوف قبيل وفاته : «اذا حدث ومت وجاءت سيدة ما تلقى علىّ نظرة ، قولى لها ان أفضل اعمال بتهوفن . . .» ، لقد كتب لى ذلك . انظرى .

— أرينى . . . — قالت فيرا نيقولايفنا وأجهشت فجأة — عفوا ، ان تأثير الموت صعب ، حتى اننى لا اقوى على تمالك نفسى .

وقرأت هذه الكلمات المكتوبة بالخط المعروف . .

L. van Beethoven. Son. N 2, op. 2. Largo Appassionato.

١٣

عادت فيرا نيقولايفنا الى المنزل فى ساعة متأخرة من المساء ، وسرها ان لم تجد فى المنزل زوجها او اخاها .

ولكن كانت فى انتظارها العازفة جينى

ريتر ، فارتمت عليها فيرا منفعلة بما رأته وسمعته ، صاحت و هى تقبل يديها الكبيرتين الرائعتين :

— جينى يا عزيزتى ، ارجوك ، اعزفى لى شيئا ما .

وخرجت على الفور من الغرفة الى احواض الزهور وجلست على الاريكة .

لم تشك لحظة واحدة فى ان جينى ستعزف ذلك المقطع من السوناتا الثانية الذى طلبه هذا الميت ذو الاسم المضحـــك جلتكوف .

وهذا ما كان . عرفت من النغمات الاولى هذا العمل الفائق والفريد من حيث عمقه . وكأنما انقسمت روحها قسمين . وفكرت فى آن واحد بأنه قد مر بجوارها حب كبير ، لا يتكرر الا مرة واحدة كل الف عام . وتذكرت ما قاله الجنرال انوسوف وسألت نفسها لماذا جعلها هذا الانسان تستمع الى معزوفة بتهوفن هذه بالذات وفوق ذلك رغما عنها ؟ وتجمعت فى ذهنها كلمات ، انسجمت فى افكارها مع

الموسيقى حتى بدت كمقاطع تنتهي بعبارة : «**فليتقدس اسمك**» .

«الآن سأريك في الانغام الرقيقة حياة حكمت على نفسها راضية قريرة بالعذاب والالام والموت . لم أعرف الشكوى او اللوم او عذاب العزة المهيضة . انا امامك دعاء واحد : «**فليتقدس اسمك**» .

نعم ، انني اتنبأ بالعذاب والدم والموت . واعتقد ان فراق الروح سيكون صعبا على الجسد ، ولكن يا رائعتي ، لك الثناء ، الثناء الحار والحب المستكين . «**فليتقدس اسمك**» .

اتذكر كل خطوة لك ، ابتسامة ونظرة ، كل صوت ند عن مشيتك . وذكرياتي الاخيرة ملفعة بحزن عذب ، هادئ رائع . لكني لن احمل لك التعاسة . انني أرحل وحيدا ، في صمت ، فهكذا اراد الله والقدر . «**فليتقدس اسمك**» .

وفي ساعة ما قبل الموت الحزينة اصلي لك وحدك . كان من الممكن ان تصبح الحياة رائعة لي أيضا . لا تتذمر يا قلبي المسكين

لا تتذمر . نفسي تدعو الموت ، ولكن قلبي عامر بالثناء عليك ، «**فليتقدس اسمك**» .

انت ، انت ومن حولك ، كلكم لا تعرفون كم كنت رائعة . الساعة تدق . ازف الموعد . وفي لحظة فراق الحياة الحزينة ، اغني وانا راحل : المجد لك .

ها هو الموت قادم ، الموت الناشر السكينة على كل شيء ، اما انا فأقول : المجد لك ! . . .»

احتضنت الاميرة فيرا جذع الاكاسيا والتصقت به واجهشت بالبكاء . وارتعشت الشجرة برقة . وهب نسيم خفيف فهفهفت الاوراق كأنما تعزي الاميرة . وازداد شذى زهور الطباق حدة . . . وفي تلك اللحظة مضت الموسيقى المدهشة تهمس كأنما تنساق لحزنها :

«اهدئي يا عزيزتي ، اهدئي . انت تذكرينني ؟ تذكرينني ؟ انت حبي الوحيد والاخير . اهدئي انني معك . فكري فيّ وسأكون معك ، لاننا احببنا بعضنا لحظة واحدة ولكن الى الابد . اتذكرينني ؟ تذكرينني ؟ تذكرينني ؟ ها انا احس بدموعك . اهدئي . انني انام

نوما عذبا ، عذبا ، عذبا» .

خرجت جيني ريتر من الغرفة وقد انتهت من العزف فرأت الاميرة فيرا جالسة على الاريكة مبللة بالدموع .

فسألت العازفة :

— ماذا بك ؟

فأخذت فيرا تقبل وجهها وشفتيها وعينيها باضطراب وانفعال وعيناها تلمعان بالدموع ، وقالت :

— لا شيء ، لا شيء ، لقد سامحني الآن . حسن ، حسن .

عام ١٩١١

محتويات

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتـــاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو ـــ الاتحاد السوفييتي

صدر عن دار «رادوغا»

ايفان تورغينيف . مختارات فى خمسة مجلدات . المجلد ٢ . رودين . عش النبلاء . روايتان .

يضم المجلد الثانى من مختارات تورغينيف روايتيه «رودين» (١٨٥٦) و«عش النبلاء» (١٨٥٩)

تتحدث رواية «رودين» عن المثقفين الطليعيين من طبقة النبلاء فى روسيا فى اواسط القرن الماضى . ويعالج تورغينيف الاهمية الاجتماعية لاشخاص مثل رودين ودورهم فى تاريخ الفكر الاجتماعى الروسى .

اما رواية «عش النبلاء» فانها تتناول قصة حب مفعمة بروح الفجيعة ، ولكنها فى الوقت نفسه رواية تتحدث عن الواجب الاخلاقى والوطنى ، وعن نكران الذات والسعادة والبحث عن مغزى الحياة .